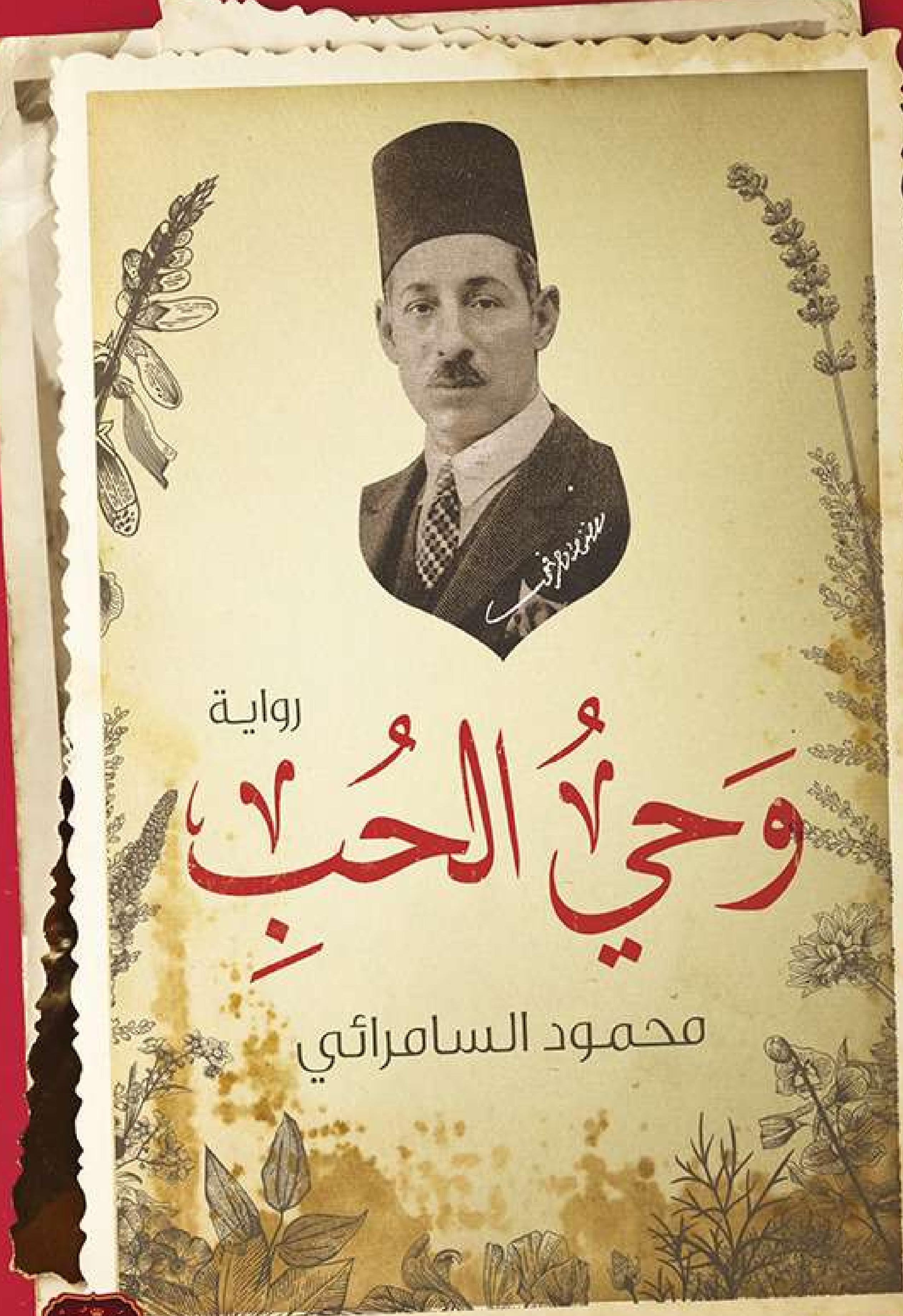


عصير الكتب
للنشر والتوزيع

الحب

وحي الحب



الكتـــاب: وحي الحب

المـــؤلـــف: محمود السامرائي

تنسيق داخلي: عمر جوبا

الطبعة الأولى: يناير 2020

رقم الإيـــداع: 2019/26579

I. S. B. N: 978-977-992-070-2

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع



محمود السامرائي



لمزيد من الكتب الحصرية

زوروا موقعنا

موقع عصير الكتب

www.booksjuice.com



في محل الإهداء

وما أريد من الحبِّ إلا الفنَّ، فإن جاء من الهجر فنٌّ فهو الحبُّ..

لقد أصبحت أرى أَليَنَ العطف في أقسى الهجر...

ولن أطلب الحبَّ إلا في عصيان الحبّ، أريدها غضبى، فهذا جمالٌ يلائم طبيعتي الشديدة، وحبٌّ يناسب كبريائي، ودع جرحي يترشَّرش دمًا، فهذه لعمري قوَّةُ الجسم الذي ينبت ثمرَ العضل وشوكَ المخلب..

الرافعي

(٥)

والقلب الكريم لا ينسى شيئًا أحبَّه ولا شيئًا ألفه.

القاهرة ١٩٣٥م:

كان ذلك الرجل الأشيب المطربش الذي تخطى الرابعة والخمسين ومعه تلميذه وصديقه محمد سعيد العريان يسيران في القاهرة قرب (الأهرام)، فنظر ذلك الرجل الأشيب إلى شارع ممتد، فوقف وأخذ ينظر إليه بحنين بالغ وشوق كبير، اتكأ على عصاه فكان مشهده ينمُّ عن الضعف، لم يشعر العريان يومًا بأن أستاذَه أكبر منه بربع قرن إلا في تلك اللحظة، فقد طوته السنون وجعلته شيخًا هرمًا..فقال:

- لنسر في هذا الشارع..

ومضى متكئًا على عصاه وقد تغير حاله وظهر حقًا أنه ابن الخامسة والخمسين، ومن يره الآن يؤمن أنّ شبابه قد ولى بعيدًا، وأنَّ الرجل صاحب الفكاهة وروح الشباب قد انسلخ عجوزًا، إلى أن وقف أمام بيت موصدة أبوابه، فرفع رأسه إلى نافذة البيت التي كانت مغلقة أيضا، وقال بصوت مشج متهدج يظهر الإنسان الضعيف:

- إنها هنا..هذه دارها من يدري؟ لعلها خلف هذه النافذة!

- من هي؟

- هي...هي هنا!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- ولكنَّ النوافذ مغلقة جميعًا، ولا بصيصَ من نور، فأين تكون؟

- لعلها في السينما. إذا كان الصباح فاغدُ عليَّ مبكرًا لنزرها معًا، إن بي حنينًا إلى الماضي.. ليتني لم أتركها ولم أقاطعها وأخرج غاضبًا، ليتني تركت كبريائي جانبًا، ولكن أترى من اللائق أن أزورها بعد كل ما كان؟

- وما يمنع؟ أحسبها ستسر كثيرًا بلقياك!

- إذن في الصباح، وستكون معي، (ثم مازحًا مداعبًا) ولكن احذر، احذر أن تغلبك على قلبك، أو أن تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك..إنها فتنة!

- لا، إنها عجوز فما حاجتي بها؟ (ثم ضحك)

- عجوز! إنها أوفر شبابًا منك!

- قد يكون ذلك لو أنَّ السنَّ قد توقف بها منذ اثني عشر عامًا.

فقال بصوت متهدج:

- صدقت..اثنا عشر عامًا!

ثم مشى إلى بيت أخيه وهو صامت كئيب، يتذكرها.

وكان العريان يسأل نفسه: هل حقًا ندم على فعلته معها؟ ولكن ليس هو من يندم، ولكنه نادم.

فقال له:

- اليوم كنت عند الأستاذ أحمد حسن الزيّات، وقد عرض عليَّ أن أكمل المقالات الثلاث التي كتبتها عنك، فوجدت موضوعًا طريفًا ظريفًا لأكتب عنه.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- وما هو؟

- (عشقك)، عن قصصك معها ومع غيرها.

ففكر قليلًا وهو يسير، فقال:

- موافق. ولكن بشرط.

- ما هو؟

- أن أعيد القصة عليك كاملة.

- وهذا الذي أريده.

- وسوف أقصُّها عليك الليلة كلَّها، قبل أن يطلع الفجر ونذهب إليها، أريدها أن تكون الليلة آخر ليلة لهذه الجفوة والقطيعة الطويلة، وسوف أذكر لك القصة كاملة.

- حاضر.. ومن هي أول حبيبة؟

- هي فتاة عرفتها قديمًا في ربوة لبنان ينتهي الوصف إلى جمالها ثم يقف..

ثم عادت به الذكرى لأربعٍ وثلاثين سنة قد خلت..



عصير الكتب للنشر والتوزيع

القسم الأول

شاعر الحسن

سلوني أنبئكم فلم يدر ما الهوى

سواي، وهل في الناس مثلي من صب؟!

إذا شعراء الصيد عدوا فإنني

لشاعر هذا الحسن في العجم والعرب

(١)

(عصفورة)لقطت قلبي.

رآها ولفرط إجلاله إيّاها كأنما خيال ملك يتمثل له في حلم من أحلام الجنة، ورأى في عينيها صفاء الشريعة السماوية، وفي خديها توقد الفكر الإلهي العظيم، وعلى شفتيها احمرار الذي يخيل للعاشق دائمًا أن شمس روحه تكاد تمسي، ورآها جملة الجمل تمثال الفن الإلهي الخالد الذي يدرس بالفكر والتأمل لا بالحس والتلمس، صار يشعر بحقيقة الحبِّ ويفهم معناه السماوي وهو الذي يقول لك صادقًا مصدوقًا: إن كل لفظة من لغة الطبيعة في تفسير معنى الحب كأنها صلصلة الملك الذي يفجأ بالوحي في أول عهد الرسالة..

كصلصلة الملك المنزل بالوحي على الأنبياء يصلصل الحب على قلب شاعر الحسن في ذلك الجسر..جسر كفر الزيات، كان يغدو ويروح ويتردد إلى هذا الجسر، أطل هذا الشاب ذو الواحد والعشرين عاما وهو يتفجر شبابًا وحبًّا، كان ذلك الجسر في تلك الربوة الخضراء النضرة، تمر منه الملاح الحسان، عندما أطلت تلك الفتاة رقصت مشاعر شاعر الحسن لها، فسرت به نشوة قليلًا قليلًا، ثم سرى قليلًا قليلًا فما هو إلا أن أصاب قلبه حتى انتفض كأن قبلة حارة انطبعت عليه ومسَّته بشفتيها الرقيقتين، فكانت هذه الطرقة هدية الروح إلى القلب، استمر ينظر إليها فكانت كأنها أم وهو طفل حزين، فلما بدت مبتسمة غسلت قلبه، غسلت قلبه من كل تلك الهموم والغموم والأحزان، ولم يدر كم من الوقت قضاه ناظرًا

عصير الكتب للنشر والتوزيع

إليها، فهو لم ينظر إلى ساعته أو وجه الزمن، بل وقف الزمان ولم يعد له حسبان في حضرتها.

عاد وقد استبد الحبُّ في قلبه ودخل في نطاق استبدادها، لم ينتبه إلى الطريق، بل كان حائرًا شاردًا يفكر بها وبجمالها الساحر المُسكر الذي انتفض بكارة قلبه العاشق.

شعر أن جو الشام[1] قد ملأه تلهفًا وشغفًا وهيامًا لها، صار يتأمل جمال الربوة وانبساطها الخضراء النضرة، شعر أن شيئًا فيه يضطرب، يلح عليه، تداخلت الصور بين الجسر ومليحته الفاتنة والخضرة التي حشدت شاعرية توشك أن تولد، حان وقت ولادة شاعر، شعر في هزة تعتريه، لا بد أن يكتب وينشد شعرًا، يخرج ورقة ويأخذ بالكتابة..

- ماذا؟ كتبت قصيدة؟ متى؟

- اليوم..منذ قليل؟

- وهل أنت شاعر يا مصطفى؟

- يا صاحبي اسمع قصيدي ثم أحكم.

فقال صاحبه في شيء من التهكم:

- هنيئًا للشيخ عبد الرزاق، بعث ولده ليصطاف فصار شاعرًا، أسمعني.

فأخرج ورقة من جيبه بارتباك، وقال:

يا نفحة الجنَّاتِ من تلك الربى

كم ذا يطول تلهفي وهيامي

(١) المقصود بالشام هنا لبنان.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

بيني وبينك بحر دمع يرتمي

من عين مهجور وبر خصام

لهفي على ريح الشام ونظرة

من أرضها لهوى هنالك نامي

أرض بنوها الصيد كيف تواثبوا

عنت الحياة لهم بكل مرام

حملوا النبوة وهي روح بلادهم

ومضوا بوحي العزم والإقدام

أرض كساها الوحي جوًا عاطرًا

وبنى لها أفقًا من الأنغام

الله زينها بكل بديعة

باحت بأسرار من الإلهام

وهنا يريك الحسن صفحة شاعر

وهنا يريك صحيفة الرسام

والحسن مختلف المواطن في الورى

لكنما حسن الطبيعة شامي

- اللّه اللّه، أنت شاعرٌ فحلٌ يا يا صديقي.

فقال مصطفى مداريًا خجله:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- لا تبالغ، ما زلت شويعرًا.

- لا لا، هذا كلام كبير، وسيفرح أبوك جدًّا.

- أرجو ذلك.

وصار لا يجلس في مجلس إلا وقض عليه ذاك المجلس وانتفض لما ألم به من داء العشاق لا دواء له إلا عيني الحبيب، ولا يسكن قلبه إلا إذا التقى قلباهما، خرج إلى فناء المنزل وهو يريد أن يشكو يعترف بحبه يصرخ، يريد لقياها، ورأى القمر بازغًا وقد صار بدرًا، وفي سكون ذلك الليل وصار يتأمل وهو ينظر إلى القمر البازغ والجبال المكسوة بالخضرة تهيج مشاعره وعشقه الفتي الوليد، صار يتأمل ذلك القمر المنير ويشكو إليه بثه وحزنه ويناجيه بأحلام القلب العاشق، وصار القمر يجيبه الجواب الصامت البليغ، بأن يطرح بعض أشعته في قلبه، ويجيبه ويعرف ما يريده كقلب العاشق عندما يرى في ألحاظ حبيبته بالنظرة الواحدة ما في نفسه وما في نفسها، فقال محدثا القمر المنير:

- آهٍ يا قمري الجميل، إنك لتسكب الصمتَ والنومَ والأحلامَ على الناس، إلا العشاق وهم ملائكة الناس يقبلون على الفكر والنجوى، ويقبل العشاق فينظمون الشعر الإلهيَّ الذي تمتزج فيه ألحان الملائكة بأنغامِ الطيور وآهات العشاق..

ولما نطق جملته الأخيرة (آهات العشاق) صمت برهة وصار يتذكر فتاته عند الجسر، من هي؟ ومن أي القرى هي؟ وهل ستعود غدا؟ لم أرها ليومين متتالين، قد تكون تلك لحظة عابرة ومضت؟

وظل يفكر ويسأل نفسه وقد طاب للعاشقين السهر، إلى أن تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ولما جنحت الشمس نحو المغيب كان صاحبنا قد تهيأ للخروج، لعله يلقاها ويظفر بنظرة من جناها المعلل، وضع عطرًا، ورجل شعره، ووضع طربوشه مع بذلته المتأنقة، وخرج يسير بوقار وهيبة شاعر، وبينما هو سائر مرت امرأة متوسطة الجمال، فقال: الشاب الظريف. ثم مرت واحدة هي أجمل وأظرف، فقال: أحمد شوقي. ثم مرت فتاة ساحرة الجمال، فقال: البارودي.

وبينما هو يصف النساء على طبقات الشعراء فتلك المتنبي وتلك أبو فراس الحمداني، مرت فتاة سمراء ملفلفة بثوب أسود لا يكاد يبدي منها شيئًا، فقال بازدراء: حفني ناصف!

وبينما هو واقف على الجسر يصنف النساء طبقات مرت الفتاة التي رآها منذ أيام بنفس المكان..هي التي ناجى بها القمر، ولما رأته مشت من جنبه على استحياء كأنها تريد الفرار، وهي كأنَّها بلبل يفر من ظل إلى ظل في رياض الجمال، وهو كأنَّ فيه روح النسر يسير خلف البلبل الصغير الذي حاول عبثًا أن يطويه وهو لا يبلغ قصبة في ريشة في جناح هذا النسر.

فتوقفت، ويا لها من لحظة جمدت الأشياء، حتى كاد الزمن لا يجري بل يتحول إلى قطعة ثابتة من الأبدية التي لا بد إلا تكون إلا ميتة حتى الزمن نفسه.

ولكن الثغر البسام لم يدعه يموت بشعاعه، فهو يتدفق بحياة حلوة لذيذة ويموت أحلى من هذه الحياة وألذ، غير أنه لا يموت لأن الحسن يبخل بمثل هذا الموت الهنيء.

فقالت له:

- ويحك! ما لك تلاحقني وكأنَّك مفترس يلحق بفريسته؟

ويلاه لما نطقت جملتها، ما أن هوت كلمتها في فؤاده حتى ذابت فيه كما يذوب السحاب الغدق فيصفو عن غمامة رقيقة بيضاء.

فقال بلا مقدمات:

- لست مفترسًا، إنما عاشق، وهل في ذلك إثم أو حرج؟

فابتسمت كأنما تستهزئ به، ثم ضحكت، فطار قلبه إلى عالم شعري علوي، وقال لها مرتجلًا:

تلألأت الضحكات في جنباتها

فتخال ضوء الشمس هز صقالها

من ثغرها، من منبع النور الذي

نبعت به ضحكاتها فأسالها

ثم سرعان ما انقلبت لهجتها وتغيرت، وقالت:

- وشاعر أيضًا؟

(ثم أردفت بدلال):

- لك الله ألا تكفَّ عني؟

- كفي نظراتك عني أرجوك.

فقالت وقد اعتلاها كرب خفيف:

- ويحك، لم؟

فقال متغزلا:

- يا ويل الناظرين من عينيك..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقالت مدارية ابتسامتها بلهجة جدية:

- أكل هذا مني؟

- وأكثر، نظراتك يا حواء قد أوهت عزماتي.

- لم أرتكب إثمًا، إنما عابرة سبيل.

- بل عليك التوقف عن المسير، فأنا عاشق ضرير.

- إنك تبصر الألحاظ وما تخفي القلوب، فكيف بك ضرير؟

- قد ارتمى الأدب والشعر والشعراء عند قدميك صرعًا لا حراك لهم.

- يا ويلي منك.

ولما قالت جملتها الأخير شعر بأنها لانت ووقعت في مصائد حبه وهيامه، فقال لها بلهجة المتعربد بحبها:

- أقولها لك بقلب يملؤ ما بين خافق السماوات والأرض: أحبك..

فتورد خدها الجميل خجلًا، وكأنَّ الكلمات لم تعد تسعفها، وكطفل يتعلم الكلام ويتلعثم ويقلب بالحروف صارت تتلعثم، فقالت مرتبكة:

- لم تعرفني حتى تحبني.

- قلبي يتكلم يا حبيبتي، لا لسان يؤمن بأعراف وعادات.

- وهل أنت كافر بكل الأعراف والعادات؟؟

- في سبيلك؟؟ أجل.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كانت خجلة وجلة وهي تسمع كلامه الذي لاقى في نفسها هوى وعانقه، بل كل واحد منهم صار يشعر أن كلماتهم تتعانق وتقبل بعضها البعض، وكأن لم يأت إلى الشام إلا للقياها ومغازلتها.

فقالت بدلال وخجل:

- قد حان وقت المغيب، سأذهب.

فما أن نطقت بلهجتها العذبة حتى شعر بشعورين متناقضين، أولا الابتهاج والانشراح لأن لهجتها تنم عن حبٍّ وليد، وشعر كأنها تهاوت في أعماق قلبه، وثانيًا الحزن لحبه المهدد بالتبدد وشعوره أنها ستذهب، فقال بلهجة التوسل والرجاء اللذين داراهما بغرور محبوب:

- متى أراك؟

فقالت بعد تردد غير قليل:

- غدًا..

فمضت مسرعة خجلة فرحة، وقد كان يختلج في نفسها ما في نفسه وإن لم تفصح عنه، صار لها حبيب شاعر بارع فمن يضاهيها من بنات القرية؟ حبيب يتغزل بها وكأنها ليلى وقد تغزل بها مجنونها، عادت تطير إلى بيتها ابتهاجًا بما دانت لها من تمائم العشاق، تمشي إلى قريتها مهرولة إذ كانت تلمح من يسير خلفها!

رجع شاعر الحسن إلى بيته وفي الطريق تفكر في أمره مع صاحبة الجسر وما صنعت به، وقال لنفسه: إنه لم يخلق للحب، ولكن أحبَّ وهام، وأنَّ أباه كان يقول له: إنك رجل باذخ، وجبل شامخ، تدرس رغم مرضك. كيف تغير حاله بأيام معدودات وصار ينتظرها، كأن لم تكتب إلا له، وعادت به الذكرى وجال واقعه في باله، وتذكر مصر وطنطا والوظيفة،

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ولكن كيف سيترك حبه إن عاد لمصر؟ والعودة لمصر قد قربت وإجازته دانت من النهاية، هل يتزوجها؟

وتكدر صفوه بهذه الخواطر، وكاد يلعن الحبَّ وساعته عندما تذكر طنطا وتذكر فراق صاحبة الجسر التي لم يعرف اسمها إلى الآن، قطع الطريق وهو يقلِّب ذاكرته، تذكر كيف استظهر القران ولمّا يبلغ الثانية عشر بعد، وخلواته وجلوسه في مكتبة أبيه القاضي، ودراسته لساعات طوال دون كللٍ أو ملل، وأن أباه القاضي كان عونه، يشجعه ويوقد همته، ويقول له: إن هذا يعدل الجهاد في سبيل اللّه، فأنت تجاهد وتكابد في سبيل العلم.

صار يستحضر استحضاره وانكبابه على المكتبة وهو يدرس ثماني ساعات متتابعات، تذكر خلواته مع (الأغاني) و(الكامل) و(الجاحظ)، ودخوله المدرسة الابتدائية وهو في الثانية عشرة من عمره، ثم مرضه الذي أودى به في البيت.

لقد كانت حياته بعد مرضه تنقضي في المكتبة حتى بعد أن تعين كاتبًا بمحكمة طنطا، ظل يقضي أوقاته في مدرسته التي صار هو الأستاذ والتلميذ فيها، لقد خالط فكر الأوائل وامتزج بهم وارتمى بين أحضانهم، فكأنه قديم ابتعث في هذا العصر.

والآن وقد لقي فلانته، فقد وهجت نفسه، وهاجت بلابله شعرًا، وهو الآن يمتلك شعورًا قويًا بأنه أشعر من شوقي والبارودي، لقد تابع كل شعراء بلده، وقرأ شعرهم وعرف أساليبهم، كبرت أحلامه واستفحلت حتى يخيل له أنه ارتقى إلى سماء الأدب، وصار يحلم أن يصدر ديوان عنها، له قلب يرفرف في سماء الحب الجميل وفي سمائها هي، وله حديث مع قمره.

تناصف الليل، قام من فراشه، وخرج مخاطبًا القمر، فقال:

يـا ليـل هيجـت أشـواقا أداريهـا

فسـل بهـا البـدر إن البـدر يدريهـا

نظر إلى القمر في اشتياق وقال:

يا قمر السماء، ويا مثال النية البيضاء هل ترضى ما يحصل لي؟ أحببتها ولا أعلم ما أقول لها، أأطلبها للزواج؟ يجب أن أسرع في قراري فعودتي لمصر قد دنت، يا قمري هي التي يلقي عليها الحب صلاته وسلامه، ويتخذ الحسن من ألحاظها إشارته وكلامه، ولا يقابلها الغرام أينما التفتت في الناس إلا بدمعة أو ابتسامة. أتراني يا قمري أني غاد من الشام مبتسمًا أم أشأمًا؟

يا أيها القمر أريت ابتسامتها؟ أريت كيف انهارت فلسفات الجمال في حضرتها وركعت؟ إن لهذا الابتسام روحًا هي الخالص التقي النقي منه، فإذا أردت أن تشهد روح الابتسام وتقواه وإيمانه يتلألأ في غمرتك فانظر إليها، انظر لحسنها وتأمل بربك أيُّها القمر كيف تحرك بروح الابتسام في شفتيها الرقيقتين حياة الهوى وما حوى.

ومالت الشمس إلى المغيب وهو ينتظر فاتنته على الجسر، كانت علامات التوتر بادية عليه، لم يعد يسمي النساء بأسماء القصائد والشعراء كما اعتاد، فهي الشعر كله والبيان جله.

وأتت كعادتها تسير على استحياء، فقال لها بلا سلام:

- أحبك.

فقالت وقد جمعت قواها ومشاعرها، وكأنها طفل يريد النطق فعجز، فقالت بسرعة خاطفة:

- وأنا أحبك أيضًا!

فعجب وفرح فرحًا أعجزه عن الكلام:

- ماذا تقولين؟ أتحبـ..ينـ.نـ.ـي؟

فتبسمت من ظرافته وارتباكه، وقالت:

- نعم، أحبك ولم أعرف اسمك أصلًا.

- ولا تعنينا الأسماء، الحب أكبر مما نتصوره، أو نتخيله.

- وماذا يعني لك الحب أصلًا؟

فزفر زفرة الارتياح لسؤالها، وقال:

الحـبُّ سـجدةُ عاشـق

مـا أرضـه إلا جبينـه

- الحبُّ أفق طاهر نحلق فيه، فهو ليس حقيقة واحدة عجيبة، بل حقائق أربع داخل بعضها بعضًا، فلا يتميز لون منها من لون منها.

- فما حقيقة الحبِّ؟

فقال وهو يسرح في خيالاته:

- وما حقيقة الحب إلا امتزاج نفسين بكل ما فيهما من الحقائق، حتى قال بعضهم: لا يصلح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لاحدهما أن يقول للآخر: يا أنا. أحبك يا أنا.

ثم علا صوته وهو يقول:

- أحبك يا أنا..أحبك..

فمدت يدها الرقيقتين إلى فيه وهي تقول له:

- اسكت.. اسكت ستفضحنا، نحن على الجسر.

فقال برجاء بعد أن أنزلت راحتها سريعًا:

- لنسر قليلا بهدوء.

فقالت بدلال:

- هيا لنسر بهدوء.

فصارا يمشيان في ظل تلك الأشجار الكثيفة، ويجوسان تلك الأوراق المتساقطة المتناثرة. فقال لها بتأنٍّ:

- ما اسمك؟

- اسمي عصفورة، من هذه القرية المجاورة للجسر، وأنت؟

- اسمي مصطفى صادق ابن الشيخ عبد الرزاق الرافعي القاضي، أصلي من طرابلس الشام، وأسكن في مصر (طنطا)، أبي يعمل قاضيًا، وأنا أعمل كاتبًا في محكمة طنطا.

- لماذا تسكنون مصر إذا كان موطنكم الأصلي الشام؟

- جدي (رحمه الله) جاء إلى مصر ليتولى القضاء، وكان كبير الفقهاء الأحناف، واستمرت عائلتنا في العمل بالقضاء منذ بداية القرن المنصرم، وأنا الآن في زيارة أقاربي هنا .

كان المغيب يقطر سمرة هادئة وهي تجنح نحو المغيب، وقد تلألأ شعرها، هي التي أحبها ويرى إليها منتهى الوصف في الجمال ثمَّ يقف، كانت الشمس كأنما تجري شعرها ذهبًا وتتوقد في خدها ياقوتًا، وتسطع

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ـ في ثغرها لؤلؤة، وكان يرى الورد الذي يزرعه الناس في رياضهم، فإذا تأمل شفتيها رأى ورقتين من الورد الذي يزرعه اللّٰه في جنته، وهي التي لها حينًا خفة العصفور وحينًا كبرياء الطاووس ودائمًا وداعة الحمامة المستأنسة، وكانت روحها عطرة، تنفخ نفخ المسك إذا تشامّت الأرواح الغزلة بالحاسة الشعرية التي فيها!

وكلما زاد نظره إليها تبلور قلبه وهو يحتضر من ألم الهوى ما يجعله يموت ثم يحيا، وكلما نظر إليها لا يجدها إلا كلها شعاع، وكلها نور، وكلها حسن.

عندما ينتظرها عند الجسر العاج بالغاديات والرائحات من الملاح، لم يعد يبصر اللواتي حوله، لأنه كلما نظر حولها وجد من الفرق بينها وبينهن ما يتضاعف من جهتها عاليًا عاليًا، ويتضاعف منها نازلًا نازلًا، كأنه ليس من الأمر إلا أنها أخذت من السماء ثم وضعت بينهن!

هي كالفتنة المحتومة، فليس منها شيء إلا هو يحسن شيئًا، ويشوق إلى شيء، وبعضها يزين بعضها.

قالت له بصوت مغنج:

- مصطفى ينتابني شعور الفراق والبعد والهجران، وكأني بفراقك قريبة العهد.

فتذكر عودته إلى مصر التي اقتربت، وكأن الدنيا قد انقلبت وضاقت بما رحبت. فقال:

- اتركي هذه الأفكار، ولنعش في كنف الحب سالمين.

- أنا لا أخشى شيئًا معك، وأشعر بطمأنينة تعتريني.

- وأنا كذلك يا حبيبتي.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- حان وقت ذهابي، سنلتقي غدًا.

- لا تتأخري..إلى اللقاء.

ومس يدها ثم بسرعة خاطفة قبل يدها، ومضت خجلة مبتسمة! عاد وألم قد أثقله وتسلطن عليه، راح يتهادى في تلك الخضرة النضرة. وتحت ضوء القمر ارتمى على مقعد معد للجلوس، فقال محدثًا صديقه الذي لا يتركه:

- يا قمري الجميل اقترب موعد الرحيل ودنا، ولا أعلم ما أنا صانع بقمري، فأنا العاشق المستهام، وفي عينيها قد كمنت روحي، يا قمري كيف أفارقها؟ لا شيء أقوى من الجمال والحب إلا دموع هذه الحبيبة البريئة.

خرج هذا اليوم مبكرًا لعله يظفر بها عند الجسر، فالانتظار على الجسر أوهن من الانتظار في البيت. ولم تمض برهة حتى أتت مجيبة نداءَ قلبه ومستجيبة له، فقالت له بضحكة ودلال وكعادتها بلا سلام:

- لا أحبك.

فقال بنفس لهجتها:

- إن فيها (أحبك) وهذا يكفي.

ثم زادت في ضحكتها وهي تسير بين الأشجار معه، فقالت:

- أعني أبغضك.

- ولكنه بغض من تضحك كما أرى.

فتكلفت العبوس وقالت:

- أعني..

فقاطعها قائلا:

- إن تكلف وجهك العبوس ينطق بأنه لا يعني.

فزادت في ضحكها حتى زادت جمالًا، وقالت:

- لا مناص منك، فلقد كنت أهم أن أقول لك (أعني أحبك).

- الآن قد وصل لي وقد قلت (أعني أحبك) وأنت أثبتها فثبتت.

- إني والله أجد من سروري أن أعجزك، ولكنك داهية لا تعجز، ولا يزال في لسانك جواب ما أقوله وجواب ما لم أقله.

- وأنا والله من سروري أن أقدر عليك، ولكني هل أقدر على ما هو مقدور؟

فقالت له كالطفل ينتظر قطعة الحلوى التي منعت عنه:

- أأنا جميلة في عينيك؟

فقال بلا تردد:

- بل الجمال بعضه.

- وما عسى أن يكون باقيه إذا كان الجمال بعضه؟

- إنّ في قلبي كلامًا يسمع من غير أن أتكلم به، وفيه جواب سؤالك.

ثم ضحكت.

فقال:

- لم تضحكين؟ (ثم أردف بحزن مصنوع) لسذاجتي؟

- بل لجهلي علامتك.

- ألم تفهمي؟

- الحقيقة فهمت من غير أن أفهم.. قل لي لماذا كلامك غامض لا يستساغ عندي؟

- لأنَّ الحبَّ يجعل كل ما هو صعب واضحًا بين وهذا من أسراره، ألا ترين أن الحبيبين يدرك كل واحد منهما ما بنفس حبيبه دون الحاجة إلى بيان أو حديث اللسان؟

- أجل..

- فهذا من مزاياه وسجاياه..

- وكلما زاد الحب زادت فلسفتك...

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ثم تقدمت نحو وردة حمراء وقطفتها وهي تتعوذ من فلسفة حبه التي لا تفهمها، وصارت تتأمل الوردة وهم ينظر إليها ويبتسم، فقالت له:

- ما أرى هذا الحب إلا كورق الورد في حياته ورقته وعطره وجماله ولا ورق الورد إلا مثله.

فأعطته الوردة وقالت:

- اغرسها يا مصطفى فيَّ فهي معنى حبنا.

فوضعها في خصلة شعرها وقالت مستضحكة:

- ستبقى تحبني، أليس كذلك؟

- لا تفكري في هذا، بل استمري في خيالاتك..

وأغمضت عينيها وهي سارحة هائمة في أحلامهما..

وتقرب نحو شفتيها لعله يظفر بقبلة منها، وهل في شقوة الخيال وشدة غلوائه أعجب من خيال هذا العاشق؟ إذ يرى الجمال كله لا يبلغ مبلغ القبلة الأولى التي لا تزال في شفتي حبيبته ولم تخلق بعد، ولكنها كمنتظرة التقبيل، وقرب شفتيه نحوها وهي غارقة في أحلامهما وآمالهما وكأنَّ الزمان قد توقف وأصابه الجمود والركود وخرج من هذا العالم، عالم الجمادات والملموسات إلى عالم أعلى وأسمى، كأنَّه في جنَّة آدم، هو ذا يقترب من الشجرة الممنوعة، من فيها، يهوي على فيها وتتلاحم الشفتان ويذوق طعم الشجرة المحرمة، ودخل في سكرة قبلتها الأولى التي خُلقت الآن على شفتيها الورديتين، ووقفته فجأة كأنها شعرت بالإثم، فكأنها قالت له: اخرج كما خرج آدم!

وراحت تتهادى إلى قريتها كعادتها مع وعد اللقاء غدًا. انقلب إلى مثواه وهو يتطير من الفرح، وانفلتت في قلبه فكرة؛ ألا وهي أن يعرض عليها (الزواج)، وفرح للفكرة وكأنها خلقت للتو، فظل يفكر كيف يعرضه عليها، وهل سيرضى أبي إن أتيت بزوج دون علمه؟ وهل أنا مؤهلٌ للزواج أصلًا؟

ولمَ لا؟ فأنا موظف وعندي راتب يكفيني، وأعيش في بيت أبي، والخير كثير، وأنا الآن قد تخطيت العشرين، آن الأوان أن تكون لي زوج أحبها وتحبني، وأكتب عنها ديوانًا شعريًا، وقد ينال ذلك على إعجاب الإمام محمد عبده، وأُصادق شوقي، وأكون علم آل الرافعي في الآداب، لمَ لا؟ونحن قد اشتهرنا كقضاة وفقهاء أحناف، فلنكن أدباء أيضًا، عندها

أكون كالبارودي أو المنفلوطي أو اليازجي أو الإمام الأكبر نفسه، فنحن أهل علم ومعرفة بالعربية ومتضلعون بها، اللهم لا تحرمنا من فيض علمك، واجعل فينا نحن الرافعيين شاعرًا نابغًا نابهًا اسمه مصطفى صادق الرافعي أشعر من البحتري وأبي تمام والمتنبي والبارودي.

وبينما هو واصل إلى باب البيت وجد صاحبه ورفيق حياته ينتظره، فقال له باستعجال:

- يا مصطفى، وصلتك رسالة من طنطا.

- متى؟

- منذ ساعات قلائل.

- أكيد هذه من أبي.

وسلمها له، ففض غلافها بارتباك، وقرأ:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(ولدي مصطفى:

السلام عليك، كيف الحال عسى أن تكون بخير؟

لقد مضى على سفرك شهران وأنت في ربوة لبنان، وقد انتهت إجازتك التي أخذتها من المحكمة، وكادوا يفصلونك من الوظيفة لولا لطف الله وبعض معارفي، لقد أزفت ساعة عودتك منذ شهر تقريبًا، فلا تتأخر أكثر، أمك قد اشتاقت لك كثيرًا فتعجل من فورك رأفةً بقلبها، وشهر رمضان كما تعلم قد طرق أبوابه أعاده الله علينا وعلى

أمتنا بالبركات، أوضاع البلاد سيئة متدهورة، وأسطنبول متزعزعة متضعضعة، وأرى أن الدولة العثمانية قد اقتربت نهايتها، فإن أوصالها قد تقطعت وتفككت، مع العلم أن الوهن هذا قد كساها منذ زمن ليس بالقليل، أبلغ أقرباءنا سلامي..والسلام.)

أبوك: القاضي عبد الرزاق الرافعي

طنطا ١٩٠١م

أغلق الكتاب وقد تغيرت ملامح وجهه، فقال له رفيق رحلته:

- ما بك يا مصطفى؟ والله انقلبت واستحلت شخصًا غير الذي نعرفه.

- أبي.

- ما به؟ هل حصل شيء؟ هل وقع مكروه؟

- لا، ولكنه يأمرني بالعودة إليه، فقد تأخرت عن وظيفتي.

- وما المانع في أن نعود؟

فنظر إليه كالعاتب، فقال:

- لا عليك، لنجهز أنفسنا للسفر.

فأدرك الرفيق أنه عاتب، فقال:

- ما بك؟ منذ شهر ونصف وأنت على غير حالك؟ وتذهب يوميًّا للجسر، وتغير حالك، ما بك؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- آه لو تعلم يا صاح ما جرى! لو تعلم.

- ماذا جرى؟

فتنهد طويلا، وقال:

- لقد سقطت وهويت في حفر العشق، ولا أعلم ماذا سيجري.

- كيف حصل هذا؟ ألا تقول لي؟

- لقد صرت لها وحدها، أنثر لها الابتسامات والزفرات والأحلام والآمال والتطلعات والتنهدات، لقد وقعت في حبِّ عصفورة وهي من أجمل ما رأت الأعين، رأيتها على الجسر، أحبُّها وتحبني، ولكن أبي حدَّ هذا الحب وجاء ليضع خاتمة حزينة بكتابه هذا، هل سأترك من نطق بها لساني شعرًا؟ هل سأترك ضالتي؟ فإني كمسافر في فلاة يوشك أن يترك دابته التي تحمل متاعه، فإن ضاعت جلس ينتظر هلاكه ومصيره المحتوم، فهل يتركه؟ وأنا في هذه الحياة مسافر، و(عصفورة) هي الدابة التي تحمل المتاع فهل أتركها؟ هه؟ لم تعد قضية عاشق ولهان، بل حياة إنسان.

- يا صاحبي ألم تجد حلًا لمعضلتك؟

- هو حل واحد لا غير، فإما يكون فأكون، وإما..

- سيكون إن شاء الله، قل..

- أتزوجها..الحل في الزواج.

فنظر إليه صاحبه مستغربًا مستنكرًا، وقال:

- أتتزوجها دون علم أهلك ؟ وما تقول لهم عندما تعود؟

فقام مصطفى من مجلسه عند باب البيت، وقال بتصميم يفضي إلى الاستسلام:

- لن يهمني (وأردف مستسلمًا) ماذا يريدون أن يصنعوا لي مثلا؟هل تحل عليَّ لعنته؟ يومان ويرضى، وهي أهون من لعنة الحبِّ التي ستلازمني طول العمر، ألم تقرأ قصة مجنون ليلى؟

- ويحك يا مصطفى، أمثلك يقول هذا الكلام؟أنت النقي التقي تتفوه بهذا؟ لن تبالي بغضب والديك؟ لم أعد أعرفك، اصحُ يا صديقي اصحُ.

ثم قال مصطفى بتصميم:

- سأعرض عليها الزواج غدًا وهذا كل ما عندي، وهذا آخر كلام، ومهما يحصل.

- وأبوك؟

- وهل سيعاني أبي من لوعة شوقي وتوقي وهيامي بها؟ فإذا عاتبني وزجرني فسأقول له: هذا عمل القلب فمالي وماله، رُح وسل القلب!

- يا مصطفى هذا كلام الأدباء وفلسفاتهم على الورق فلا تطبقه على الواقع، ما هذه الخيالات، كن جديًّا وفكر، افتح عقلك.

فضاق مصطفى من كلام صاحبه، وقال:

- غدًا يكون لي شأن، انتظر وسترَ.

جلس صاحبه وهو يقول:

- سأجهز أمتعتنا للسفر، ودع صاحبتك قبل الرحيل.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- أبهذه السرعة؟

- أجل.

جلس مصطفى وحاله كالمقضي عليه وقد أحاطت به السيوف، ما العمل؟ سيف أباه وسيف الحب، أيهما سينتصر في هذه المعركة الحامية؟

لقد قضى ليلته التي لم ينم فيها وهو يشهد صراعًا عنيفًا وقد استحكم كلُّ طرف عدته للدفاع عن فكرته ومأربه، الناس في النوم ينعمون وهو في أشواك الهيام ساهر متسهد.

خرج إلى الفناء والليل قد انتصف وهو حائر، فرفع رأسه إلى القمر الجميل، وقال بصوت متهدج: هل ارتسمت النهاية؟ وهل ستنتهي قصتنا؟ لقد تشجعت أمام صديقي فغاليت في شجاعتي وكفاحي واستبسالي في سبيل عصفورتي، ولكني أضعف من ذلك بكثير، ولكن ضعفي لا يسمى ضعفًا، لأني لم أجرب أن أحصر، هل نسيت أن المرء إذا أحصر من قط إلى أسد ضار مفترس؟ في الصعاب تقاس قوة المرء وجلادته، وأنا لم أرَ أمرًا صعبًا كهذا، لقد حُصرت بين أمرين: فإما أن أتركها وإما أن أتركها، وإن تركتها فأحسن الأمرين!

فقال لنفسه يذكرها: ولكن سأتزوجها..

والحق أنه يدرك في أعماق نفسه أن هذا الخيار شبه مستحيل، فلم يبقَ على سفرهم إلا ليلةً واحدةً.

ورفع رأسه إلى القمر الجميل، وقال:

آه يا قمري يا صديقي الوفي، مر شهر ونصف وأنت تشهد حبنا، وها أنت اليوم قد استحلت قمرًا صغيرًا ولم تعد بدرًا، لقد صغرت وأفلت، فهل انتهت قصتنا؟ أجبني يا قمري ويا صديقي، ليت لك لسان حتى تجيبني.

وظل مصطفى على حاله حتى مطلع الفجر.

خرج مصطفى في الصباح وهو عازم على طلب يد عصفورة للزواج، صار يسير في الدرب الذي اعتاد المشي فيه، ولكنه هذه المرة كئيبًا حزينًا مكفهرًا، بعد ليلة قضاها كانت في نفسه أطول من مرضه قبل أربع سنين، راح يتهادى وهو يذكر رسالة والده وما جاء فيها من حدة العبارة وشدة اللفظ.

تذكر قوة أبيه وحدته وصلابته، كيف لا وهو رئيس المحكمة الشرعية في طنطا، كيف لا وهو صاحب الحزم المشهور الذي تعرفه كل أهل طنطا بل كل بلد جاسها كقاضٍ شرعي، كيف له أن يفهم لغة الحبِّ والتسلطن العشقي وهو الذي لم يَرَ نفسه إلا بين بطون الكتب ومتون الفقه والنحو، كيف لي أن آتي لي بزوج طارحتها الغرام على الجسر، وأضعه أمام الحقيقة وهو الذي لم يتعود إلا لهجة الأمر والزجر!

ثم صار يقول هذا البيت:

ربي خلقت الجمال وقلت اتقوا

فكيف أرى الجمال ولا أعشق؟

وصل الجسر وصار يردد ذلك البيت، وقف وهو ينتظر معشوقته وشمسه وقمره، ظل سارحًا في خيالاته غارقًا في ذلك المشهد الذي لمّا يخلق بعد، تتصادم الأفكار وتحتدم، صار قلبه مشغولًا بمعركته التي لم تبدأ بعد، معركته مصيرية في سبيل بقاء ذلك الحب المرسوم بفرشة قدرهما، لقد خلدت هذه المشاهد في قلبه وحفرت في وجدانه، صار يتأمل المكان للمرة الأخيرة: الأشجار الكثيفة والجسر على هذا المضيق في هذه الربوة الساحرة، والمنازل البائدة التي توحي بشخوص وطدوا هذا المكان وعاشوا بسعادة وحب وسلام ووئام، لا بد أن حياتهم شابها شيء من الكدر في

سبيل الحياة السعيدة المنشودة. لطالما نشد تلك الحياة. سار بخطا وئيدة نحو زهرة تفتحت وسط ركام من الغبار، صار يتأمل تلك الزهرة وما بها من حياة ويفتش عن حياته فيها، يتمنى لو كان وحده هو وإيّاها في جزيرة مهجورة منقطعة وسط المحيط، حيث لا زمان ولا وقت، هما معًا دون وجود بشر، وهكذا إلى أن يموتا وحيدين.

وبينما هو يناجي أحلامه المتوقدة تأتي عصفورة من بعيد بطلتها الجذّابة التي تبعث الأمل وكأنها سفير سام لدولة الأحلام السعيدة، ولما اقتربت قال: قد جاءت والله بغير الوجه الذي ذهبت به، والذي تأتي به.

فلما وصلت ونظر إلى وجهها مليًّا فإذا بوجه قد كساه الحزن، وإذا بخديها كأنهما ترع يجري بهما الماء، تنمُّ عن دموع قد فاضت ليلة كاملة لم تذق فيها النوم. فقال مصطفى بتلهف وقد نسي همَّه:

- ما بك يا عصفورة؟

فقالت وقد نزلت دمعة:

- انتهى كل شيء يا مصطفى، كل شيء نحو الزوال.

آه هي حزينة على فراقه الذي قد أزف، فقد أخبرها بأن عودته لمصر قريبة. وراحت به الظنون وصار يفكر كيف سيغادر غدًا، ولكنه دارى قلقه هذا بإمكان بقائه ليومين إضافيين، يعرض فيها الزواج عليها ويتزوجها، ويعود بها إلى مصر. وسرعان ما اطمأن لهذا الخاطر.

فقال وهو يبتسم ويشع نورًا ليزف لها الخبر السعيد:

- انتهى يا عصفورة، لم يعد هناك داع للبكاء والقلق، فقد قررت أن أتزوجك، نعم سوف نتزوج بالحلال ويوافق أبوك ونزف إلى مصر.. ونعيش حياة سعيدة رغيدة، وسوف أصدر ديوان شعر فيك، ديوانًا

غزليًا يتغنى به العشاق، وسوف أعمل على أن يكون أشهر من (قفا نبك..) وأشهر من غزليات ابن أبي ربيعة وأبي نواس..

وهو يتحدث وهي تذرف الدموع، فيكمل:

- لا تبكي يا عصفورة، سوف نعيش في رغدٍ وراحةٍ ودعةٍ، وكأننا في الجنان؛ جنة مصطفى صادق الرافعي وعصفورة، ونعد الديوان المنشود في تلك الجنة الأرضية، وسيكون عنوانه (في ظلال عصفورة)..

كان يتحدث هو وهي تبكي بكاء الفراق الذي لا لقاء بعده.. ثم يكمل:

- انتهى زمان اللقاء على جسر كفر الزيات، وسوف آتي لأبيك لكي أطلبك..

فقالت وهي تذرف تلك الدموع لتروي شحوب ذلك الوجه الحسن:

- يا مصطفى أنا سوف أتزوج!

فتوقف مصطفى عن الكلام الذي لم يتمه بعد، وقف وقفة المتهم البريء بين يدي القاضي في دولة الجور والظلم الذي لا ينتظر من قاضيه عدل أو عفو، وقف في تلك المحكمة وسمع حكم القاضي عليه بالإعدام!

لقد تشابه حاله كثيرًا مع ذلك المتهم.

ألا ما أعظم استبداد القلوب، لقد توقف الزمان فلا حكم للوقت، بل صار كأنه تمثال رجل عظيم قد نصب وسط البلد، الكل يمر حوله وينظر إليه، وهو جامد بلا حراك، لقد كان يومًا عظيمًا..

لم يعد يسمعها وهي تقول له: مصطفى..مصطفى..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ثم تحركه.. لقد خرج من هذا العالم إلى عالم أسمى وأعلى، لقد صار حاله يماثل حال ذلك المتهم في دولة الجور والظلم، لم يعد للأدلة والبراهين والحجج فائدة أو أهمية، لقد صدر الحكم..آن الأوان ليصفي قلبه من هذه الدنيا. كل الفلسفات والحكم والآداب التي تعلمها انهارت أمام حكمها ولم يعد بوجدها فائدة..لقد انتهت الحياة وطويت، وسوف يكون بعد قليل في دنيا أخرى بعد أن طرد من جنة ودنيا الحب ظلما وزورا..

شعر بربتها على كتفه، فنظر إليها ودموعه قد فاضت، فقال:

- وماذا بعد أن حكمت عليَّ بالموت الأبدي، لقد حكمت عليّ بالموت صبرًا على فراقك، القدر أعظم من أن يمنحني موتًا هينًا، لماذا تكوني عليّ سوط عذاب؟ لماذا لم تقتليني قتلًا سريعًا مريحًا؟

ثم نظر حوله فرأى الأشجار الكثيفة..والمساكن البائدة..والأزهار المتفتحة.. والجسر، صار يتخيل أن هذه الأشياء تسخر منه.. تسخر من سذاجته وغبائه.. وتسخر من معركته الخاسرة في مضمار العشق، لقد خسر معركته ودُحر، صار يمثل هذه الأشياء التي تعانده.. تصر على الاحتفال في هزيمته وخيبته.. يُخيَّل له أنها تتراقص فرحًا وابتهاجًا، فركض نحو تلك الزهرة البادية وسط الركام دون وعي فمسكها وسحبها بعنف يوازي ألمه؛ فارتدت في يديه وانخلعت من جذورها، مسك تلك الزهرة ودعسها. وعصفورة أمامه تبكي وتنتحب، أما هو فيبكي بدموع العين والقلب معًا.. صار يدور بلا وعي، وعاد إليها، فقال صارخًا:

- لمَ؟ لمَ تتزوجين وأنا؟ أنا الذي وهبت نفسي لك، أيعقل هكذا تريدين الرحيل.. بهذه بساطة وهذه الكيفية؟ (ثم علا صوته وصار يتحدث حديثًا أقرب إلى الهذيان) سوف نذهب إلى طنطا..إلى أمي.. وجنتنا هناك، وديوان الشعر.. نعم سيكون ديوانًا جميلًا فيه غزليات رائعة، يترنم بها العشاق، ويهتدي بها الفساق، للعشق

الصحيح العفيف (وهي تبكي) ويأتينا أولاد وأريدهم عشرة، ونسمي الكبير محمود سامي على اسم البارودي لكي يكون مثله ويحذي حذوه.. سيكون شاعرًا منطبعًا، متى سوف نذهب؟

فقالت بصوت خفيض ساده الأسى واستولى عليه الجوى:

- كفاك يا مصطفى، كل شيء انتهى ومضى، أنت عاشق عابر، فعد من حيث أتيت، لا زواج بيننا ولن نكون معًا، اصحُ وارحل من هنا وانسني، انتهى كل شيء أمس.

- لمَ؟ قولي لي، أنا خير زوج.

- أنا سوف أتزوج ابن عمي، قد سُمِّيت له، وعُقِدَ قراني، قانون عشيرتنا، هم أرادوني، ولا شيء مفضلًا على ابن العم، لقد حاولت وجاهدت أمس لكي أكون لك ولكن عبثًا، ولكن الظروف أقوى، يا مصطفى أنت شاعر وسيم، وحلم كل فتاة، ولكن مشكلتنا أننا لم نخلق لبعض، من أين لنا أن نكون أقوى من تقاليد حكمت قرون في هذا العالم المظلم؟

وقال لها وقد تبددت كل أحلامه وطارت واستحالت أوراقًا خريفية بعد أن كانت ربيعية تصلح ليقتات عليها أديب أمة:

- لا يمكن لنا أن نكون أمة ما زال يحكمها عرف وتقليد يحطم الآمال ويفجعنا بألم الفراق، لقد استحالت أعرافنا مادة مسلطة لكبد عواطفنا وجمحها، فمتى سنقدر أن يحكمنا دستور إلهي منزه؟ ولكننا يا عصفورة قوم حكمنا عرف وتقليد وطمع وجشع. لقد كتب علينا الألم بصحائف من فراق العشاق...

فقال وهو يتعذب:

- كسرت ظهري.. لكن الحياة لن تقف هنا، لنذهب إلى أبيك، ونتحداه، نقول له: إن الحبّ أكبر من أي عرف، ما لكم ما لا تبصرون؟ نبصر بنارنا التي أضرمت في قلبينا؟ لنحاول اليوم أو غدًا، وتستطيعين بشتى الفنون والحيل أن تقنعيه.

- تتكلمٍ أنت لأنك تجهل أبي وقانون العشيرة الذي قضى أمرًا كان مفعولًا، اذهب يا مصطفى إلى بلدك وعش حياتك، فهناك من ينتظرك حتمًا ستجد من تكتب عنها، وتطبع لها ديوانًا شعريًا، وتكتب في الحبِّ وحكمه وفلسفاته.

فقال بتحدٍ:

- لا أريد شيئًا غيرك أنت، إذا قتل البطل وخرجت روحه ما فائدة الرثاء والتأبين؟ ما فائدة بكاء المحبين وحداد المقربين؟ لأنه قد مضى إلى عالم آخر وحساب أكبر من الندب والنحب... عصفورة لا أريد أن أكون أديبًا وشاعرًا، بل أريد أن أكون لك وحدك.

- لك قانون العشيرة أكبر منك، وهو يعلمون بك.

- من الذي يعلم؟

- ابن عمي، وقال لي إن لم أزوجه أخبر العشيرة كلها وقتلك، كان يلحقني ويراقبني دائمًا، وافقت لألوذ عنك خطرًا. ولو علمت العشيرة لذبحوك وعادوا لحياتهم كأنَّ شيئًا لم يكن بما إنك حاولت تدنيس شرفهم.

فقال مستمسكًا بأسباب الجملة الأخيرة:

- بالحلال.. أريدك حلالًا قد شرَّعه اللّه وسنة نبيه، أذهب إليهم، وأقهر جبروتهم بقوة عزمي، ورباطة جأشي وقوة حجتي وصراحة قلبي، فهذا خير سلاح ليبور ويكسد قانون العشيرة البائس الجائر.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- استيقظ من منامك، أنت تحلم، إن ذهبت فسيسفكون دمك ببرود ولا يسألون، وبعدها يحتفلون بعرسي وبـ..وبمأتمك.. وأنت لك مستقبل في البيان، قد تكون يومًا كاتبًا مشهورًا وشاعرًا مرموقًا يشار إليه كشكسبير وفولتير، ونقرأ كتبك بشغف ونهم، اسعَ لهذا الحلم فإنك أهل له، وسأقرأ ما تكتب حتمًا من مكاني هذا وأدعو لك بالخير، لن أنساك يومًا وسأظل أتتبع أخبار رجل اسمه (مصطفى صادق الرافعي)، وأنتظر ديوانه الشعري وكتبه التي ستغزونا وتكون حديثنا، وأحكي عنك بحبٍّ.

- وأنا لا أريد هذا كله، أنا أريدك وحدك، لن تغنني عنك شهرة، لأنَّ فراقك موتٌ يا بنت القاضي الجائر.

ثم جلس كمن قنع بمصيره واستسلم:

- من هو عريسك؟ وهل يستحقك؟

- هو ابن عمٍّ لي، كنت قد سميت له سابقًا، وذهب إلى الجيش منذ عامين ولم يعد، انقطعت أخباره، وظننته ميتًا، ولكنه عاد منذ شهر، وعاد يذكرني بأني له، لم أعد أرغب به، وصارحته، ولكنه بقي يلاحقني إلى أن عرف أني ألتقي بك، فهددني بك، وأنه يفضحني فتقتل أنت، وقد يلفق لي تهمة فأقتل معك، فوافقت أمس على مضض، اضطررت لأن أوافق لأجلك، وبارك أبي هذا الزواج، وسيدخله عليّ غدًا..بكيت أمس كثيرًا ولكن لا مفر، فها أنا أودعك، هذا اللقاء الأخير بيننا، كتبت النهاية لهذا العشق الذي لم يستمر طويلًا وخرجنا من معركة الحب خاسرين نحن الاثنان، آسفة يا مصطفى لأني لم أقل لك إني لي ابن عم يطلبني، ارحل بسلام من هنا فأنت تستحق سيدة أحسن مني، وأما أنا فسوف أعيش

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كما عاشت أمي وجدتي من قبل، لم نعش إلا لنتزوج ونتجب ونربي ثم نهرم ونموت بلا غاية نرجوها، لقد كتبت التقاليد أقدارنا (ثم أردفت بانكسار) فلنعش بهدوء.

فقال بلهجة عميقة جمعت بين الرجاء واليأس:

- بهذه السرعة ولد الرحيل؟ لقد وئد حبنا ولمّا يزل طفلًا في المهاد، بسبب أعراف بائسة دفن قلبينا، ألا فلتعلمي أن قلبي عندك، سوف أذكرك دومًا، لن أنسى كيف انتهت حكايتنا.

- انسني يا مصطفى.

فقال وكأن عينيه فرغت من الدمع:

- النار بالنار لا تطفأ إذا اتصلت فكيف أصنع لقلبي لينساك؟!

- كفاك يا مصطفى، أما والله لن أنساك ما حييت الدهر كله، ستظل ذكراك عند جسر كفر الزيات عالقة في ذهني...وفي قلبي.

فقال بلهجة المتوسل:

- وما نفع الذكريات؟ أنت كمن يقول لمن حكم عليه بالإعدام: مُتّ، وسأظل أذكرك!

- لا تقس الحب بمقاييس القضاء والأدب والفلسفات..

- أتريد أن ترحل بهذه السرعة؟ حتى أنها تنهيني عن بثي حزني الذي سينفجر، فقال:

- كفاك عزفًا على أوتار الفراق..(ثم صار يمسح دموعه وهو ينشد):

يـا مـن علـى الحـب ينسـانا ونذكـره

لسـوف تذكرنـا يومًـا وننسـاكا

إن الظـلام الـذي يجلـوك يـا قمـر

لـه صبـاح متـى تدركـه أخفـاكا

- كفى يا مصطفى..

فقال غير مبال بجملتها الأخيرة:

أمـا كفـاك الفـراق غـدرا

وبعـد هـذي الديـار هجـرا

(ثم أردف):

- اذهبي فقد جنَّ الليل..وداعًا.

ثم صارت تنظر إليه وهو ينظر لها وكأنه يريد أن يشبع منها في هذه اللحظات.. وهل تكفيه سنين العمر حتى يقنع بهذه اللحظات؟!

فأمسك بيدها وقال:

- اذهبي..

كان لسانه يقول اذهبي، وقلبه وجوارحه تقول:

- أي لا تذهبين.

فارتمت في أحضانه، فكان عناق العشاق الذي طال انتظاره، كان العناق ساعة الفراق، وقد اختلطت أنفاسه بزفراتها، ثم سرعان ما سحبت يدها مسرعة، ورحلت مهرولة ودون أن تنظر إليه..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رحلت بعد أن أحبها بصدق وحدث عنها القمر، وأخذت فكره في مجالس السمر، لتفتح له وحيًا شعريًّا وهو يتألم ويقول:

ويلـي على متدلـل

مـا تنقضـي عنـي فنونـه

كيـف السُّـلوُّ وفي فـؤا

دي لا تفارقنـي عيونـه

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال العريان:

- ماذا تقول يا رافعي؟

- اسكت يا سعيد.

- هل هذا ما حصل حقًا؟

- اسكت يا سعيد.

(٢)

تروعك منه هيبة عمرية.

طنطا ١٩٠١م:

خرج الشيخ عبد الرزاق الرافعي من المسجد بعد أن صلى العصر ليذهب إلى السوق، كانت خطواته بطيئة متمهلة، فيه الهيبة العمرية كلها، وكثير ما يفتخر الشيخ بهذا النسب العمري القرشي، ويراه حملًا ثقيلًا، فهو القاضي وعليه أن يكون عادلًا، فكيف به وجده عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ كان ذلك دافعًا كبيرًا للشيخ لكي يسير على المنهج العمري القويم، وكان يرى أن القضاء لم يخلق إلا لهم، فالرافعيون أكثرهم قضاة منتشرون في أنحاء مصر.

كانت مشيته تدل على جلالة قدره، فلحيته الكثيفة المدببة التي غزاها المشيب وعصاه التي تداعب الأرض ببطء وهدوء، كان يحث الخطا إلى السوق لكي يراقب التجار والحرفيين، فهو يرى ذلك من واجبه باعتباره رئيس المحكمة الشرعية في طنطا، هذا اليوم هو من أوائل أيام شهر رمضان المبارك، وهو في شهر رمضان يذهب في الصباح الباكر إلى المحكمة ثم يعود قبيل العصر، يصلي العصر ويذهب إلى السوق، وصل إلى السوق بتلك الهيبة العمرية، يسلم على الكل، هم يحترمونه ويحبونه ويجلونه، فهو بالإضافة إلى عمله في القضاء يتصدر للفتوى لأنه من كبار علماء الحنفية في مصر وممن يلقون دروس الفقه في بيته، وكان مجلسه يعج بالعلماء وطلاب العلم، يبقى الشيخ أول عشرين يومًا من رمضان على

هذا الحال بين القضاء والإفتاء والاطلاع على حال الناس كسائر أيامه إلى أن تطل العشرة الأواخر، فإذا أقبلت اعتكف في المسجد ولا يخرج منه إلا ليلة العيد.

وبينما هو سائر في السوق أوقفه رجل عليه علامات التعب والكدر، فقال برجاء:

- سيدي القاضي..سيدي القاضي..

فتوقف الشيخ عبد الرزاق بوقاره المعهود، ونظر إلى الرجل نظرة فاحصة، فقال له:

- أهلاً أهلًا، كيف حالك؟

- سيدي، زوجتي.. زوجتي

فقال الشيخ وهو عالم بحال زوجته:

- ما زالت عنيدة كسابق عهدها؟ مع العلم إني نصحتها ولكن..

- يا سيدي تريد الطلاق وأصرت على ذلك، أقنعها بأن تعدل عن هذا الأمر، لديَّ ستة أولاد، تريد أن تتركهم وترحل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ما زلنا في أول يوم من شهر رمضان وتريد الطلاق؟ ألم تعلم أن أبغض الحلال عند الله الطلاق؟

- أقنعها يا شيخ.

- وأين هي الآن؟

- في بيت أبيها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- ألم تذهب إلى أبيها وإخوتها فتتصالحون قبل أن يصل الأمر إلى القضاء، فتلوذ عن نفسك تعب المحاكم، وتوفر لنا جهدنا الذي سنبذله؟

- المشكلة أن أباها وإخوتها معها، يستجيبون لها، وهم طوع أمرها حقًا كان أو باطلًا.

- تعال عليّ بعد التراويح سأذهب معك إلى أهلها.

- شكرًا يا سيدي.

- ولكن تأتي وتصلي العشاء جماعة والتراويح كاملة.

- حاضر..

ثم سار الشيخ بنفس الهيبة مع ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيه لم تنقص من وقاره شيئًا.

ووقف الشيخ عند الجزار، فسلم عليه، فرحب الرجل قائلًا:

- أهلًا سيدنا..شرفتنا..استرح..

وكان محله يعج بالزبائن الذين يشترون اللحم للإفطار، فقال الشيخ وهو يشير لشقة من لحم عجل:

- متى ذبحت هذا العجل؟

فقال الجزار بارتباك:

- صباح هذا اليوم، ألا تراه يقطر دمًا؟

فقال الشيخ بلهجة جمعت بين الأمر والنصيحة:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- بع بسعر معقول، والله الله في الناس في هذا الشهر، ولا تنس الفقراء ونصيبهم.

- إن شاء الله.

وتابع مشيه فجاءه رجل وسلم، فقال بعد السلام:

- أريد الزواج بامرأة ثانية، وانسابي يهددوني إن تزوجت على أختهم فسيضربونني ويقطعون التجارة معي، وكما تعلم من حقي أن أتزوج فأختهم لم تنجب لي أولادًا.

- منذ متى وأنت متزوج؟

- منذ سنتين.

- اصبر عليها يا رجل، ما زالت عروسًا.

- سنتان يا شيخ وأنا صابر عليها.

- اصبر أكثر..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ووصل الشيخ إلى متجر صديقه حسن بدري، خرج حسن وهو يرتدي جلبابًا رحبًا فضفاضًا وهو يحمل كرسيين، وجلس الشيخ وجنبه حسن بدري، حيث اعتاد أن يجلس هنا ويراقب الناس. فقال الشيخ مستفهمًا:

- كيف رأيت السوق هذا اليوم؟

- على خير ما يرام، البوليس يمر بين الفينة والأخرى يراقب المكان، فلا غش ولا مفطرين بحمد الله.

- الحمد لله الحمد لله.

فقال السيد كمن تذكر شيئًا:

- ولدكم مصطفى ألم يأت من لبنان؟

فاستدار الشيخ نحوه، وهو فرح بذكر ولده الذي يحبه، فقال:

- اليوم أو غدًا سيأتي -إن شاء الله- بعثت له كتابًا وطلبت منه أن يحضر سريعًا، قد طالت سفرته وأنا لا أخفيك يا حسن..(ثم خفض صوته) إني خائف على مصطفى كثيرًا.

- لمَ؟ أبعد الله عنه النوائب والمصائب.

فزفر الشيخ وكأنه يريد زفر وجعه وكمده، وقال:

- عندما تمرض قبل سنين وترك إكمال المدرسة أخبرني الطبيب أنه فقد جزءًا من سمعه، وأنه من المحتمل في الأعوام القادمة أن يصيبه صمم تام.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقال السيد حسن متألمًا:

- أبعد الله عنه الصمم.

فقال الشيخ بحزن:

- يا حسن إن ولدي مصطفى ذكيٌ حاد الذكاء وموهوبٌ جدًّا، قد قرأ كلَّ مكتبتي، وحفظ القرآن، وحفظ نهج البلاغة للإمام علي (رضي الله عنه)، وهو مدمن قراءة، لما تعين كاتبًا بمحكمة طلخا كان يذهب بالقطار ومعه مجموعة كتب يقرأ بها في الطريق بلا ملل، ولكنَّ الله ابتلاه بهذا المرض، قلبي يتفطر ويتشطر حزنًا وكمدًا عليه يا حسن، أيام بعده عنَّا تمر ثقالًا طوالًا، أخشى أن يصيبه مكروه وهو بعيد عنَّا. حتى الإمام محمد عبده (حفظه الله) رأى فيه علامات الذكاء والنبوغ، والشيخ عبد القادر الرافعي أيضًا، منذ أن أخبرني الطبيب قبل أربع سنين وأنا أحمل همه، كيف يمكن

له أن يكون قاضيًا وهو لا يسمع؟ أريده أن يكون كأجداده قاضيًا، حزنت كثيرًا عليه، أخاف عليه وعلى نبوغه من هذا المرض الذي قد يحجبه عن الناس، قد شابت حياتي وحياة أمه الكدر والحزن منذ علمنا بمرضه.

- صبرًا يا سيدي صبرًا، نسأل الله أن يبعد عنه الكروب، والله إن عليه وقارًا لم نره على أحد من جيله، يخرج في الصباح حاملًا حقيبته التي فيها غداؤه وكتابه.

فتبسم الشيخ وهو حزين:

- لم ينقطع عن الدرس والمطالعة يومًا، ولكنه ينقطع عن الوظيفة كثيرًا.

- ما زال شابًا.

- أتوقع أن يكون ذا بال كأجداده.

فردد السيد حسن: اللهم آمين.

وبينما هما على هذا الحال مر رجل ينفث الدخان من فيه وبين إصبعيه سكارة، فرأى الشيخ هذا المشهد، فقال متعجبًا:

- دخان وفي نهار رمضان وعلنًا؟؟

فاندفع إلى الرجل مسرعًا وانقض عليه، وأمسك به من ثيابه، وقال له:

- كيف تفطر علنًا أيها الأحمق؟ والله لأؤدبنك غير هذا الأدب.

كان المكان قد ضجَّ وعجَّ بالناس المتفرجين، ونادى الشيخ على شرطيين معه، وقال:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- خذوه إلى القسم هيا..

وأخذوه في (زفة) الصبيان..

فقال الشيخ بعد أن رفض شفاعة السيد حسن:

- سأضع حدًّا لإفطاره هو وكل من يفطر في رمضان جاهرًا عامدًا.

كان هذا دأب الشيخ في حياته، صارمًا حازمًا. وعاد الشيخ إلى منزله قرب الإفطار، فقال لزوجه:

- جهزتم الإفطار؟

- أجل، الآن سيأتي الأولاد ويحملونه إلى المسجد.

وحملوا موائد الإفطار صوب المسجد، فمدت المائدة للفقراء والجالسين في المسجد، لأنَّ الشيخ كان طامعًا في أجرهم، وكان كلما عارضت زوجته وشكت له من التعب والنصب الذي يصيبها طول الشهر في إعداد الموائد؛ تمثل لها بحديث النبي ﷺ: (من فطّر صائمًا كان له مثل أجره)، وسرعان ما تقنع زوجه وتستغفر الله على سخطها وضجرها.

ثم يصلي المغرب وبعدها يسبح ويحمد ويكبر الله ثم يركع ستا، ثم يجلس يتلو ويتعبد لحين وقت العشاء.

ثم أذن المؤذن لصلاة العشاء، وازدحم المسجد بالمصلين، فصلى الشيخ العشاء بهم ثم التراويح، فجاءه الرجل الذي لاقاه عصرًا لكي يسترد زوجته، فنظر إليه الشيخ مليًا وقال:

- سوف أذهب معك ولكن ما أحكم به ترضى، هل ترضى به؟

- أنا راضٍ يا سيدي، ولكن حدثت مشكلة قبل الإفطار.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فرفع الشيخ رأسه ونظر إليه نظرة غاضبة كاد ينخلع قلب الرجل من مكانه على أثر تلك النظرة، وقال:

- تعاركت مع إخوتها؟ إي والله هذا ما حصل، لقد جاءوا لضربي يا حضرة القاضي، وقالوا إني متعدٍ على أختهم.

فكظم الشيخ غضبه، وقال له: سر أمامي..هيًّا.

كان البيت صغيرًا متواضعًا، دخل الشيخ مع الرجل وجلسا في واحة المنزل، فرحب الرجل أبو المرأة بالشيخ وأوسع لهم، وخرج إخوة المرأة الثلاثة وجلسوا ينظرون إلى الرجل بغضب يكاد يتطاير من أعيونهم.

فقال الشيخ عبد الرزاق:

- هذا الرجل الفقير هو زوج ابنتكم، وهناك أمور تحصل بين الزوجين في كل بيت، أيعقل أن تدخلوا في مشكلة هي بين المرء وزوجه؟ وما لكم وما الرجل؟ مشكلة بسيطة، والمشاكل تحصل في كل البيوت، لما تتدخلون بالعراك؟ ادخلوا مصلحين إن شئتم، أكلَّما جاءتكم ابنتكم نافرة من زوجها كنتم عونًا على خراب بيتها؟

فصار الأب ينظر إلى أبنائه وهم حائرون صامتون، فشق الأب هذا الصمت محاججًا:

- لكن يا سيدنا الرجل يغلط على زوجه غلطًا فاحشًا مؤلمًا، ويسبها سبًا مقذعًا، ووصل الأمر إلى أن يضربها، وكان عليه أن يزجرها بالرفق واللين، لا بالضرب المبرح، ونحن عزمنا على ضربه جزاءً له، وأولادي حلفوا وتعاهدوا على ضربه إن لقوه، ولكن احترامًا لحضرتك ومقامك لن نضربه الآن كما كنا مقررين.

فاكفهر وجه الشيخ واعتلاه الحنق وصار كأنه غيمة سوداء قد طال احتباسها، فقال بلهجة غاضبة:

- أيها الشيخ احترم، أنا هنا رئيس المحكمة الشرعية في طنطا، تتحدث معي بهذه اللهجة؟ لهجة الفتوة السحيقة؟ من أنتم؟ تتضاربون لأجل خلاف عائلي بين زوجين؟

فقام الأخ الأكبر معترضًا، قائلًا:

- هذه أختنا وهذا الأبله الأحمق قد أساء لها ولزم تأديبه.

- اخرس، هل تحسبون أنكم في غاب؟ تعملون بقوانينها؟ أنا جئت لحل المشكلة التي نشبت بين الزوجين، لكي لا تصل إلى الطلاق لأنه مبغوض عند الله، يهدم بيوتًا وأسرًا، (ثم مخاطبا الأب) يا رجل استح قليلًا وانظر إلى شيبتك، رجلك في باب قبرك وأنت ساعٍ لتطلق ابنتك؟ وتجعل أولادها عالة يسألون الناس، لماذا؟ لأجل غضبتك؟ وتطبق القانون الذي تعارفتم عليه ولأنه أهان كرامتكم حسب زعمكم، وأنا سأوبخه وأنصحه، وكان حريًا بكم أن تنصحوه وتحدثوه بالرفق واللين، لا أن تضربوه وتجتمعوا عليه، سل الآن ابنتك، هل تريد الطلاق حقًا؟ والله الذي لا إله إلا هو عندما تكون القضية جدية لن تقبل بالطلاق، يا رجل (الصلح خير).

فقال الأب ولم تخلُ لهجته من احتجاج:

- ولكن يا مولانا هل تقبل أن يضربها ويسبنا؟

- لا طبعًا، (ثم مخاطبا زوجها) يا رجل هذا الإنذار الأخير لك.

فقال الرجل مسرورا:

- حاضر... حاضر.

فقام الشيخ وهو يقول:

- الآن لترجع زوجك معك وبارك الله لك.

فقال الأب:

- يا مولانا إلا تشرب شيئًا؟

- لا أقدر، مستعجل، فعندي عمل آخر والساعة اقتربت من العاشرة ليلًا، نشربه فيما بعد.

عاد الشيخ إلى بيته ليفتح مجلسه ساعة، فيه يزوره الناس وأهل الحاجات، فهو يفتي هذا ويجيب ذاك، وينتقل بين فنون العلم وأصنافه من فقه وتفسير وأحكام الصيام وأدب، وبعدها انقلب إلى فراشه منهكًا متعبًا بعد يوم شاق حافل بالأحداث. وما إن استقر في فراشه حتى فتح كتاب (الإشارات الإلهية.. لأبي حيان التوحيدي) الذي يضعه عند الوسادة، ويتفاعل مع القراءة فتراه يضحك وساعة يقطب، وما زال الشيخ عبد الرزاق معجبًا بأدب أبي حيان إلى أن نقل هذا الإعجاب إلى ولده مصطفى. لقد كانت للعائلة الرافعية ثقافة تقليدية كحفظ القرآن وطرف من السنة والفقه الحنفي، ومن تلك الثقافة التقليدية هي الإدمان على كتب الجاحظ وأبي حيان وأغاني أبي الفرج.

وبينما الأستاذ عبد الرزاق يقرأ في (الإشارات الإلهية) أتت زوجه بعد أن أكملت سائر أعمالها الشاقة المجهدة، كان يبدأ عملها منذ الصباح في الغسل والتنظيف، ثم إعداد مائدة الإفطار التي تستغرق ساعات، وما يتخللها من عمل دؤوب، لا ينتهي إلى السحور.

فقالت لزوجها وهو منشغل بالقراءة:

- ألا تنام بضع ساعات قبل الفجر؟

فقال بدون أن يرفع رأسه من الكتاب:

- سوف نلحق على النوم الطويل فلا تستعجلي.

- تتعب نفسك كثيرًا بالقراءة والدراسة، إلى أن نقلت هذه الهمة التي لا تكل إلى ولدنا مصطفى، فهو لا يمل من القراءة والكتب مثلك.

فتفطن للذي لا يغيب عن باله..مصطفى..فقال:

- مصطفى سوف يكون له شأن كبير، إضافة إلى ذكائه الذي ورثه منا نحن الرافعيين، إلا أني أراه سيكون مختلفًا، ذكاء حاد، ونبوغ نادر، كتب مسرحية وهو في التاسعة عشرة من عمره، لا جرم أنه نابغة الرافعيين.

فقالت وعيناها تبرق سرورا:

- يا صلاة النبي، ولدي مصطفى سيكون ذا شأن!

فوضع الشيخ الكتاب جنبًا وقال:

- الشيخ محمد عبده تنبأ له بذلك، وأنا متفائل ما دام الإمام الفيلسوف الحكيم قد تنبأ بذلك، فهو ذو نظرة لا تخيب، رأيته كيف يؤدب ويعلم حافظ إبراهيم وعبد الرحمن البرقوقي ومحمد رشيد رضا، وهؤلاء تلامذته المقربون، قد يكون مصطفى أحدهم.

- اللّٰه اللّٰه.. حضرة الإمام تنبأ له! يا سعادتي بك يا مصطفى..يا رب وفقه لما هو خير.

فقال الشيخ وقد تذكر همه:

- لكن حسرة في القلب وحزن لا ينقطع منذ أن أخبرني الطبيب بمرضه.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقالت الأم مستسلمة للمقادير:

- ربنا قادر على شفائه لندعو اللّٰه أن يكلله بالشفاء، وعندما أذهب للسيد البدوي سوف أدعو له، وأن يذهب عنك الضجر والكدر.

- هم شديد وثقيل، كلما نظرت إلى نبوغه وتذكرت علته خفت، خفت من ضياع هذا العقل الذي ما زال فتيًّا.

- لا تخف، إن اللّٰه أرحم به منا.

- أجل..أجل.

- ألم يتأخر وصوله؟

- بلى..سيصل قريبًا إن شاء اللّٰه. نامي.

ثم أُطفئت الأنوار.

وجالت الأفكار في رأس الشيخ..ولدي مصطفى من دون كلّ إخوته ظهر هذا النبوغ الحاد، وهو الوحيد من أولادي الذي تنبأ له الأستاذ الإمام، ولكن مرضه قبل أربع سنين بدد آمالي وحطمها، كيف لي أن أطمئن على مستقبله؟ والعمر قصير جدًّا، اللهم أعني وصبرني واشف ولدي..

ثم استسلم إلى النوم ولم يبق على أذان الفجر إلا سويعات، وهذا دأبه وعادته التي ورثها عن أجداده، أهل العلم والقضاء.



قال الرافعي:

- كان لأبي رحمه اللّٰه شخصية فريدة، تأثرت به كثيرًا، ولكن لم يُكتب لي أن كون قاضيًا مثله، وحتى لو كنت أتراني أكون مثله؟ كانت له

عصير الكتب للنشر والتوزيع

شخصية قوية، مستمدة من جدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي اللّه عنه)، كان إذا سار لم يلتفت وهذه الخصلة لم أكتسبها إلا عندما فقدت سمعي، إذ لا أسمع الأصوات والضجيج، أما هو فنسيج وحده، أتعبه مرضي، إذ كان يخاف عليَّ جدًّا.

فقال العريان:

- رحمه اللّه، سمعنا عنه أخبارًا في القضاء والحكم لو لم يشهدها الناس بأعينهم لقلنا هذه الحوادث في عهد الدولة العربية الإسلامية في عهد بني العباس عندما كانوا أقوياء.

- لا تستغرب، فهو عاش بينهم من خلال الكتب.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٣)

ما هو السلوان في الحبِّ؟ هو رجوعُ العقلِ من سفره الخياليِّ، في جسم المحبوب.

كانا يركبان فرسين ويسيران بخطا وئيدة بعد أن اقتربا من طنطا ومنازلها، كان مصطفى يرتدي بذلته التي لم تعد أنيقة، حيث يعلوها وعثاء السفر وغباره، ولم ينس طربوشه الذي لا يخلعه إلا نادرًا، كان يسير هو وصاحبه ويمران بالأرياف والقرى على مقربة من المدينة، الزرع يشغل مساحات شاسعة، والمساحات الخضراء ممتدة منبسطة، والفلاحون يعملون بجد ونشاط، والشمس قد توسطت كبد السماء فكانت حارة ملتهبة في هذا النهار الرمضاني، والعرق يتصبب، فأخرج صديقه الماء وشرب ومده لمصطفى وهو يقول:

- رمضان متعبٌ هذا العام جدًّا.

فأجاب مصطفى بعد أن أنزل الماء من فيه:

- الحمد لله الذي رخص لنا الإفطار، هذا الحر الذي لم يعرف العالم مثيله.

- أين منا تلك الربوة في لبنان؟ وجوها الشاعري الذي يفيض على أهله سعادة!

فتذكر مصطفى مأساته عند الجسر..ما زال صوتها نابضًا فيه ويحفظ كل شيءٍ فيها ويراه ماثلًا أمامه، الجسر ومأساته والفجيعة التي حصلت

لقلبه، يريد أن يقيم لها مأتمًا، ينتظر أن يصل إلى داره ليصفي أحداث سفره الجسيمة ونوازله العظيمة، كيف لقلبه أن ينسى ونصل الفراق قد أجهز على فؤاده؟ ما العزاء وما السلوان؟ لقد انهار انهيارًا مروعًا.

- عوضنا الله عن لبنان خيرًا مما خسرناه فيها.

ففطن الصديق إلى مرماه، وقال:

- لعل في ذلك خيرًا، الخير فيما اختاره الله.

- استسلم إلى القدر هكذا؟

- نعم يا مصطفى، أنت من علمتنا هذا، ألم تحدثنا عن فلسفة القدر ووجوب الإيمان به والاطمئنان له؟ أليست هذه أحاديثك التي تمليها عليّ؟

- بلى..هذا كلامي.

- أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم؟!

ثم صار يقول لنفسه: لم أكن أعلم أن الفواجع والضربات ستكون متتابعة بهذه القوة والشدة، آه على فقدان الحبيب وخسارته، ألم يحز في القلب حزًّا.

قال صاحبه مشيرًا إلى أرض زراعية مرت بهما:

- انظر إلى هذه النسوة، كيف يعملن وهن صائمات وجميلات، هذا الجمال لا جمال أوروبا الذي صدعوا به رؤوسنا، انظر يا صاح إلى الجمال، نساء مليحات مع الخضرة وفي هذا الحر يعملن، انظر إلى قصائد فحول الجمال واستمتع.

فنظر مصطفى إليهن وهن منهكات متعبات عاملات، فقال:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- هذه النسوة مفطرات لا صائمات.

فقال صاحبه بتحد:

- أراهن على أنهن صائمات، انظر إلى التقوى التي تكسوهن، والإيمان البادي على وجوههن.

- وكيف ستعرف؟

- سوف أنزل إليهن وأتحدث، فإن قبلن الحديث وتجاذبن وتجاوبن فهن مفطرات، وإن أنكرن حديثي وطُردنا فهن صائمات.

فقال مصطفى وهو يداري ابتسامته:

- موافق، ولنرتح قليلًا تحت هذه الشجرة.

فوقفا عند الشجرة، ونزلا من الفرسين، فنزع مصطفى الطربوش وصار يمسح عرقه ثم يغسل وجهه، وراح صديقه نحو الفلاحات، فلما أقبل عليهن وقفن مسحورات مدهوشات من إقبال أفندي عليهن، فلما وصل إليهن وأراد أن يجوس أرضهن سمع من إحداهن صوتًا خشنًا غليظًا كأنه صوت رجل لما فيه من خشونة وشدة قائلًا:

- ماذا تريد يا أفندي؟ قف عندك.

فقال برقة وليونة:

- سؤال في نفسي ونفس صاحبي هذا (وكان مصطفى قد لحقه) قد خامرنا ونحن جالسان تحت تلك الشجرة لنستريح من سفرنا بعد أن لقينا منه نصبًا.

فقالت بعد أن خففت حدة صوتها:

- وما ذاك السؤال؟

فقال بتنهد وتمهل:

- أأنتن صائمات أم مفطرات؟ (وكن قد اجتمعن حولهما).

فتبادلن النظرات في استنكار واستغراب، فقالت بعد أن عادت نبرة صوتها الأولى وما فيه من غلظة وشدة:

- أرأيتمانا مشركات أم فاسقات؟ حتى تأتيا بقلة أدب وذوق وتسألاننا هذا السؤال؟ أم حسبتما أننا من المتعلمات المتحذلقات قليلات الدين؟

فقال الصديق بارتباك لم يخلُ من تمثيل:

- أستغفر الله يا سيدة، لمَ هذا الكلام؟ نحن مستفهمان، ونحن أولاد حلال ومثقفان.

فقالت المرأة زاجرة:

- اذهبا وإلا اشتكينا عند القاضي عبد الرزاق، ويبدو أنكما لا تعرفان القاضي عبد الرزاق الرافعي وحدَّته وشدته؟

فارتسمت على شفتي مصطفى ابتسامة لم يستطع إخفاءها، وضحك صاحبه بسخرية، فقالت إحداهن:

- ما لكما تضحكان؟ أتستهزءان بالقاضي؟

فقال الصديق مفتخرًا:

- هذا هو ابن القاضي، (وأشار إلى مصطفى) مصطفى صادق ابن القاضي عبد الرزاق الرافعي، وأنا صاحبه.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فنظرن إليه مدهوشات مبهوتات، فقالت إحداهن وكأن صوتها صوت حورية من حواري جنة الخلد الموعودة المنشودة للمؤمنين:

- يعني فيك الخصام وأنت الخصم والحكم؟

فقال مصطفى مجيبًا ذاك الصوت الرقيق الرخيم:

- أستغفر اللّٰه، لسنا نحن من يستغل المناصب للمصالح، نحن الرافعيين، ولكن حبُّ الاستطلاع.

فعاد ذلك الصوت الملائكي ليعانق أذنيه العليلة مجددًا بقولها:

- ألم تجدا غيرنا لاستطلاعكما؟

فتبسم وقال:

- لم نخطئ، فقد عرفناكن، وتعرفنا.

فقالت المرأة ذات الصوت الجهوري وكأنه صوت واحد من الفتوات:

- استطلاع على بنات الناس يا بن القاضي؟ أهذا ما تعلمته من أبيك؟

فقال الصديق ناهيا هذا النقاش:

- يا أيها السيدة لم نقل شيئًا سيئًا، حاشا للّٰه ليس هذا ما تعلمناه، إنما هو حب الاستطلاع، فهل أنت صائمة؟

فقالت باستسلام:

- لا، زوجي يجبرني على العمل في هذا الحر فأنى لي الصوم؟

فقال مصطفى:

- سامحه الله، قدمي شكوى عند القاضي، سينصفك، فهذا حق الله على العبيد.

- يا مصيبتي! أأشكوه عند القاضي؟ هذا جرم عظيم، دعنا يا سيدي، زوجي ساتر عليَّ وعلى أولادي، وربي غفور رحيم.

لقد اقتنعت هذه المرأة وغيرها من نساء الصعيد بهذا الكلام، وكأن الزوج هو مفتاح الرزق وسر السعادة وبدونه يكتب الشقاء، لم تكن في نية الرافعي أن يدعوهن إلى التمرد على أزواجهن، إنما التحرر من تقاليد المجتمع التي كبلتهن بسلاسل من الأعراف.

فقالت المرأة الثانية لتجيب على استطلاعهما أو تحديهما:

- أنا مفطرة أيضًا، الجو حار، ويجب أن أعمل.

فقالت الثالثة والرابعة نفس الشيء، وجاء دور صاحبة الصوت الرقيق وقد انتبهت لعين مصطفى وكيف تطالعها، فقالت:

- وأنا أيضًا مفطرة.

فتبسم مصطفى، وقال له صاحبه:

- مبارك.. قد فزت بالتحدي يا ابن القاضي.. لنعد إلى راحتنا.

عادا إلى ظلال الشجرة وفي نفس مصطفى من صاحبة ذلك الصوت أشياء. فقال لصاحبه:

- متى نصل إلى أهلنا؟

فأجابه وأمارات المشقة قد استولت عليه:

- لم يبقَ إلا القليل.

قال مصطفى وهو يتأمل الصعيد في هذا اليوم الملتهب:

- ما أجمل حياة الريف! ساحات واسعة وأشجار باسقة، ومكان خال، يساعدك على التفكر والتأمل والقراءة والكتابة، ما أجملها من حياة تبعث السرور وتثري العقل!

فقال صديقه بلهجة لم تخلُ من تهكم:

- ألم تسمع قولهم: الماء والخضرة والوجه الحسن..

وما أن قال كلمته الأخيرة حتى أطلت من خلفهم الفتاة ذات الصوت الملائكي وهي تحمل صينية قديمة وفيها صحن دائري كبير وفيه أرز وعليه دجاجة وجنبه صحن من الفاكهة وخبز ولبن وماء بارد، فوضعت الصينية أمامهما، وقالت:

- خالتي بعثت لكما الغداء.

فقال الصديق مازحًا:

- ومن قال لك أننا مفطران؟

- لا يسأل عن المفطر إلا المفطر.

فقال ضاحكا:

- وأين خالتك التي بعثت الطعام جزاها الله خيرًا؟

فأشارت إليها فإذا هي المرأة ذات الصوت الخشن.

فقال لها:

- سبحان الذي خلقك وخلقها، هي لهيب النار وأنت نسيم الصباح، وهي إذا تكلمت حسبت باب جهنم يفتح، وأنت من الجنة تنطقين.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- هذه خالتي يا بيك، وهي من ضيفتك.

- لم أقل سوى الحق، الحق وكلمته، وهل الحق يغضبك؟

- كن مؤدبًا كصاحبك، (ثم أشارت إلى مصطفى) انظر إلى سكونه ووقاره والهيبة التي تعتري القضاة.

فصفق الصديق وقال:

- يا سلام حتى أنت؟ أثنيت على مصطفى وتركتيني واجمًا واقفًا.

فقال مصطفى:

- كُلْ ما زال أمامنا طريق وقد اقترب العصر ونحن ما زلنا هنا، نريد أن نصل قبل الغروب.

ثم أخذا بالأكل والفتاة ذات الصوت الملائكي تسترق النظر إلى مصطفى وتتأمله مليًّا. أكملا الأكل وودعا النِّساء وواصلا المسير بعد أن جددا نشاطهما.

كان سيرهما نحو طنطا مليئًا بالمشاهد التي تسترعي انتباههما، فقد شاهدا قذارة الصعيد ووساخة مناطقهم، شاهدا آدميين يعيشون جنب الأبقار والأغنام، كانت تلك المشاهد مدعاة لرأفتهما وحزنهما على وطنهما الذي أعياه الصراع السياسي، فقد أنهكه صراع عائلة محمد علي مع الدولة العثمانية من قبل.

فقال الصديق:

- لو أن الأموال التي ينفقونها في سبيل كراسيهم أنفقوها على الشعب لعشنا براحة ودعة.

فقا ل مصطفى باسما:

- كرسي البلد خير من الصعيد والبلد وأبيهم، الأرض والصعيد والشعب كله كأنهم عمال عند عائلة محمد علي باشا، فهل تنتظر من أحفاده خيرًا؟

- معك حق، لا بد من ثورة.

يجب أن تسبقها ثورة فكرية، ومدرسة الإمام محمد عبده لديها هذه الثورة.

- يعني الإمام سيكون صاحب الثورة؟

- بل الذين بعده.

وأرخى الليل سدله عندما وصلا منطقتهما في طنطا، كانت المدينة راكدة ساكنة، لا تسمع فيها إلا أصوات المصلين في التراويح والأضواء المتضائلة المتسللة إلى الشارع، كانت تلاوة القرآن في كل بيت، فهم يسمعونه من أماكن متفرقة، إلى أن وصل إلى بيته وهو يقود راحلته فوجد أخاه الصغير في الباب فلما رآه دخل إلى البيت بشيرًا ونذيرًا وهو ينادي بفرح وسرور:

- يا أمّاه لقد جاء مصطفى..جاء مصطفى..

فلما سمعت اجتاحتها فرحة عارمة، فقالت:

- اللهم صلّ على سيدنا محمد، لقد دعوت الله أن يعود مبكرًا فعاد...

فاحتضنته وهي تبكي... ومصطفى يقول لها:

- كفى كفى.. أنا هنا فلمَ البكاء؟

- ابتعدت عنا كل هذه المدة..ألم تشتق لنا!

- اشتقت طبعًا يا أماه، أين أبي؟

- أبوك مشغول في المسجد والمحكمة وأمور الناس ألا تعرفه؟

- آه، متى تنتهي أعماله التي تشغله عنكم؟

وبينما هم يتحدثون دخل الأب فتهلل وجهه عندما رأى ولده ماثلًا أمامه فسلم عليه بحرارة وعانقه. وجلست العائلة كلها أمامه وهو يتناول عشاءه، ويقص عليهم خبر سفرته وهو منهك متعب. ثم خلا إلى نفسه يريد النوم بعد رحلته الطويلة، وما أن وضع رأسه على الوسادة حتى عادت أمواج الذكرى تلّح عليه، وصارت لبنان ماثلة أمامه بجسرها في كفر الزيات، فشعر بضيق بعد أن هاجت الأحزان واستحكمت الأشجان

×××

كان يسير مع أبيه إلى المسجد لصلاة الفجر، فقال مصطفى لأبيه وهما يسيران نحو المسجد بتأنٍّ:

- يا أبي في هذه الشهور الأخيرة صرت أنظم شعرًا، نظمت بعض القصائد والمقطوعات.

فقال الأب باسما ومعجبا ومشجعا:

- ما شاء الله.. تكتب شعرًا! أسمعني يا ولدي هيّا..

فتبسم مصطفى بسماع جواب أبيه المنتظر، وقال:

يا فاتن النّساك ما عهدنا

أن يدخل المسجد ريح الفلاة

عصير الكتب للنشر والتوزيع

أما تخاف الله في خلقه

لو تركوا إن شاهدوك الصلاة

فنظر إلى وجه أبيه فرأى أمارات الاستحسان بادية، فقال متشجعًا:

- هل أزيدك؟

- زد زد.. لا فضض الله فاك..

وخليل ضممته فتأبى

وانثنى نافرا كظبي الصريم

قال نار (الخليل) في القلب شبت

قلت أقبل فتلك نار الكليم

فقال الشيخ عبد الرزاق:

- الله أكبر الله أكبر ما هذا البيان؟ وما هذه التورية يا ولد؟ (ثم صار يعيد البيت الأخير متنغمًا به وقال بعدها) تعني تورية هنا، فالخليل تأتي بمعنى الصاحب، وهو لقب إبراهيم عليه السلام، ونظرت لوجود النار فإن المعنى القريب هو لقب إبراهيم، وأنت أردت المعنى البعيد وهو الصاحب، والكليم لا تريد به الذي يظنه الناس من لقب موسى عليه السلام، أليس كذلك؟

- هو ذاك يا أبي..هو ذاك.

- ما شاء الله تفجرت موهبة الشعر فيك، سأخبر الإمام محمد نفسه بذلك.

فقال وهو فرح:

- الأستاذ الإمام.

- أجل يا ولدي.

كان اسم (محمد عبده) صوت نابض في نفسه، يشير إلى العقل والعلم والفلسفة وطريق الكمال المنشود، كان اسم الإمام حلم كل طامح للوصول في موكب العلم بهذه البلاد، كيف لا وهو عبقري الإصلاح والتعليم؟

كان الوقت بعد العصر عندما دخل مصطفى متجر شقيقه (سعيد) في شارع الخان بطنطا، يستورد إليه الفواكه الجافة من الشام، جلس مصطفى على كرسي عند الباب وهو يحمل كراسة وكتابًا جلس يتصفح بهما، فدخل رجل عشريني إلى المتجر لشراء الفاكهة، فنظر إليه مصطفى، فقال بصوت منخفض: نعم إنه هو، جورج إبراهيم حنا، هذا الذي يكتب شعرًا وينشره في الثريا، هي فرصة للتعرف، والصلة بيني وبين الأدباء.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كان الرجل مشغولًا بالشراء، فناداه مصطفى، فجاء الشاب لمصطفى، ودعاه للجلوس فجلس بأدب جمٍّ، ولم يعرف مصطفى، فقال له:

- أتعرف أني شاعر؟

- لا، لست أعرف.

- أنا مصطفى صادق الرافعي، أخو سعيد صاحب هذا المتجر، وهذه الكراسة (وكانت بين يديه) كلها من شعري، ولكنه شعر الحداثة فهو لا يعجبني، سأختار أجوده وأمزق الباقي، وسأطبع ديواني قريبًا فتعرفني.

وصار جورج يقلب في تلك الكراسة ويقرأ وهو معجب بما يقرأ، ويقرأ ويقول: جميل جدا..

فجاء سعيد الرافعي وقال:

- بهذه السرعة صرتما صديقين؟

فقال جورج وهو يقلب بالكراسة:

- لم تقل أنَّ لك أخًا شاعرًا.

فقال سعيد مفاخرًا:

- ها أنت قد عرفته شاعرًا، ولكن هل يرقى لشعرك؟

- لا تقل هذا، أنتم متفوقون في كلّ شيء، وحتمًا ستكونون متفوقين في الأدب، خاصة بوجود سي مصطفى.

فقال مصطفى باسمًا:

- أتراه يرقى لشعر حافظ؟

فقال مترددا:

- حافظ إبراهيم.. هذا الشاعر البديع؟

- نعم هو.

- هو شاعر ممتاز، وينشر كثير، وسمعت أن له ديوانا سيصدر قريبا.

- أجل، فقد جمعتني به صداقة.

- صديقك؟ يا سلام يا سي مصطفى، لماذا لم نعرفك من زمان؟

- جمعتني بحافظ صداقة بسيطة في العام الماضي، وعلاقة طيبة، وقد قرأ مسرحيتي عن حسام الدين.

- كتبت مسرحية؟

- نعم، مسرحية تاريخية، عن حسام الدين[1].

- أنت كنز يا مصطفى ليكن لنا لقاء آخر يجمعنا.

- أنا حاضر، متى نلتقي مرة أخرى؟



عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال الرافعي:

- كان هذا اللقاء الأول بيني وبين جورج، وبقي جورج صديق وفي مخلص لي إلى الآن، فهو خير عون وخير صاحب.

فقال العريان:

- كانت لحظة رائعة عندما سمع الشيخ عبد الرزاق شعرك، أليس كذلك؟

- لحظات لا تنسى، فأبي صاحب ذوق أدبي، متذوق للشعر، فكان في إعجابه وثنائه نجاح كبير بالنسبة لي، وكانت أمي تُسر بكل ما هو يسرني ويسعدني، وكانت صابرة محتسبة على مرضي، وتحبني من دون إخوتي وتؤثرني عليهم كلهم.

- والحمد لله أن هذا الإيثار قد أتى بثمره.

(١) وهي مسرحية غير معروفة عند قراء الرافعي، صدرت مؤخرًا بتحقيق الدكتور وليد كساب.

- أجل، والسعادة التي في عينيهما عندما أحقق إنجازًا تعدل الدنيا، أمي لها قسط كبير فيما آلت إليه، ولن أترك طنطا، بل أريد أن أدفن في نفس المكان جنبهما على ما قدما لي.

ثم سرعان ما اغرورقت عيناه بالدمع، وأخذ يبكي عليهما كأنهما ماتا الساعة وهذا طبعه وعادته كلما تذكرهما!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٤)

أكثر صبر العشاقِ من قلّة الحيلة.

كان مصطفى صادق يسير في طريقه بأناقته البسيطة التي تليق بموظف عادي في المحكمة، وعليه وقار الأديب وهيبة ابن كبار القضاة الشرعيين في طنطا، وصل إلى صيدلية اسمها (كوكب الشرق) فدخل إليها للقاء أصدقائه في الموعد المضروب، كان الأصدقاء جالسين، وهم: الأديب جورج إبراهيم حنا، والصيدلانيان: نسيم يارد، وإلياس عجان، والطبيب: تودري. كانوا من خيرة الشباب السوريين في طنطا، جمع بينهم التقارب في الأعمار والأفكار والانتماء، وميولاتهم الأدبية.

وكان مجلسهم هذا في الغالب يكون عرض كل واحد منهم لأدبه ونتاجه، مع الحديث عن أدباء العصر وعن ما كُتب مؤخرًا في الأدب.

فقال مصطفى:

- يا جورج بعثت بقصيدتي إلى الثريا، القصيدة الأخيرة، وستكون إن شاء الله فنًّا وحدها في الغزل.

فقال الكل بصوت واحد:

- أسمعنا منها شيئًا.

فلم يجد بدًا من القراءة، فقال:

عصافيرُ يحسبنَ القلوبَ من الحبِّ

فمنْ لي بها (عصفورةٌ) لقطتْ قلبي

وطارتْ فلما خافتِ العينُ فوتها

أزالتْ لها حبًا من اللؤلؤ الرطبِ

فيا ليتني طيرٌ أجاور عشها

فيوحشُها بعدي ويؤنسُها قربي

- كفى إلى هنا، والباقي ستجدونه في الثريا.

فقال نسيم يارد في لهجة تنم عن إعجاب كبير:

- اللّه اللّه.. ومن هذه عصفورة؟

فقال جورج وهو يبتسم ابتسامته التي لا تفارقه:

- ربما إشارة إلى المحبوبة.

فقال إلياس في لهجة ماكرة:

- يا عم جورج أنت على نياتك، وما أدراك بمصطفى وتورياته وعصافيره التي تجعله يغرد حسنًا وحبًا؟

فقال جورج بشيءٍ من الاستغراب:

- حقًّا يا مصطفى؟ (ثم عادت ابتسامته التي لا تفارقه) يعني محبوبتك اسمها عصفورة؟ والشعراء السابقون يرمزون لحبيباتهم بأسماء متداولة مثل (ليلى..سلمى..) أم تريد أن تخالفهم وتشق طريقًا جديدًا في الأدب؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فنظر مصطفى إلى إلياس نظرة سريعة خاطفة كأنه يقول له: لمَ فضحت أمري مع (عصفورة). فقال مصطفى بوقاره المعهود:

- (عصفورة) سأتركها للقارئ هو من يجتهد ويحاول أن يعرف، ويبقى المعنى في قلب الشاعر، والشاعر الجيّد يكتب وينام، ويترك الجمهور يدرسون شعره ويفتشون عن مقصده ومأربه.

فقال جورج:

- ولكننا أصدقاؤك وخاصتك، أتعاملنا كالنَّاس ولا تقلْ لنا من هي عصفورتك التي سرقت قلبك؟

- أنتم أصحابي وقرّاء أدبي، فلا تعارض بين كونكم أصدقائي وقراء أدبي.

فقال الطبيب توردي:

- لك نفس جامحة يا مصطفى، طموحة، أرى أنك لو استمررت على هذا النهج من الدراسة والطلب والتحصيل والإنتاج الأدبي فسوف تبلغ مبلغًا عظيمًا في الأدب، وسوف يخلد الأدب اسمك بين أدباء العربية المرموقين.

فقال إلياس بلهجة استفزازية حاول إخفاءها ولكن لم يفلح:

- يا عم الدكتور ستجعل مصطفى في مرتبة شوقي والبارودي..

فقطب مصطفى وفار وثار، وقبل أن يقول قولته الناتجة عن غضب، قال الطبيب توردي:

- ولمَ لا؟ هما أيضًا كانا مجتهدين، وقد تعثرا في أول شبابهما، وشعرهما فيه الجيّد والرديء.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقال مصطفى محتجًا:

- ومن ذا شوقي كي لا أصل له؟ كلانا شاعر، والمجلات والجرائد مضمارنا وميداننا، وسنرى من سيفوز.

فقال إلياس ماضيًا في لهجته الاستفزازية:

- وهل تقارن شعرك بالشوقيات؟

- بل سأجعل الشوقيات شوكيات أمام ديواني.

فصفق إلياس لكلامه وقال:

- - اللّه على تواضعك وزهدك!

فقال مصطفى باستظراف:

- من تواضع للّه رفعه.

فقال الدكتور تودري:

- يا أبا عصفورة من يلحقك في كناياتك واستعاراتك؟ اتركهم في غيظهم يتكلمون.

فضجت الصيدلية بالضحك. أما مصطفى فراح في خيلاته الحزينة، تذكرها.. عصفورة.. يا جرح قلبي، الذي جعلتِه يفيض حبًّا وشاعريةً وعشقًا، أين هي الآن؟ هل تزوجت من ابن عمها الذي عاد إليها بغتة؟ وقد تكون حبلى، هل نسيتني؟ وأنا الذي أغرد من فيضها شعرًا وأنهل من نبع ذكرها سحرًا؟ أجل صار العشاق يتغنون بشعري ويترنمون به، وسميت بـ(شاعر الحسن)، ليت شعري أأنت الآن بين أحضانه يترجم شوقه عناقًا وقبلًا، وأنا أترجمه شعرًا يتغنى به العشاق؟ وأنا ماكث هنا أصارع الحروب العاطفية والسدود الغرامية..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقال جورج:

- أين أنت يا مصطفى؟ إلى أين ذهبت؟

- إني هاهنا قاعد، أستمع لكم.

فقال إلياس متهكمًا:

- بل قد تكون مع (عصفورة) محلق معها.

فضحكوا أيضًا. فقال جورج في لهجة جديّة:

- ألم يرَ الأمام محمد عبده شعرك؟

- أسمعه أبي بعض القصائد، وأثنى عليها ثناءً حسنًا، وهو ينتظر الديوان الذي سيصدر.

فقال نسيم:

- متى يصدر ديوانكم سيدي الرافعي؟

- غير مستعجل على إصداره، مكتف الآن بالمجلات والجرائد، وسوف أنتقي خير شعري وأجعل ديواني عدة أجزاء.

- ألن تذهب إلى الإمام محمد؟

- بلى، قريبا سأذهب إن شاء اللّه.

- يا بختك يا مصطفى، حظك كبير، سوف تلتقي به.

- يا رجل اذهب إليه وسوف يستقبلك برحابة صدر.

فقال إلياس:

- اللّه على التواضع يا ابن القاضي.

فقال جورج مؤيدًا كلام صاحبه:

- فعلًا يا مصطفى إن لكم حظوة عند الإمام، لاشتهاركم بالعلم والمعرفة والقضاة.

فعاد الأول يقول:

- اللّه اللّه، من أين آتي بأب قاض له حظوة عند الإمام؟ لعل نفسي تتفجر بموهبة حسنة كنظم الشعر وكتابة النثر.

فابتسم مصطفى، وقال متمهلًا مسترسلًا:

- ليس الأب القاضي صانعًا للإبداع والمواهب، إنما الابن الطامح الطامع في ذلك، عليك يا صاح أن تكون مجدًّا مجتهدًا متفوقًا، حتى تبلغ الأسباب، لا أن تنظر إلى الأقران وتكون ضحية لصوت النفس المتواكلة المتكاسلة.

- وكيف أسهر على الكتب والملازم حتى مطلع الفجر؟

- لا تقس بالوقت وسهر الليالي، بل قل لي: كم همتك؟ فإذا علت الهمة لم يبقَ لك مجال لعد الوقت حتى.

- أنت علم وستكون ذا شأن كما تنبأ لك الإمام محمد عبده.

- إن شاء اللّه.

- ولكن قل لي يا مصطفى عن علاقتك بالشاعر حافظ إبراهيم، فإنَّ لك معرفة به كما أخبرتني، وهو الآن قد ذاع صيته، وسيصدر ديوانه قريبًا.

فتنهد وقال:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- ترجع صداقتي لحافظ منذ عام ونصف تقريبًا، أول عهدي بالأدب وطلبه وكتابة الشعر، حافظ بناؤه الأدبي عالٍ جدًّا، لذلك سعيت لأن أتعرف عليه، وقد أخلص إليّ مودته وأصفاني، وله مكانة في نفسي منذ لقيته أول مرة، وهو عبقريٌّ عجيب كثير الحفظ، ولكنه مختص في مذهب أدبي واحد، وترك سائر فنون الشعر الباقية، وقلت له: يجب أن ترسل في الشعر وفنونه، ولا ينبغي أن يكون شعرك كله كشمس الصيف، فإنَّ للربيع شمسًا أجمل منها وأحب، كأنها مجتمعة من أزهاره وعطره ونعيمه. وهو يفخر بأنه (الشاعر الاجتماعي) وهذا لقب ميزه صديقنا الأستاذ محمد كرد علي أيام كان في مصر فتعلق به حافظ واختص.

فقال إلياس وكان جادًّا لا هازلًا كعادته:

- ما سر نبوغ حافظ وظهوره على الساحة الأدبية؟

- كان الكتاب الأول الذي هداه إلى الأدبِ العربي كتاب (الوسيلة الأدبيّة) للشيخ حسين المرصفي، ففي هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختارة محققة من فنون الأدب العربي في عصوره المختلفة، ودرس ذوق البلاغة في أسمى ما يبلغ الذوق، ووقف على أسرار تركيبها، وعرف منه الطريقة التي نبغ بها البارودي، وهي قراءة دواوين فحول الشعراء من العربي الجاهلي ومن بعدهم، وحفظ الكثير منها، فبنى حافظ قريحته على الحفظ، إذ كانت قريحته كآلة التصوير لا تسمع لشيء إلا علقته، وهذا سببٌ من أسباب ضعف خياله، وكذلك تأثر بالمعري فقد حفظ أكثر لزومياته، فكانت هي سبب ميله ونزعته للشعر الاجتماعي ولكن المعري كانت به موهبة فلسفية افتقدها حافظ.



- يا رافعي أنا لا أعد الشاعر شاعرًا إلا إذا كان ينظم في الاجتماعيات.

(قالها حافظ إبراهيم). فقال الرافعي قاصدًا إغاضة حافظ:

- ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة: إنك لا تَعُدَّ الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد!

فقطب حافظ وعلا وجهه الضيق والحنق، والرافعي يضحك. فأخرج حافظ قروشًا وصار يعدوها. فقال مصطفى مستفهمًا:

- ما هذه القروش؟

- كنت أقامر الساعة فأضعت ثلاثين قرشًا، ولم يبقَ لي غير هذه القروش الملعونة، فهلم نتعشَّ.

ودخلا مطعمًا بسيطًا وراء الحديقة الأزبكية، فقال حافظ:

- ماذا تأكل؟

- لا آكل شيئًا، إني متعش.

فأكل أكلًا بسيطًا ودفع ثلاثة قروش، ثم خرجا عائدين إلى القهوة، فدخل عليهما الشيخ محمد مهدي؛ صديق حافظ، وهو يحمل جريدة (مصباح الشرق)، فقال لهما متعجبًا:

- انظرا إلى هذه القصيدة الرائية البديعة لابن الرومي..

فأخذها حافظ وقرأها ثم مصطفى، فرأى الشيخ أنهما لم يهيما بها كما هام هو، فقال لهما:

- انظرا إلى بسطته في قوافيه وقدرته على خلق القافية وتمكنه.. (قدارها.. أحمرها..أخضرها..).

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقال حافظ بتحدٍ (ولم يكن مؤمنًا بشاعرية صديقه):

- هلمَّ نتساجل في هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا..

وكان حافظ ذا ملكة في الارتجال، وكان الشيخ محمد مهدي ينظم الشعر، ولكنه لا يصل إلى براعة حافظ، وقد جمعتهما صداقة في مجلس الإمام محمد عبده وسرعان ما توثقت.

فقال الشيخ بعد شيءٍ من التردد ولكن وجود الرافعي جعله يقتحم هذه المساجلة:

- هلمَّ، والرافعي هو الحكم.

فأطرب الرافعي لهذا السجال..

وبدأ حافظ..وصار ينشد بيتًا والشيخ بيتًا، والرافعي يحصي ويحكم. فضاق الكلام وصار الشيخ مهدي يفكر طويلًا ثم ينطق باللفظ، ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير، ثم انقطع أخيرًا وبقي حافظ يرتجل وحده.

فقال الرافعي حاكمًا:

- انتهى، فاز حافظ فوزًا كبيرًا ساحقًا.

فقال الشيخ بامتعاض:

- مبارك يا حافظ.

فقال حافظ بكبرياء حاول مداراته فلم يفلح:

- هذا أمر عادي أمام ارتجالي وقريحتي.

فقال الرافعي قاصدًا إزعاجه وتنكيلَ فرحته بهذا السجال:

- قريحة ارتجال..هه؟ شعر جرائد، ولن يصمد أمام قافلة الأدب العربي الخالدة، بل سيموت ظمئًا في بداية الطريق الطويل.

فقال الشيخ مؤيدًا:

- واحسرتاه عليك يا حافظ، تفرح بشعر جرائد!

فقال مصطفى وهو يزيد بتهكمه:

- خذ حكمًا من ناقد بصير بلغة العرب وآدابها.

فقال حافظ وهو يدعي أنه غير مبالٍ بكلامهما:

- هذا تاريخ، الشعر الاجتماعي يصف الحياة السياسية وغير السياسية، ويعرض تاريخ مصر عاريًا من أكاذيب المزورين، فهو سجل تاريخ نابض بروح شعب، لا كغزلك ومدحك وسائر الفنون التي عفا عنها الزمن.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقال الشيخ:

- لكنَّ الزمن تطور، وطرق تدوين التاريخ صارت متطورة، فمثلًا الجرائد هي خير سجل.

- ليس كالشعر، وإنما تقولان هذا لضعفكم في هذا الفن.

فقال الرافعي:

- الإمام محمد عبده ما أخباره؟

- بخير..تأخرت ولم تأتِ إليه كما قلت.

- قريبًا سوف نأتي أنا وأبي.

فقال الشيخ:

- حافظ ماذا تقرأ هذه الأيام؟

فارتاح حافظ لسؤاله عن ما يحب، وقال وهو يقرب النارجيلة إلى فيه:

- الآن اقرأ في الأدب الفرنسي، تقريبًا صرت أتقن لغتهم.

- تتعلم الفرنسية؟ والفرنسيون مع الإنجليز ومن عاونهم من الكفار هم مصدر البلاء الأعظم على أمتنا؟ وآدابهم حتمًا ستفسد عقول شبابنا.

فقال حافظ وهو ينفث دخان نرجيلته:

- ما للأدب والسياسة؟ أدب فرنسا الرائع شيء وسياستهم الرعناء شيء آخر.

- ولكنهم فرنسيون وكفرة وأعداء الدولة العلية، ويريدون كيدًا بالسلطان عبد الحميد حفظه اللّٰه.

- دولتك نفسها تريد كيدا بالسلطان.. وأنت يا مصطفى ألم تتعلم من الفرنسية شيئًا؟ فيها أدب رائع.

- لقد حاولتُ أن أتعلمها ولكنّ لم أحسنها، وإني آملُ لأن أعودَ فأتعلمها في قابلِ الأيام.

فقال حافظ وقد استوى جالسًا:

- نسيت أن أخبركما أن ديواني أصدره خلال شهر تقريبًا، هذا الجزء الأول.

فتوقف الرافعي عن احتساء الشاي، ووقع الأمر في نفسه وقعًا شديدًا.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- حافظ يصدر ديوانه وأنا لا؟ هل يعقل أن حافظًا سيبلغ ما يبلغه عند صدور ديوانه وأنا حالي هذا؟ ألم تتخذ حافظًا ندًّا ومنافسًا؟ وأن تعلنه وتجهر به، لكنك يا مصطفى اتخذته منافسًا ولحقت به تنظم وتنشر كما ينشر هو وتريد أن تبلغ ما بلغ، ولكن غلبني بأشواط ومراحل.

فقال الشيخ:

- هذا خبر سار، كنا ننتظره من مدة غير قليلة.

- نعم، وأخير عزمت وتوكلت، وإن شاء الله عندما ينشر يكتب عنه الأستاذ الإمام، والشيخ اليازجي، وحتى البارودي والكاظمي والكثير من فرسان الأدب.

البارودي والكاظمي والإمام مرة واحدة؟ وأنت جالس في محكمة طنطا وتُسمع شعرك لجورج إبراهيم وصحبه في الصيدلية، وتظن نفسك قد فتحت فتحًا مبينًا في الأدب، وأن اسمك سيخلد، ولكن لن أنهزم.

فقال بعد أن صحا من تساؤلاته:

- مبارك يا حافظ..تستحق أكثر من هذا.

- شكرًا صديقي مصطفى.

وانفض المجلس على هذه الشاكلة والأفكار تتموج بالرافعي وتأخذ منه كل مأخذ، تطويه الأرض وهو سارح شارد في موجات خياله وديوان حافظ!



قال الرافعي:

- كان حافظ هو المنافس الأول لي، ولو كان هناك أكبر منه لنافسته، ولكن مع كل تلك المنافسة التي أضمرها تجاه حافظ، لكنه كان صديقًا وفيًا لي، وصداقتنا طويلة لم تنته إلى أن مات.

قال العريان:

- وجورج؟

- جورج بدأ ينشر قبلي في الصحف، ولكنه لم يكتب له التوفيق في الأدب، إلا أنه ظل صاحبي إلى الآن.

- وأنا أشهد بذلك، صديق صادق حقًا.

- أجل.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٥)

كيفَ تصلح الدنيا وفي كل أرض يعمل على عكس قوانينها قانون الجو وقانون الأرض؟

كان راكبًا على فرسه سائرًا في نواحي طنطا وصعيدها متأملًا متفكرًا، كان يعشق الخلوة والتأمل، يقضي النهار سائرًا من غير غاية سوى الخلو لنفسه، وهذه المرة صار للمسير عنوان وإن أنكره في نفسه، ولكنه يلح عليه إلحاحًا شديدًا، وجد نفسه بين تلك الحقول والمزارع باحثًا عن تلك الفتاة صاحبة الصوت الملائكي ولكنه لم يرها، ودار فرسه عائدًا ولكن سرعان ما سمع ذلك الصوت يعانق تلك الآذان مجددًا قائلًا:

- يا بن القاضي؟

فنظر إليها مبتسمًا ولكن وجدها جميلة الصوت فقط! لم يجد عندها جمالًا رائعًا يروقه وينسيه (عصفورة)، لقد كان صوتها مسكرًا يجعله يتعربد في أروقة الجمال والشعر، ولكن في المرة الأولى لم يرَ شكلها، فقد كانت تضع لثامًا وهي تعمل، أما الآن فهي مكشوفة الوجه وليتها لم تكشفه، لبقي صوتها عالقًا في ذهنه. فقال متهربًا من حوار كان يتمناه:

- أهلًا أيتها السيدة.

- ألم تعرفني؟

- بلى عرفتك. عن إذنك لدي عمل.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ثم انطلق وهو يفكر: لماذا يبحث عن جميلة فاتنة مذهلة؟ هل يريد أن يتناسى بها عن ذكر عصفورة؟ أم الشعر الذي يفرض عليه حب جديد وعشق؟

من الأفضل أن يعود إلى أبيه ويخبره بالموضوع الذي قد عزم عليه.

- ماذا؟ إصلاح ديني وجمعية شبابية لهذا الغرض؟ لتعيدوا الأخلاق التي طمست وإعادة بنائها؟

فقال مصطفى:

- أجل يا أبي، جمعية اجتمعت فيها أنا وصديقي المحامي عبد الفتاح المرقي وصديق آخر، نسعى إلى الإصلاح الديني وتجديد مفهوم الأخلاق الذي قد فسد وكسد.

- يا بني هذا الأمر يراد له علماء ومثقفون لا شباب ثلاثة، محام وأديبان.

- يا أبي الإصلاح الديني لا يختص برجال الدين فحسب، بل على كل واحد منا أن يكون مصلحًا، ونحن وإن كنا ثلاثة، فالخير بنا، ألم تَرَ محمد رشيد رضا وجمعيته (شمس الإسلام) كيف أصبحت؟

فقالت الأم وكانت تجلس قربهما وتستمع إليهما باهتمام:

- يا ولدي ما لك والجمعيات؟ كن قاضيًا مثل أجدادك، أو شاعرًا كما تحب، خير لك من هذه الجمعيات.

- أريده أن يكون مثل الإمام محمد، أو مثل الشيخ عبد القادر الرافعي.

فقالت الأم:

- هو لن يصعب عليه أن يكون مثل الإمام محمد عبده.

- افعل ما تشاء يا ولدي ولكني غير متفائل بنجاح جمعيتكم هذه.

خرج مصطفى إلى أعضاء الجمعية الجدد في المسجد البهي، وبينما هو يمشي في الطريق بدت أمامه امرأة تسير، هي نفس الطول ونفس الجسد، قد تكون هي، ولكن هل يعقل؟ هل طويت الأرض واختصرت؟ هل صغر العالم حقًّا لهذه الدرجة؟ وصنعت المعجزة؟ أجل إنها معجزة الحبِّ، ألم توحي إليّ شعرًا؟ للحبِ وحي فلمَ لا يكون له معجزة خارقة تجعل البشر يقولون عن المحب: ساحر وشاعر. وتقدم نحوها وهو يقول: عصفورة.

فالتفت المرأة نحوه وهي تقول له:

- ماذا تريد أيُّها الرجل؟

فقال وقد استيقظ من خياله مندهشًا:

- آسف ظننتك امرأة أعرفها.

فقال لنفسه: متى؟ متى أستيقظ من أوهامي وأحلامي؟ أفق يا مصطفى.

ثم اعتلاه الكرب وآلمه خطب الذكرى. رحلت عصفورة ولن تعود بعد الآن، لقد انتهت كما بدأت على ذلك الجسر وسوف تنتظر ديواني الذي سوف سيصدر، ولعلي أرسل لها نسخة عن طريق أقاربي هناك.

وسار إلى المسجد والأفكار تتموج في ذهنه وتتصادم وتتلاطم، فلما وصل إلى المسجد البهي وانقضت الصلاة، واجتمع مع صاحبيه، تحدثا، فقال المحامي وكله حماس واندفاع:

- ستكون دعوة علنية ثائرة في أفكارها وتجديدها، إن كتب الله لها الانتشار والازدهار، سوف تكون دعوة من غير الأزهريين

عصير الكتب للنشر والتوزيع

والأحمديين، وهي دعوة من نفر عاشوا بين الناس لينتجوا ويبرعوا في فنون الدعوة وأساليبها.

فقال الآخر ولا يقل عنه حماسة:

- لقد غدت الأخلاق جثة هامدة، طمرت ودفنت منذ عهد بعيد، آن الأوان أن تدبَّ الحياة في هذا الجسد الهامد روح نابضة بروح الإيمان.

فقال مصطفى:

- كيف سوف تكون؟ وما عملها ومستقبلها.

فقال المحامي مسرعًا:

- مستقبله زاهر باهر إن شاء الله.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

وفشت في تلك الأيام الكوليرا في مصر وأغلقت المدارس وودع الكثير من الأهلين أحبابهم وأولادهم، كانت أيامًا لا تنسى في تاريخ مصر، فكم من عالم قد غدا في القبر؟ وكم من نابغة أمسى في اللحد؟



وزعت منشورات الجمعية الرافعية الفتية على الناس في الطرقات، وعلقت على الجدران، وفيها وضعت معاني الإصلاح بأسلوب أدبي رافعيّ رفيع، مصوغة أجمل صياغة، ومدبجة بأروع ديباجة، فنشرت وتوزعت من قبل مصطفى وأترابه، لقد نشر هؤلاء الشبان خطاباتهم غير عابئين

بالأهوال والأوجال التي تجرها عليهم، وكأنَّ الإصلاح الفطري قد عمل عمله الموكل به.

جلس الناس في المسجد البهيِّ بعد الصلاة يذكرون اللّه، فقام مصطفى صادق الرافعي الشاب الذي لمّا يبلغ الثانية والعشرين بعد خطيبًا، وصار يخطب حاثهم على الإصلاح والصلاح والفلاح وسُبل الخير، بأسلوب رائق ساحر، ودعا الناس إلى الانضمام إلى جمعيته.

وكان من بين الحضور طالب أحمديّ معمم، وما إن سمع كلام مصطفى حتى خرج مسرعًا إلى مدرسته، وقال لأساتذته وصحبه: إنَّ مصطفى صادق بن الشيخ عبد الرزاق الرافعي قد أسس جمعية للإصلاح الديني.

فثارت ثائرتهم، وقال شيخهم: من هذا ليؤسس جمعية دينية في حضورنا؟ أليس الدين من تخصصنا وعملنا؟

فقال أحد التلاميذ وكان شكّاءً بكّاءً:

- يقولون أنه سيؤسس معهدًا دينيًا أكبر من معهدنا هذا، وأنه سينفتح على الآداب الأوربية، وهو شاعر مغرور ينشر شعرًا في الجرائد، ويلقب نفسه بشاعر الحسن...

وضجر الشيخ من كلام التلميذ، وقال وهو ثائر فائر:

- سوف أذهب أنا ومجموعة من العلماء لأبيه القاضي الرافعي، وسوف نجعل (شاعر الحسن) يعدل عن هذه الجمعية التي نتوجس منها.

(وعندما قال شاعر الحسن قالها بشيءٍ من السخرية)

- وإن لم يعدل؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- سوف يعدل..

كان مصطفى في المحكمة جالسًا، فدخل عليه عبد الفتاح صديقه وشريكه في تأسيس الحركة، فقال الرافعي:

- هذه هي الرسالة، قد كتبتها إلى الشيخ محمد رشيد رضا، لكي تكون جمعيتنا هنا فرعًا عن جمعيته (شمس الإسلام).

- شيء رائع لنذهب ونرسلها.

- هيّا.

دخل الشيخ عبد الرزاق على مصطفى وكان جالسًا على مكتبه وماسكا بمجلد من كتاب (الأغاني)، فجلس، وقال:

- تقرأ في الأغاني؟ جميل جدًّا.

فقال مجاملًا وهو يعلم أن أباه لا يأتي في مثل هذا الوقت إلا لأمر جلل:

- أجل يا أبي، (الأغاني) موسوعة شيّقة لذيذة، فعلًا كتاب عظيم ومن أمات مصادر الأدب العربي.

والتساؤلات تدور في خلده وتتلاطم بسيل عارم من المجاملات والأحاديث في الأدب التي شعر لأول مرة أنها فارغة، وأنَّ وراء هذا الحديث حديثًا لا يسر.

- قرأت به منذ كنت شابًا يافعًا مثلك وفي عمرك، ولكنَّ القضاء أخذ مني كلّ وقتي، ولم تتح لي الأيام فرصة أن أكون أديبًا.

- ما زلت شابًا يا أبي.

- لا شباب بعد الخمسين.

لماذا لم ينبس إلى الآن ببنت شفة، متى يفصح؟ أفصح يا أبت فإنَّ عينيك تقول فلمَ لمْ تنطق إلى الآن؟

- جاءني وفد من المدرسة الأحمدية، يطلبون مني أن تحل جمعيتك وتكف عنها وتترك الأمر لهم، أنا أخبرتهم أن دعوتك هي لله ولن تقلل من شأنهم أو مكانتهم، ولكنهم أصروا على أن تترك الأمر لأن طلابهم غضبوا وشعروا أنكم تستخفون بهم وبدورهم الذي جملوه على أعتاقهم وتفرغوا له.

- وهل الإصلاح مقتصرٌ على المدرسة الأحمدية في طنطا والأزهر في القاهرة؟ الإسلام يقع على عاتقنا كلنا، وكلنا دعاة له، ألم تعلمنا أنت هذا؟

فغضب الأب وقال وهو يحاول كظم غضبه:

- يا ولدي الرجال يريدون بكم شرًّا، علماؤهم وتلامذتهم ومن ناصرهم، وهم يرون أن الدين في مصر لهم ولأهل الأزهر، فلا داع لجدالهم، أنا غير مسئول عن منظمتك هذه، لكن لأجلك أنت ورفيقيك.

- يا أبتاه، كلُّ حركة في التاريخ تعرضت لخصومة وضغوطات ومحاربة، فهل نستسلم؟ يجب أن نكافح.

- تكافح من؟ أنت لم تبدأ بعد حتى هرع وفزع عليك من وجب أن يساندك.

(ثم قال متلطفًا عاطفًا):

- يا بني أنت لم تخلق لتقود حركة وحزبًا، أنت مستقبل شاعر كبير سيخلده الزمان بين الأدباء الخالدين، إن كتب الله لك. وسوف نذهب إلى الإمام محمد عبده بعد غدٍ فاستعد.

فتهلل وجه مصطفى وقال وهو فرح مرح:

- نذهب إلى الأزهر؟

- نعم إلى الأزهر، استعد.

خرج الرافعي مع صديقيه بعد أن ألقى درسًا على المصلين، كساه الرافعي بلاغة وبيانًا وحسنًا لم يسمع به المصلون من قبل من فم أي خطيب، كيف لا وهو السجّاع المسترسل المتفنن بفنون الكلام؟ والحافظ للقرآن وروائع الحكم؟

وبينما هما يسيران بفرح ملحوظ اعترضهم خمسة من طلاب الجامع الأحمدي، فقال أحدهم بحزم وعزم:

- اتركوا مؤسستكم أو جمعيتكم، فهذا ليس من عملكم، ولا من شأنكم.

فنظر مصطفى إلى صاحبه وقال:

- لا دخل لكم.

- والله لان لم تتركا هذا العمل لنقطعنكم ونقطع دابركم.

- ثم مضوا!

وقضى مصطفى ليلته متسهدًّا ساهرًا حائرًا. وبعد طول التفكير والتدبير قال لصاحبه مستسلمًا:

- لقد عزمت أن أترك أمر الجمعية الإصلاحية!

فقال المحامي مذهولًا:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- ماذا؟ نترك ما بدأناه؟ هل خفت ووجلت منهم؟ هل نسيت عهدنا ودستورنا الذي كتبته أنت بيدك؟

- لا لم أنسَ، ولكن سنعرض نفسنا للخطر، ونحن في غنى عن ذلك الخطر، ونحن نوينا فحالت الظروف دون ذلك، ونسأل الله أن يكتب الأجر لنا.

- لا جهاد بدون خطر ومتاعب.

فقال الآخر:

- لم نكن ننتظر هذا منك.

فقال الرافعي باسمًا:

- لنؤثر السلامة على الندامة، فهؤلاء يريدون بنا شرًّا فلنحذرهم، وأبي يرى ذلك أيضًا.

خرج الرافعي بعد أن حل جمعيته الرافعية الصغيرة التي لم تدم طويلًا، وعاد إلى البيت.

كان يجلس في المكتبة مكبًّا على كراسات شعره، يريد أن يستخلص زبدة شعره ونظمه ويسمعه للإمام محمد عبده، فوضع في الكراسة التي بين يديه أجمل أشعاره المنتقاة المتخلصات من نظمه الكثير، ورأى شعره في عصفورة فهاجت الأشواق والحنين إليها ولجسرها، آه من الحب وسلطانه، كم أنفقنا من وقتنا فيه؟ آه منها ومن ألحاظها التي يكمن فيها الأمر والنهي والزجر، وفيها التنهد والتدلل، وفيها قضيت الليل متسهدًا.

غدًا سوف أذهب إلى القاهرة، وأطوف بها وبحاراتها القديمة، وسأزور الحسين (رضي الله عنه) وأدعو هناك، ثم أمضي إلى الإمام في الأزهر، رباه ماذا سيقول لي الإمام؟ إني مرتجف وجل من لقائه، كم مدحه

حافظ ومدح مجلسه ودرسه؟ وكم اعتلا وجه أبي الخشوع والتأدب في حضرة اسمه وذكره! كأنّ بينه وبين السماء أرتالًا من الملائكة تمده بقوة مغناطيسية لجذب القلوب وسحرها. يا ترى هل أحبَّ الإمامُ وعشق؟ هل عانى من السهر إلى السحر؟ وهل قضى ليله الكاحل كئيبًا حزينًا؟ سأزوره غدًا وسيكون يومًا من أيام العمر التي لن تتكرر إلا نادرًا، ولن يزول أثرها ما حييت، هكذا قال أبي، وسأمرح وأفرح في رحاب درسه وعلمه اللذين لا ينتهيان، هو بحر لا ساحل له..هو محمد عبده الحلم الأبدي.



قال الرافعي:

- كانت تلك المرة الأولى والأخيرة تقريبًا في مجال الجمعيات والأحزاب، ومن بعد كلمة أبي (رحمه الله) اقتنعت أني لم أخلق لسياسة أو جمعية، بل لحمل راية الدفاع عن البلاغة والأدب العربي، كان أبي له نظرة لا تخيب في التفرس والتوقع بما هو آت.

فقال العريان:

- حقًّا أنت لم تخلق للسياسة..

فقاطعه الرافعي قائلًا:

- فأنا أجهل الناس بأمورها.

- أستغفر الله، لم أقصد هذا.

- وإن لم يقلها لسانك، فقد قالتها عينك.



(٦)

وكتب له أن يكون الكنز الثمين الذي يُفجأ العالم بانكشافه.

وجد نفسه في القطار مع أبيه منطلقين إلى القاهرة، كان مصطفى يحمل كتابًا ليقضي الدرب به؛ وكراسة أشعاره التي سيريها للإمام، وأخذ يقرأ كعادته غير حافل بضجيج وعجيج المسافرين، فمرضه قبل سنين أفقده جزءًا من سمعه، ومن المحتمل مع الأيام أن يفقده كله كما أخبر الطبيب أباه، وهو الأمر الذي قضَّ مضجع الشيخ، وكلما نظر إليه تذكر مرضه، فكان كلما تذكر المرض امتزج بحزن ورأفة. لاحظ مصطفى أن أباه شارد حائر، تبدو عليه أمارات الحزن والكآبة، فقال متلطفًا مترفقًا:

- أبي..أبي.

- نعم يا ولدي، ما بك؟ هل من خطب؟

- لا، ولكن ما بك منذ أن ركبنا القطار وأنت على هذا الحال من الهم والغم؟

فزفر الأب في حزن عميق، وقال:

- آه يا ولدي، لو تعلم ما بي من هموم وغموم!

- قل يا أبت.

- الأستاذ الإمام، عليه حملة شعواء لإزالته من الإفتاء والأزهر من قبل الخديوي، ويدبر المكائد للشيخ ليخلعه من منصبه الذي يتبوؤه.

- الخديوي؟ ولماذا؟

- ذلك لأن الفساد قد دبَّ في البلاد، والإمام مصلح يحاول القضاء على هذا الفساد المستشري.

لقد سمع مصطفى كثيرًا عن الإمام ودرسه، حضره مرة مع أبيه عندما كان صغيرًا، ما زال يسمع عن الإمام وإصلاحه في الأزهر وما كان عليه من فوضى في التعليم، ثم جاء الإمام فوسع دائرة العلوم والمعارف وأرقى اللغة العربية، وسعى لإصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم، وإصلاح الإخلاص وعزة النفس والوفاء، وكل تلك المفاهيم والتعاليم التي كرس حياته لترسيخها في الأجيال الآتية.

لقد كانت دروس الإمام تفيض روحًا وتتألق نورًا ساطعًا، ولكن الأستاذ الإمام لاقى حربًا شعواء من الخديوي، الذي حاول بشتى الطرق للانتقام وعزله من منصبه في الإفتاء والأزهر، وكلٌّ منهما متوقف على موافقة مجلس نظار الحكومة، وموافقة المجلس يتوقف على موافقة مستشار المالية والعميد البريطاني من فوقه، لقد سعى الخديوي عند اللورد (كرومر) لعزل الإمام، ذلك الاسم الذي له رنين في آذان العائلة الرافعية، والشيخ عبد الرزاق كان يذكره على مسمع مصطفى دائمًا، في لهجة تجمع بين الفخر والحذر، يفتخر بأن وصل صيتهم وشهرتهم إلى المندوب السامي، والحذر من كيده ومكره، لقد رفع اللورد كرومر تقريرًا إلى حكومته عن العائلة الرافعية ومدى سيطرتها على القضاء في مصر، وهي العائلة المرشحة لتولي الإفتاء ومشيخة الأزهر بعد الأستاذ الإمام.

كان الشيخ عبد الرزاق غارقًا في همومه يفكر ومصطفى في كتابه وكراسته، إلى أن توقف القطار، فركبا عربة توصلهما إلى الحسين، كان للحسين رمزية في نفوسهم ومكان تهوي إليه أفئدتهم، مكان تحلو فيه الدعوات والابتهالات والنجوات، وقف مصطفى وأبوه ودعوا الله مخلصين

أن يفرج عن الإمام كربته، وينقذه من الخديوي ومكره، كانت صورة الخشوع متجسدة بأسمى معانيها في القاضي عبد الرزاق، كان مصطفى ينظر إلى أبيه وهو يدعو ويرمقه بإعجاب، والشيخ منشغلٌ في الدعاء.

وخرجا من الحسين راجلين، والشيخ يفكر في حال ولده الشاب الذي صار محط الأنظار والإعجاب، فهو شاب وسيم وذكي وأديب أريب.

قال مصطفى:

- يا أبي لنجلس في هذا المقهى نشرب ماءً وشايًا، فإني متعب.

فقال الشيخ باسمًا:

- تعال لنجلس ونأكل في المطعم.

وأصابا شيئًا من الطعام، ثم جلسا في المقهى الشعبي يحتسيان شايًا بتمهل، كان المقهى شعبيًّا تتعالى فيه أصوات الأرجيلة واللعب التي كان الشيخ يكرهها، ورائحة الدخان تملؤ المكان، وبينما القاضي يسرح في خيالاته ومصطفى يراقب الطريق مستأنسًا أطلت فتاة هيفاء عجزاء حسناء، كأنَّ وجهها عند مصطفى يعدل فصلًا من فصول بيان الجاحظ، أو قصيدة من قصائد فحول الشعراء، فدمدم قائلًا: من قصائد امرئ القيس..

فنظرت إليه ورأت عينيه تكاد تلتهمها فابتسمت، ثم قال بصوت غير مسموع:

يـا كحيـل العيـون غض قليـلاً

أوشـك العاشـقون أن يعبـدوكا

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كل ما فيك بينهم معجزات

ومن المعجزات أن وحدوكا

ما حسبت القلوب تسفك حتى

صار قلبي من لحظه مسفوكا

فقال القاضي:

- هل قلت شيئا؟

- كلا يا أبي.

وفجأة ظهر رجل ضخم الجثة، له شارب كبير مفتول، تتقادح عيناه شرًّا، وينظر لمن حوله شزرًا، ثم جلس في المقهى متبخترًا متكبرًا، يبحث عن أحد يحاكيه أو ينظر إليه بعدم ارتياح ليقلب المقهى لحلبة عراك وصراع، يكسر ويدمر ويخرب، كيف لا وهو من كبار الفتوة في هذه الحارة؟

فقال القاضي لولده:

- انظر إلى هذا النموذج مثلًا، لو كان هناك قانون أو قوة تضبطه لما تبختر أو تحدى، وغيره كثير، وهذا مثال مصغر وقليل من كثير، وضعٌ مزرٍ حقًّا.

فقال مصطفى باهتمام:

- ولمَ لا يضبطهم البوليس؟

- وماذا يلحق البوليس حتى يلحق لمطاردة مثل هؤلاء الفتوة؟ هم كثر وبوليسنا ضعيف، والفساد الذي نشهده، كيف سنهزم هؤلاء الفتوة؟ وفي بعض الأحايين يكون هؤلاء أقوى من البوليس بل في

عصير الكتب للنشر والتوزيع

بعض الحارات يكونون أكثر عددًا، في طنطا قلوا كثيرًا عن السابق بعد جهود كبيرة في تأديب مثل هؤلاء الفتوة، الذين ينشرون في الأرض فسادًا، دون حسيب أو رقيب يذكر.

ثم قاما وكانت الساعة تشير إلى الثالثة عصرًا سائرين نحو الأزهر. دخلا الأزهر فانبعثت عليهم نسائم العلم والمعرفة التي تجسدت بضجيج الطلاب في واحة المسجد الفسيحة، التي تعج بالطلبة صغارًا وكبارًا، ومنهم المبصرون المعافون، ومنهم من به عاهة أو مرض مثل الصبي الذي شاهدوه قبل قليل، المعممون يملؤون المكان، أما المطربشون فقليلون، وكان مصطفى مطربشًا عكس أبيه. وهناك رجل أسمر نحيل مطربش، يقف وسط مجموعة من الطلاب المعممين ويتحدث لهم عن أزمة الإمام مع الخديوي، ولم يمض إلا قليل حتى انفضوا من حوله وتركوه قائمًا، فلما رأى الشيخ أتى مسرعًا مرحبًا، وقال:

- طال الغياب يا شيخ عبد الرزاق.

- شغل يا أستاذ إبراهيم.

فنظر الرجل الأسمر إلى مصطفى نظرة إعجاب، وقال:

- ومن هذا الشاب الظريف؟

فقال الشيخ مفتخرًا:

- - هذا ولدي مصطفى صادق الرافعي، شاعر ناشئ، وأديب قد تنبأ له الإمام محمد عبده بالنبوغ في اللغة والأدب، وله ديوان شعر سيصدر خلال شهر إن شاء الله، ألم تقرأ له في الجرائد؟

- آه، أنا شغلي كثير وعملي يأخذ كلَّ وقتي، فلم أنتبه.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقال الشيخ موجهًا كلامه لمصطفى:

- هذا الأستاذ إبراهيم بك اللقاني، المحامي الشهير، والأديب الكبير.

فتصافحا. وقال المحامي:

- أسمعنا شيئًا من شعرك يا مصطفى.

فقال الشيخ جادًّا:

- في وقت آخر تسمع شعره، ما هذه الضجة عن الإمام والخديوي؟

فقال الأستاذ منفعلًا:

- لم تفلح دسائس الخديوي عند اللورد كرومر، فلفق صورة شمسية للإمام مع جماعة من الرجال والنساء ونشرها في جريدة مع طعن بالأستاذ الإمام بأنه يجالس نساء الفرنج في منصبه الديني، وبعثوا الصورة إلى اللورد مع رجل أراد إقناعه بأن هذا يعد إزراء بمنصبه في عرف المسلمين وينبغي خروجه منه مراعاةً لشعورهم! وهل تعرف ما حصل؟ ابتسم اللورد كرومر بسخرية وازدراء من هذه السخافة وقال: إن هذه الصورة لا يثبت لها عندي أصل، المفتي يأتي عندنا، فهل نهتم بشعور المتعصبين الجهلاء ونبني عليه عملًا مهمًا كهذا؟

فتبسم الشيخ ومصطفى.

ثم تابع المحامي: وقد نظمت في ذلك أبياتًا أقول فيها:

مكيدة لفقوها بصورة مستعارة

ودبروها وكانوا بقبة الاستشارة[1]

(١) بقبة الاستشارة: أي سراي القبة، وهي محل اقامة الملك.

ولطخوا بعد هذا بالطين وجه الحمارة[1]

- الله..رائع، ولكن أين الإمام؟

- تريدان لقاءه؟

- وهل جئنا بالقطار وتجشمنا مشاق الأسفار إلا لنراه؟

- لندخل، سيصلي بنا، ثم يجلس لدرس العصر.

كانت الصلاة قد حانت وتجهز المؤذن للإقامة، فخرج من آخر المسجد رجل ولا كل الرجال، فيه وقار الأسود عند سيرها وفيها تواضع الشيوخ، كأنه الملائكة تحفه وتحيط به، أو هو ملك قد تجلى وكسي عظمًا ولحمًا، وكأنه خرج من عصر التابعين إلى القرن العشرين، كان يسير وهو منتصب القامة، مرفوع الهامة، محفوظ الكرامة، أهل للإمامة، إنه الإمام محمد عبده، عندما شاهده وهو يسير نحو الصلاة ارتفعت من نفسه كل المشاعر، لم يبق حزن ولا فرح، ولا أمل ولا يأس، ولا سعادة أو شقاء، بل خرج ذلك القلب من عالم المحسوسات والملموسات إلى عالم ثانٍ، إلى كون أفلاكه وأرجاؤه محمد عبده، يرمقه بإعجاب. مهلًا أيها الأقدام لا تفضحيني واصمدي. ولما انفتل الإمام من الصلاة وجلس ذاكرًا الله مستغفرًا، قام الشيخ عبد الرزاق وولده، وانتشرت الأصوات في المسجد لدرس العصر، وكان الإمام يجلس ومعه شابان، إلى أن وصلا وصافح الشيخ الإمام.

فقال الشيخ وهو يشير إلى مصطفى مفتخرًا وقد حاول مداراة فخره بالتواضع:

- وهذا ولدي مصطفى صادق، أديب أريب، حفظ القران منذ صغره، ويحفظ الكثير من السنة النبوية، كما يحفظ (نهج البلاغة) وهو

(١) الجريدة التي نشرت الصورة اسمها (الحمارة) فسجن بعدها صاحبها وحكم!

معجب بشرحكم للنهج، وسوف يصدر ديوانه قريبًا، وهو من أقرب أصدقاء حافظ إبراهيم تلميذكم النجيب.

فتقدم مصطفى نحوه وهو وجل يدق قلبه سريعًا من هيبة الإمام، فأكب على يديه مقبلاً، فكان اتصال بينه وبين الإمام، وربما أمده الإمام من ذلك العقل الذي تمده الملائكة.

فقال الإمام باسمًا:

- ما شاء الله، حفظه الله لك.

ثم أشار الشيخ إلى الشابين وقال:

- وهذان التلميذان النجيبان: محمد رشيد رضا، وعبد الرحمن البرقوقي.

فصافحهما مصطفى وهو يعرفهما من الجرائد والمجلات.

فقال الإمام:

- كيف حالكم وحال طنطا؟

- الحمد لله، ولكن الكوليرا سببت لنا متاعب ومصائب ومهالك كثيرة كما تعلم، وخسائر جسيمة كبيرة، نسأل الله السلامة.

- كارثة، ولكن الحمد لله على كل حال.

- هذا ابني مصطفى يريد أن يسمعك شعره، هو ينشر في المجلات، وسُمي (شاعر الحسن)،هكذا سماه الأدباء، وله صلة بالبارودي.

- أسمعنا يا مصطفى..

فارتعد مصطفى، وقام وهو متوجس حذر من هيبة الإمام، فاخرج كراسته بيدين مرتعشتين مرتجفتين، ففتح أول صفحاتها وقال بصوت ينم عن خجل شديد:

في وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لا زينـة المـرءِ تعليـهِ ولا المـالُ

ولا يشـرفهُ عـمٌ ولا خـالُ

وإنمـا يتسـامى للعـلا رجـلٌ

ماضي العزيمـةِ لا تثنيـه أهـوالُ

إلى أن أكمل القصيدة..

فقال الإمام مداعبًا الشاب الخجول:

- عن سيدنا عمر لأنه جدّك؟ فأبدعت فيها، اقرأ لنا من موضع ثانٍ.

- هذه قصيدة في مجد المأمون:

المجـدُ مـا بـينَ مـوروثٍ ومكتسـبِ

والقطرُ في الأرضِ لا كالقطر في السحُبِ

ومـا الفتـى مـن رأى أبـاءَه نجبـًا

ولم يكـن هـو إنْ عـدوهُ في النُّجـبِ

ومضى يقرأ في القصيدة إلى أن وصل إلى:

ودولـةُ السـيفِ لا تقـوى دعامَتُهـا

مـا لم تَكُـنْ حالفَتْهـا دولـةُ الكُتـبِ

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فرقصت أطرافه لما سمع ثناء الإمام على البيت الأخير الذي قرأه.

- رائع، أسمعني غزلًا يا شاعر الحسن.

فقال وقد زاد خجله:

أيُّ ذنبٍ جنيتُ حتى تجنى

إنني كدتُ بعدهُ أن أجِنَّا

كلُّ يومٍ أظلُّ أسالُ عنهُ

من أراهُ وليسَ يسألُ عنا

ألِفَ البخلَ لا يردُّ سلامي

وتناسى أيامَ كانَ وكنَّا

ومضى في القراءة إلى أن قال له الإمام:

- أحسنت، ما شاء الله، ولدك موهوب يا شيخ عبد الرزاق، وقد قلت لك سابقًا، والآن قد بانت وتفجرت، وسيكون لولدك هذا شأن وأي شأن؟ ليس على مستوى مصر فحسب، بل على مستوى العالم العربي أجمع.

فقال الشيخ:

- شهادتك تعدل كل شهرة يا إمام، وفقك الله يا مولانا، وأعانك على الظالمين والمستبدين.

فهم الإمام مقصده وقال:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- لأنني سئمت مما يعرفون وعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين، الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتبارها من ضمن موازين العقل البشري. والأمر الثاني إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية أو في المراسلات بين الناس.

ثم أضاف:

- وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعًا في عمى عنه، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه. وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة. جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ويد الظالم من حديد. أصبت نجاحًا في كثير مما عنيت به، وأخفقت في كثير مما وهنت عزيمتي إليه، ولكل ذلك أسباب.

- بارك الله في عمرك يا إمامنا، وحفظك وأمدك بالصحة.



قال الرافعي:

- لم أرَ أبي من قبل سعيدًا هكذا، تلك البشارات التي تلقاها من الإمام ومن ذلك الشيخ كانت تزيد سروره وهمه في آن، لأنه كان خائفًا عليَّ من المرض. لقد كان الإمام حقًّا في تلك الأيام يمتلك

سلطة لم يمتلكها الخديوي نفسه، تلك التي كانت تجذب القلوب.

فقال العريان:

- ألا تكتب كتابًا عنه؟ وأنت تحبه هذا الحب.

- لا، لأني لا أكتب في السير والتراجم كما تعلم.. ولم أكتب سيرتي أنا، مع العلم أن ماري يني طلبت مني ذلك مرارًا ونصحتني، ولكني مشغول بكتابي عن (إعجاز القران).

- عن فلسفة التجديد عنده مثلًا..

- كتب الشيخ محمد رشيد رضا في ثلاثة أجزاء عنه، فقد وافاه حقه، وكان تلميذًا بارًا بأستاذه، ولكن كتبت عنه عدة مقالات.

- والبرقوقي..ما رأيك فيما يكتبه عنه.

فضحك الرافعي وقال:

- سأفشي لك سرًّا، أغلب مقالات البرقوقي التي ينشرها في مجلته عن الإمام هي من إنشائي، وهو ينشرها باسمه!

- معقول!

- أجل، لعبد الرحمن البرقوقي فضل لن أنساه أبدًا، عندما وهبني أخته زوجة لي، فكانت أثمن هدية، ومهما فعلت فهو قليل..

- هل شاركت في مؤلفاته الأدبية؟

- مثل ماذا؟

- (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي) و(شرح ديوان حسان بن ثابت) التي صدرت للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- وهل تشك في علمه؟

- أجل، وأتوقع أنك أنت من كتبتها.

فضحك الرافعي ولم يجب!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٧)

وقـد قرأنـا نظمكـم فرأينـا

حكمـة كهلـة وشـعرًا فتيـا

حافظ إبراهيم

ونشر شاعر النيل حافظ إبراهيم ديوانه، كان حافظ يمثل للرافعي روح الشباب والتجديد في الشعر العربي، لما حظي حافظ من شهرة وسمعة كبيرتين، فقربه من الإمام محمد عبده جعل له نصيبًا كبيرًا من التعرف على الطبقة العلمية والأدبيّة في مصر، كالبارودي والمويلحي والمنفلوطي، كان لديوان حافظ وقع كبير على الشارع الأدبي المصري، وخاصة بمقدمته البديعة، وشعره الذي شغل النقاد والصحف زمنًا غير قليل، ومع كلّ ذلك كان الرافعي مراقبًا عن قرب، لما شهده حافظ من احتفال كبير، واتهم بعضهم بنسبة مقدمته البديعة لأستاذه المويلحي، فلما شاهد الرافعي هذا وكان يرى نفسه مضارعًا بل مقارعًا بل أفضل من حافظ شعرًا وفكرًا وثقافةً، وإنّ حافظًا لا يحسن الغزل، ويبرع في الاجتماعيات فحسب، فعزم وحزم الرافعي على إصدار الجزء الأول من ديوانه، وأن يتفوق على حافظ ترتيبًا وتقديمًا وشرحًا، لقد سعى ليكتب شرحًا لديوانه، وبدأ العمل دائبًا، يبدأ عمله في الشرح منذ عودته من عمله في المحكمة إلى ساعات متأخرة من الليل جاهدا على إكماله في اسرع وقت، فأضاف له الطرائف والظرائف والنوادر وشرح غريبَه، ولقد عزم أن ينسب الشرح إلى لأخيه محمد كامل!

- هل من شيء؟ أمي قالت إنك تبحث عني.

- أجل، اجلس يا محمد.

- متى يصدر الديوان؟

- قريبًا، ولهذا أرسلت لك.

- أنا؟ ولمَ؟

- قمت بشرح ديواني، وأريد أن تنسب الشرح لك، فيكون ديوان مصطفى صادق الرافعي بشرح محمد كامل الرافعي.

- ولماذا لا يكون باسمك؟

- اسمع، أنا أريد هكذا، لحاجة في نفسي.

- كما تشاء..أنا أشرحه أنا..

كان الجو شديدًا، فالشمس في كبد السماء متوهجة ملتهبة. فدق الباب، وخرج جورج إبراهيم ليفتح باب بيته، ففتحه وقال متعجبًا:

- مصطفى!

لم يكن حضوره في هذا الوقت من الظهيرة هو ما أثار عجبه، بل ملابسه، إذ كان يرتدي جلبابًا والجو ملتهب، فدخل وهو يقول:

- أريد أن أكتب مقدمة الجزء الأول من الديوان.

- يا سلام، وهل أكملت الشرح؟

- أجل، أكملت شرح الجزء الأول فقط، وأريد كتابة المقدمة هنا عندك، في غرفتكم الرطبة المتروكة.

- كما تريد، ولكن هل سلكت طريق حافظ؟ أعني هل عقدت صداقة مع أدباء مصر ومفكريها لكي يكتبوا عنك، ويروجوا لك؟

- البارودي عقدت صداقة معه، وحافظ صديقي، وأنا أزور الإمام محمد كلما زرت القاهرة فحتمًا سيكتب لنا كلمة.

- وعبد المحسن الكاظمي الذي هجوته ونقدته في تلك المقالة؟

فتبسم الرافعي ضاحكًا، وقال:

- ولكن الآن بيننا صداقة وثيقة، وهو متكبر مغرور، ذهبت إليه دون إجازة من الوظيفة، فاستصغرني وصرفني ولم يهتم بي، وكان جزاؤه أن صببت غضبي في مقال نقدي شديد اللهجة، وبعد ذاك المقال انتبه لي، وصرنا صديقين.

- أعاذ اللّه الشعراء من قلمك النقدي.

- هم من يضطرونني لذلك، فينالوا قسمًا وسهمًا من نقدي، عليهم أن لا يتعدوا على شاعر يمتلك ثقافة وعقلية الناقد.

- هل كل شاعر بإمكانه أن يكون ناقدًا؟

- لا، فالبارودي مثلًا على رغم جزالته وفصاحته لا يستطيع أن يكتب فصلًا نقديًّا يرد به ويلوذ عن نفسه من هجوم النقاد.

- سأسألك سؤالًا وأجب عن بصراحة.

- قل.

- الكاظمي الذي نقدته بذلك العنفوان في مرتبة تضعه بين شعراء مصر؟

فقال بلهجة صادقة جادة:

- رقم واحد.

فقال جورج متعجبًا:

- قبل البارودي!

- أجل، قبله.

ادخل جورج الرافعي في غرفة خالية من النضائد والوسائد والمقاعد، وكانت الأرض رطبة في تلك الغرفة، فخفف الرافعي من ثيابه وقعد على الأرض بلا فراش، وأخرج أوراقًا وفرشها وتهيأ للكتابة.

فقال جورج:

- سآتيك بوسادة، خوفًا عليك من الرطوبة.

- لا عليك يا جورج، إني أحبُّ أن أحس الرطوبة من تحتي فتصل إلى رأسي.

وخلا الرافعي لنفسه وأخذ يكتب في مقدمة الجزء الأول، وجورج يراقبه بين الفينة والأخرى، إلى أن مالت الشمس إلى المغيب. فرمى القلم وقال: الآن تمت مقدمة الجزء الأول.

وخرج إلى جورج وكان جورج قد أعد شيئًا من الطعام، فجلسا ليأكلا. فقال جورج:

- هل أكملتها؟

- أجل، وستكون - بإذن الله- أفضل من مقدمة حافظ.

فقال جورج غير منتبه لمصطفى:

- ويا سلام على حافظ ومقدمته البديعة، فعلًا تستحق الكثير، هو ذا الأدب، وهكذا ينبغي أن يكون.

فرفع مصطفى رأسه عن الطعام وقال متحديًا:

- ومقدمتي هذه ستكون أكبر قدرًا وأعظم تأثيرًا من مقدمة حافظ التي شغلتم أنفسكم بها، وسترون ما معنى الأدب وشعر العرب.

- وما بك يا مصطفى؟ وعلامَ هذا الغضب؟ لم نقل إلا الحق عن مقدمة وشعر حافظ.

فقال مصطفى غاضبًا:

- أي حقيقة؟ لولا الإمام لم ينل حافظ ربع ما ناله بسبب الإمام، ولولاه لما اشتهر أو برز، وهو لا يحسن كل فنون وضروب الشعر، فقط شعر جرائد، فهو لا يحسن الرثاء والهجاء ولا الغزل.

- لم يبقَ إلا أن تقول: إن حافظًا ليس بشاعر، وإن الإمام معجب به، وهذا يدل على ضعف الذائقة الشعرية عند الإمام، وعدم معرفته بالشعر العربي وأصنافه، مع العلم أنك تنتظر كلمة منه.

- لم أقل هذا فلا تقوّلني ما لم أقل، أنا لم أنفِ شاعرية حافظ، إنما هو مقتصر على الاجتماعيات، منذ أن سماه صديقنا محمد كرد علي وهو فرح مرح بهذا الاسم.

- وهذا خير له، أن يضع ثقله في محور واحد، في الدعوة إلى الفضائل وذم الرذائل، وهي دعوة الإمام التي بذرت فيه، وقد نفخ فيه الإمام من روحه فجاء شعرًا إصلاحيًا.

- ولكن الشعراء الحقيقيين لم يقتصروا على ضرب واحد، بل الشاعر المجد هو من ينظم في الهجاء والرثاء والمدح والذم، وكل البحور سواءً طويله وبسيطه ووافره ومنسرحه.

- ولكن هناك شعراء عظام من تميز بفن ومذهب شعري يحسنه أكثر من غيره، ويتفوق به على صحبه من معاشر الشعراء، كالغزل وبراعة ابن أبي ربيعة فيه، والهجاء وبراعة الحطيئة، ولو قلت الحطيئة لتذكرت الهجاء، ولو قلت ابن أبي ربيعة لتذكرت الغزل، وكأنَّ الشاعر يأخذ من نفسه ويضعه في ذلك الفن الذي برع فيه، ويأخذ من ذلك الفن ويمزجه في نفسه.

- ولكن لهؤلاء الشعراء براعة في فنون أخرى، فلا تجد شاعر لم يكتب غزلًا.

ثم همَّ بالرحيل، فقال جورج:

- لم تأكل شيئًا.

- أكلت من أدب حافظ إلى أن شبعت.

فضحكا، وقال جورج:

- اجلس لنشرب الشاي إذن.

×××

وصدر الجزء الأول من ديوان الرافعي عام ١٩٠٣م، وأحدث دويًّا في الحركة الأدبية المصرية، وكتب على غلافه: ديوان الرافعي (الجزء الأول)، نظمه: مصطفى صادق الرافعي. وشرحه: محمد كامل الرافعي.

فوصلته رسالة من حافظ وقد كتب فيه:

قد قرأنا نظيمكم فرأينا

حكمة كهلة وشعرًا فتيا

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وتلونا نثيركم فشهدنا

كاتبا بارع اليراع سريا

إيه يا رافعي أحسنت حتى

لا أرى محسنا بجنبك شيا

أنت والله كاتب حضري

إن عددناك شاعرًا بدويا

طوى الرافعي الكتاب وهو مبتسم مبتهج، لقد كتب حافظ هذه الأبيات ونشرها لأجله هو.

كان الرافعي في صيدلية (كوكب الشرق) بطنطا، مع الأصدقاء المعتادين: جورج إبراهيم، والصيدليان: نسيم يارد وإلياس عجان، والطبيب تودري.

فقال إلياس باسمًا ومتعجبًا:

- انظروا انظروا ماذا كتب المنفلوطي في الجريدة..هذا التقريض.. انظروا لهذا البيت:

أصبت مجد الشعر في أمة

بات عفاء مجدها الغابر

وانظروا لهذا البيت:

والشعر إن لم يكن من صادق

فيه فلا شعر ولا شاعر

- اللّه اللّه يا عم مصطفى.

ومصطفى يسمع كلام صحبه وهو مبتهج منطرب لحديثهم، ومستأنس بدعابتهم.

فقال جورج:

- وهل قرأتم تقريض عبد المحسن الكاظمي؟

فقال إلياس متعجبًا:

- الكاظمي قرضه؟

- أجل، وسيصدر في عدد الغد.

- وماذا كتب فيه؟

- سل مصطفى...

فقال مصطفى مداريًا ابتسامته:

- غدًا ستقرؤونه.

فألحوا عليه وهو فرح بإلحاحهم هذا. فقال:

- هي قصيدة طويلة، ولكن سأتلو عليكم جزءًا منها.

فقال أحدهم:

- اللّه أكبر! قصيدة طويلة ومن الكاظمي نفسه؟

(فمصطفى صادق) أبر فتى

حدث عن فضله ولا كذب

(الرافعي) الذي به ارتقت

أرهاط هذا القريض والشعب

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وباقي القصيدة تقرؤونها غدًا منشورة.

فصفقوا له. وقال نسيم يارد:

والبارودي قال:

بارت (زهيرا) في المقال وطاولت

(كعبا) وفاقت في النسيب جميلا

بلغت مدى الاطراب حتى إنها

لتكاد تحدث في الجمال مميلا

فقال جورج خارجًا من هزل الأصدقاء إلى الجد قائلًا:

- العلامة إبراهيم اليازجي، لمَ لم يكتب عنه شيئًا؟ تقريضًا أو نقدًا أو كلمة.

فكان وقع كلمته أليمًا وأثارت غمًا في نفسه، فقال:

- أهديته نسخة من الديوان.

- كل ما كتبه النقاد والأدباء واحتفال الجرائد والمجلات لا يغني شيئًا دون كلمة من اليازجي، فهو أديب العصر وبليغه.

- أنا حريص على معرفة رأيه فيَّ وفي شعري، ولكن الغريب أنه رغم احتفالات الصحف والأدباء للديوان إلا أنه لم يبدِ رأيًا.

كانت مكتبة كبيرة عظيمة، قد رصت الكتب رصًا، لا يكاد يرى لون الحائط، فكأنها غرفة في مكتبة، أو غرفة بنيت من الكتب، فجلس جورج إبراهيم جلسة التلميذ المؤدب بين يدي شيخه العلامة إبراهيم اليازجي، إمام اللغة والنقد، كان جورج يجلس وجنبه منضدة عليها كتب الشيخ التي

يقرأ بها الساعة، فلمح كتاب (البيان والتبيين) وجزء من (لسان العرب) ومجلد من (خزانة الأدب)، وصار جورج يلف رأسه ويقرأ عناوين الكتب التي أحاطت به من كل جانب.

فقال الشيخ:

- أعجبتك المكتبة؟

- ومن ذا الذي لا تعجبه هذه المكتبة البديعة؟

- مع العلم أني أراها مكتبة متواضعة، ولكن أستعير كثيرًا.

- بارك الله لنا في علمك وعمرك.

ثم تجرأ جورج وقال بصوت ضعيف خفيض، وكأن حنجرته في صراع بين (قل..اسكت..قل..اسكت) فانتصرت (قل)، وقال متشجعًا:

- صدر ديوان صديقي مصطفى صادق الرافعي كما تعلم، وكتب عن الديوان وقُرظَ ونُقدَ، ولم نرَ كلمتك يا سيدي، فاستغربت وتعجبت؛ كيف لإمام النقد أن لا يكتب عن الديوان؟ خاصة وأن الشاعر متلهف مترقب لكلمتكم.

فقال بهدوء وفتور:

- أنت على ثقة أن هذه المقدمة من إنشاء الرافعي صاحبك؟

تشجع جورج وقال متحمسًا:

- هو كتبها أمام عيني فلا أشك في ذلك، فلقد كتبها في بيتي، في غرفة رطبة خالية حتى من الوسائد، ولم يكن معه كتاب أو ملزمة إلا حزمة أوراق وقلم، فكانت هذه المقدمة.

- وأنا ما أبطأت في الكتابة عن الديوان إلا من الشك في قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة، فأنا منذ أسبوعين أبحث في مظانّها من كتب العربية.

فتهلل وجه جورج وقال بصوت فرح مبتهج:

- إنه ليس بشيخ، إنه فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين.

- ما شاء الله ما شاء الله، سيكون لي تقريض بإذن الله.

وخرج جورج يتطّير فرحًا، وانطلق مسرعًا إلى المحكمة ليبشر مصطفى، ففرح الآخر وصار يحدث نفسه ويقول: سبحانك يا من أنعم عليَّ، اليازجي والبارودي والكاظمي، إني محظوظ..لا لا، ليس حظًا بل موهبة.

ومضى محبورًا وأحاديث نفسه تتلاطم فرحًا.

ونشر اليازجي:

(الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا..وبعد:

فقد قرأت الجزء الأول من ديوان الرافعي، والذي صدر مؤخرًا وقد أهداه إليَّ، وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر، ذهب فيها مذهبًا عزيزًا في البلاغة، وتبسط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته، كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه...).

ثم انتقد الأستاذ اليازجي بعض ألفاظ في الديوان، وعقب عليها بقوله:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(... على أنَّ هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو منه، لأن المرآة النقية لا تستر أدنى غبار، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها أقل العيوب؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ظنًا بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها في المنتظر، فإنَّ الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن، سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر، وممن سيحلون جيّد البلاغة بقلائد النظم والنثر).

وضع الرافعي المجلة وقال:

- أسمعت يا جورج ماذا كتب اليازجي!

- أجل، فأنت تستحق مثل هذا وأكثر، فنظمك رائع، والغريب أن اليازجي أعجب بنثرك أكثر من شعرك، ورأى عبقرية عظيمة في مقدمتك للديوان.

- حقًّا! مع العلم إني أجد نفسي في الاثنين.

- وهو وجدك كاتبًا كبيرًا، فخيل له أن هذه المقدمة لا تصدر عن رجل يعيش في القرن العشرين.

لقد فرح الشيخ عبد الرزاق بما نال ولده مصطفى من مدح وثناء، وقال لزوجته وهو على سريره يريد النوم:

- أنا فخور به ولما آل إليه ولدنا، هو كما تنبأ الأستاذ الإمام، سيكون ولدنا أديبًا عظيمًا ويرفع رأسنا، قد يبلغ ما بلغه الشيخ عبد القادر الرافعي.

- كل هذا لمصطفى؟

- أجل وأكثر، أما سمعت ما قاله اليازجي؟ قال أنه سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر، وممن سيحلون جيّد البلاغة بقلائد النظم والنثر. قد بلغ ولدي ما لم أبلغه أنا في عمري كله.

- هذا بركة دعائي، وربنا عوضه خيرًا، لقد دعوت له كثيرًا عند سيدنا الحسين، ومنذ كان صغيرًا وأنا آخذه إلى سيدنا البدوي.

- سبحانك ربي تأخذ وتهب، جلت حكمتك.

- ولكن مرضه يحزنني جدًّا.

- آه لو تعلمين ما بي من هموم لأجله، ولكن فوضت أمره إلى اللّٰه، هو من يتكفل به ويرعاه.

- هل تتغير الأقدار بالدعاء؟

- ولماذا تسألين؟

- الطبيب قال أن علة الصمم ستصيبه عند الكبر، إذا أثبت الطبُّ مرضه، فهو مكتوب عليه، ولكن قل لي، إذا كان قدرًا عليه أن يصاب بتلك العلة، فهل إذا دعوت اللّٰه أن يغير قدره فهل سيتغير؟

- اللّٰه أرحم به منك، فليحفظه اللّٰه..نامي..

كتب إلى الرافعي الإمامُ الشيخ محمد عبده - يرحمه اللّٰه -: «**ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي، زاده اللّٰه أدبًا..**

للّٰه ما أثمر أدبك، وللّٰه ما ضَمِن لي قلبُكَ، لا أقارضك ثناء بثناء؛ فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناءِ، ولكني أَعُدك من خُلّص الأولياء،

وأُقدم صفك على صف الأقرباء.. وأسأل اللهَ أن يجعل للحق من لسانك سيفًا يمحق الباطل، وأن يُقيمَك في الأواخر مقامَ حَسّانٍ في الأوائل، والسلام.

٥ شوال ١٣٢١هـ

محمد عبده»

طوى الرافعي كتاب الإمام محمد، وقد فقد نفسه من الفرح. محمد عبده يكتب لي هذا؟ هل أنا في أحلام اليقظة؟ هل خرجت إلى عالم الأحلام الوسيع؟ هل خرجت من مصر وبلاد العرب إلى جنة الأدب الخالدة؟

ومرت الأيام سريعًا، وأصدر الجزء الثاني من الديوان في عام ١٩٠٤م، على منوال الجزء الأول.

وتوالت الأحداث السياسة والاجتماعية سريعًا، وكانت خطط الاستعمار قد تأسّدت على الشرق وكشرت عن أنيابها العدائية، خاصة تجاه الدولة العثمانية ومحاولة إزالتها، مع العلم أن مصر منعزلة عن الخلافة، إلا أنهم كانوا يحسبونها دولتهم أيضًا، وأنها ستعود الخلافة يوما لتحكم كل العالم الإسلامي، كانت نهاية الدولة العثمانية قد لاحت في الأفق والرافعي كان مادحًا ومعجبًا بحضرة السلطان الأعظم عبد الحميد الثاني رحمه الله.

عصير الكتب للنشر والتوزيع



قال الرافعي:

- كان نجاحًا باهرًا، لم أكن أصدق أني سأبلغ تلك المرتبة في تلك الأيام وبهذه السرعة، حتى أني سعيت للشعراء وصادقتهم، ومنهم من لم يرحب بي كالكاظمي ولكنه كتب عن الديوان قصيدة طويلة، وأصبحنا صديقين، حتى أنه عندما سافر إلى الأندلس عام ١٩٠٥م كتب لي: ثق أني أسافر مطمئنًا وأنت بقيتي في مصر.

فقال العريان:

- قالها لك قبل أن تنشر مقال (شعراء العصر) أم بعدها؟

- بعدها. لقد كنت شاعرًا مكثرًا، ولكن هذا الإكثار من الشعر لازمني إلى أن تفرغت لكتابة تاريخ آداب العرب. ولم ينقطع عني ولكن لم يكن غزيرًا كأول عهدي به، وعندما عرفتها منذ اثني عشر عامًا عاد الشعر غزيرًا، يتدفق من الفؤاد تدفقًا، ولازمني عندما كنت (شاعر الملك)، ولكن عاد الفتور في كتابة الشعر منذ بضع سنين.

- حسبك أن نشيدك تنشده الأمة المصرية كلها.



(٨)

والقومُ قد أصبحوا يتنافسون في أسماء الشعراء كما يتنافسون في ألقاب الأمراء، وقد استويا في الزور، فلا أُكثر أولئك شاعر ولا أُكثر هؤلاء أمير.

كان الرافعي جالسًا مع صحبه في صيدلية (كوكب الشرق). فقال جورج:

- كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام كتاب ماتع حقًا، ولو أنشئ على منواله لشعراء عصرنا هذا لكان كتابًا رائعًا. ما رأيك يا مصطفى؟

- فكرة رائعة حقا، وأنا أدورها في رأسي منذ زمن.

- أجل، يجب أن يُكتب.

وخرج مصطفى عائدًا إلى بيته وفي رأسه أفكار قد تكاملت صورتها، فأخذ يمشي في برد يناير الذي كان يلهمه إلهامًا كبيرًا، فخطرت له فكرة أن يكتب مقالاً عن طبقات الشعراء، وقد تدفقت الأفكار واندفعت كالسيل العرم..

وقد افتتح المقال كاتبًا:

(قرأت في بعض أعداد (الثريا) كلمة عن (الأدب قديمًا وحديثًا) فقلت: كلمة مألوفة. ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء، كان رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما خدش بين حجرين؛

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقلت: إني أنظم الشعر فأسرّ، وأقرأ عنه فأسرّ، فما لي لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون في أسماء الشعراء كما يتنافسون في ألقاب الأمراء، وقد استويا في الزور، فلا أكثر اولئك شاعر ولا أكثر هؤلاء أمير.

ثم رأيت بعد أن عزم الله لي كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع، وإن كنت أعلم أن أكثر من يقرؤونه كذلك سيخرجون من خاتمته كما لو كانوا أميين لم يقرأوا فاتحته، فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت في أحرف الأسماء. فإن قيل: كتاب لفلان... قلنا: أين يباع، وإن كان من سقط المتاع. على أن اسمي قد لا يكون في غير بطاقتي وكتبي إلى أصحابي القليلين، وفي سجلّ بعض الجرائد والمجلات، فليظنني القارئ ما ضرب على رأسه الظن

وسأذكر في هذه الأسطر كل ما عرفته أو أتصل بي اسمه من الشعراء، وأقطع عليه رأيي، فإما وسعه فكمل به، وإما أظهره كما هو في نفسه، لا كما هو عند نفسه؛ ولذلك فقد ضممتهم إلى ثلاث طبقات، وجاريت في تسمية بعضهم بالشعراء عادتنا المألوفة)

ثم قسم الشعراء إلى ثلاثة طبقات: جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب:

الكاظمي، والبارودي، وحافظ، والرافعي....

وفي الطبقة الثانية على الترتيب:

صبري، وشوقي، ومطران، وداود عمون، والبكري، ونقولا رزق الله، وأمين الحداد، ومحمود واصف، وشكيب أرسلان، ومحمد هلال إبراهيم، ثم.... حفني ناصف!

وفي الطبقة الثالثة:

الكاشف، والمنفلوطي، ومحرم، وإمام العبد، والعزبي، ونسيم. ثم ألحق بهؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق، هما: السيد إبراهيم، ومحمد النجفي.

وذكر كل شاعر مستشهدًا بشعره..

فكتب عن نفسه:

(٤- مصطفى صادق الرافعي: لو كان هذا الشاعر كما أسمع عنه، فإني أكون قد ظلمته إذ لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأولى)؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره، ولذلك فإني لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره، سواء كان فتى أو كهلًا؛ وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت، وذكر في مقدمة شرحه أنه نظمه في عامين، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء؛ ولم ألبث أن رأيت منذ أشهر في بعض أعداد مجلة (الجامعة) تقريظًا مسهبًا جدًّا للجزء الثاني من ديوان هذا الشاعر؛ فأكبرت ذلك، ولا شك أنه ينظم اليوم في الجزء الثالث قياسًا على ما تقدم..

(ومما امتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل، وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم؛ وله مزية أخرى، وهي غوصه على المعاني في الأغراض التي لم تطرق، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر، وديوانه معروف، وشعره مشهور، ويعجبني ما نشرت له الثريا في عدد مضى.... الخ)

وختم المقال بقوله:

(... وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال، ولكني أطلب إليهم أن يخفضوا عن أنفسهم؛ فلا أنا من معية الأمير، ولا من حاشية السفير، وما كتبت إلا رأيي، فليبق كلٌّ في رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء)

وبعد أيام من العمل المجهد أكمل الرافعي المقالة، ثم رمى القلم وابتسم ابتسامة القائد المقبل على معركة متيقن من نصره وظفره وانكسار خصمه. كان الرافعي في المحكمة واضعًا المقال في ظرف يقلبه، ويفكر.. ثم أخذ ورقة وكتب..

كان صاحب (الثريا) منهكًا في عمله، فدخل السكرتير عليه وهو يحمل ظرفًا كبيرًا، فقال: وردنا هذا البريد.

ففتحه فوجد مقال (شعراء العصر) وورقة كتب فيها:

(... دونك مقالةً بكرًا لم يُنسج على منوالها بعدُ في العربية، حَرِيّة بأن تصدّر بها مجلتك الغراء؛ ولا يروعنّك شدة لهجتها فكلها حقائق ثابتة، وإن آلمت البعض فإن الحق أكبر من الجميع؛ وإني لبالمرصاد لكل من ينبري للرد عليها، وأنا كفء للجميع؛ وما أخال أحدًا يستطيع أن ينقض حرفًا مما كتبته، وإن هم لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقرارًا بأني أنزلت كل شاعر في المنزلة التي يستحقها.

ولا يعنيك معرفة اسمي، فأنا أبن جَلا وطَلاّع الثنايا؛ فانظر إلى ما قيل وليس لمن قال، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتي فانشرها وإلا فاضرب بها عرض الحائط.

وإني أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود في المعني، سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستروا، فإن الموضوع طليّ شهيّ، وفي إطلاقك الحرية للكتّاب ما ينشط بهم لحرية الجولان في هذا المضمار)

وبعد أن تصفح المقالة دخل في حيرة، فلهجة المقال شديدة عنيفة، فقال لنفسه: ولمَ الحيرة؟ إذا كان المقال مثيرًا فسنكون نحن حلبة معركة أدبيّة مثيرة..

ونشرتها الثريا في عدد يناير من عام ١٩٠٥م، وقد كتب صاحب (الثريا):

(ألقى إلينا مكتب بريد الزيتون يومًا ملفًا ضخمًا واردًا من مصر، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر. أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة (..)..

وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب وبتنا نقدم رجلًا ونؤخر أخرى في نشرها، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها، إن لم يكن لشيء فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار لفحول الشعراء، وهم نخبة شعراء مصر في هذا العصر؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد، غير متحملين تبعتها؛ وللكتاب الأدباء الحرية في الرد عليها، وأبواب الثريا ترحب بكل ما يردها من هذا القبيل، سواء من المشتركين أو غيرهم

ومـن لم يـذد عـن حوضـه بسـلاحه

يُهدّم، ومن لا يَظلم الناسَ يُظلَم

وانفجر المقال كالبركان وسط الساحة الأدبية، وسمع الأدباء وقرأوه، وقاموا وقعدوا لهذه الوقعة العظيمة، حتى سمع به الخديوي نفسه، وصار حديث الأدباء وكبار الكُتَّاب كجورجي زيدان وسليم البستاني وإبراهيم اليازجي والإمام محمد عبده، وجعلوا يرسلون إلى صاحب (الثريا) دسيسًا بعد دسيس ليعرفوا: من هو كاتب المقال؟ ولكن أنى لهم وهو صاحب (الثريا) نفسه لا يعلم؟

ولكن موضوع المقال لم يخفَ على أصحاب مصطفى وخاصته، فهم عارفون أسلوب مصطفى، حتى أنَّ جورج إبراهيم غمزه قائلًا:

- حتى نحن لم تقل لنا عن موضوع المقال؟!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ولكنه لم يعترف ولم ينكر أيضًا.

وكان الرافعي في القاهرة فلقي حافظًا، فلما رآه حافظ قال:

- وربِّ الكعبة أنت كاتب المقال، وذمة الإسلام أنت صاحبه.

فدخلا إلى (مقهى الشيشة) وحافظ يقول:

- إن الذي يغيظني أن يأتي كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رؤسنا نحن المصريين!

فقال الرافعي ضاحكًا جادًّا:

- ولعل هذا قد غاظك بقدر ما سرك ألا يكون الذي على رأسك هو شوقي.

- يا مصطفى نحن أحق بالطبقة الأولى من الكاظمي الذي أعطيته أنت هذه الطبقة.

- ومن قال لك أنا؟

- ومن غيرك؟ اعترف أليس أنت؟

فقال الرافعي مراوغًا:

- ما أخبارك؟

- أنت والله أنت.

وغضب السيد الشاعر توفيق البكري غضبًا شديدًا، وغمَّ غمًّا كبيرًا، لتلك المقالة وعلى منزلته المتأخرة بين الشعراء، ولما وصل إلى مسمعه أن الرافعي هو كاتب المقال استعان بالأديب الشاعر (مصطفى لطفي المنفلوطي) ليكتب ردًّا، وكان المنفلوطي يريد أن يثأر لنفسه أيضًا.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كان لمقال الرافعي (شعراء العصر) وقع ذو شأن، ففيه بانت شخصية (الرافعي الناقد)، وأصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأي الرافعي فيه. وذات يوم وجد حافظًا في المقهى مع جماعة لا يعرفهم الرافعي، فلما اطمأن به المجلس، قال حافظ: ما رأيك بشعر اليازجي؟

فأجابه..ثم انشرحت النفوس للأدب وحديثه والنقد ومذاهبه، وصار الرافعي يفصل في ذلك المجلس كل شاعر وما به من صلة، ويعرض له من خلال ما قرأ عنه.

فقال حافظ:

- ما رأيك في داوود عمون؟

- هذا لم أقرأ له إلا قليلا لا يسوغ الحكم على شعره.

- فماذا قرأت له؟

- ردّه على قصيدتك: شجتنا مطالع أقمارها

- فما رأيك بقصيدته هذه؟

- هي من الشعر الوسط الذي لا يعلو ولا ينزل.

فقام رجل من الحضور وقال مؤيدًا:

- أنصفت واللّه!

فقال حافظ:

- أقدم لك (داوود بك عمون)!

وفي يوم من الأيام جاء إلى محكمة طنطا مدير جديد شديد، وكان عابسًا متشنجًا منذ يومه الأول، يتطاير الشرر من عينيه، ويتبع الخطأ

تتبعا ويقتفي أثره، وصعد موظفو المحكة يباركون له في يومه الأول وبهذا المنصب الجديد

. فقال متكلفًا وكأنَّ الكلام مال يخرج من جيب بخيل:

- هل من موظف لم يحضر؟

فنظر كل واحد إلى الذي جنبه متفحصين الحضور، وإذا بمصطفى هو الوحيد غير الموجود. فقال أحدهم وكان مولعًا بالنميمة والدسيسة للرافعي وخاصة لما وصل إليه الرافعي من مجد أدبي رفيع، وكان يحسب نفسه خصم الرافعي ونده:

- نعم، كاتب في محكمتنا اسمه (مصطفى صادق عبد الرزاق الرافعي)، هذا الشاعر الذي صدر ديوانه مؤخرًا، وأبوه القاضي ألا تعرفه؟

فزاد المدير غضبًا على غضب، وقال:

- لا يهمني من هو، أريده هنا فورًا!

فقال صاحب الدسيسة والنميمة:

- هو متهاون في الدوام، قد يأتي وقد لا يأتي، وقد يذهب من هنا في منتصف الدوام مثل اليوم، ويزعم أنه لم يخلق لهذا، وأنه خلق للأدب والفن.

فثارت ثائرته، وطلب استجوابه عن هذه الاستهانة بالتحقيق.

وجاء الرافعي وأخبره فلم يهتم، بل عاد كعادته ومضى يتكلم عن الأدب والفن وأحاديثه التي لا تنقضي. ورفع المدير كتابًا إلى الوزارة يشرح فيه تهاون الرافعي في عمله، وأنه لا يحضر في المواعيد المضروبة، وطلب أن يفصل من الوظيفة!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وأرسلت الوزارة مفتشًا ليحقق مع الموظف، وكان المفتش هو الشاعر الظريف (حفني ناصف)، حفني ناصف رجل في بداية الخمسين ولكنه صاحب فكاهة ونكتة، كان في القطار متوجهًا إلى طنطا، فتذكر كلمة الرافعي القاسية عنه في مقاله (شعراء العصر)..ما زال يحفظ تلك الكلمة عن ظهر قلب، بل يحفظ القطعة التي اقتطعها من المجلة وفيها الكلمة ويضعها في محفظته، فأخرج القطعة وأعاد قراءتها:

(ولا شك أنه بقي قوم آخرون، بعضهم تعطلت قريحته، وبعضهم لم أقف له على شعر أو نسيت ما وقفت له عليه، ومنهم كثير من السوريين ويا ليت بعض أدباء سوريا يكتب لنا عمن هناك كما كتبنا عمن هنا، وإذا كانت لهذه الطبقة (الطبقة الثانية) آخر فهو حفني ناصف!)

طوى حفني ناصف القطعة وقد عادت إليه الكآبة التي أصابته عندما قرأ المقال لأول مرة منذ شهور، وكم تألم لهذا الحكم الجائر من فتىً علم فيما بعد أنه لم يتجاوز الرابعة والعشرين، والآن هو في طريقه إليه ليحاسبه ويفتش عنه لا في الأدب بل في الوظيفة. فقال لنفسه: هو شخص جيّد وأديب رائع، ولكنك يا مصطفى تمتلك قلمًا نقديًا قاسيًا، نقدتني بعنف وأنا بعمر أبيك، وأنا مدرك أن لك مستقبلًا رائعًا، ولكن كف عن هذا النقد الشديد..

وصل إلى المحكمة، وأتى الأديب الشاعر ليحقق مع الأديب الشاعر، فقال وهو يصافح الرافعي:

- أنا حفني ناصف؛ مفتش الوزارة.

وسرعان ما تبادر إلى ذهنه نقده له، ووضعه في آخر الطبقة الثانية مع تهكم لاذع. فقال باسمًا:

- وأنا مصطفى صادق الرافعي.

ثم أخذ يناقش في العمل ويبحث في الأوراق على مكتب الرافعي. وقال الرافعي بعد أن أتم تفتيشه:

- قل لهم في الوزارة إن كانت وظيفتي هنا للعمل فليؤاخذوني بالتقصير والخطأ فيما يسند إلي من عمل، وان كانت الوظيفة تعال في الساعة الثامنة واجلس على الكرسي كأنك مشدود إليه بحبل حتى يحين موعد الانصراف فلا علي إن تمردت على هذا التقيد.. قل لهم في الوزارة إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هاتين الإصبعين من ساعات النهار!

واستمع حفني لحجته، ثم مضيا في حديث عام، فقال حفني معرضًا بمقال مصطفى الذي ما زال يحز في نفسه:

- والنقد في مصر يجب أن يكون منصفًا، لا أن يكتبوا هراءً ينم عن ضعف الذائقة الشعرية عند النقاد.

فصار الرافعي يسأل نفسه: أما استطاع أن يكتم ما في نفسه من ألم ذلك النقد؟ ولكن من حقه أن يتألم فما أصابه ليس بقليل.

فقال الرافعي:

- ولكن الناقد يرى ما لم يَرَه الشاعر، ألا ترى أن البارودي وحافظ مثلًا لا يستطيعان أن يكتبا فصلًا نقديًا ولو في الدفاع عن نفسيهما؟ فليس ما يراه الشاعر هو الصواب، بل للناقد نفسية ثانية غير نفسية الشاعر المتفنن، فالناقد يجب أن يكون شاعرًا ماسكًا بناصية الشعر وفنونه، وأن يكون كاتبًا مجيدًا، إضافة إلى إحاطة بتاريخ الأدب العربي، وأي إحاطة؟ إحاطة بتراث أربعة عشر قرنًا، فهل كل من ملك موهبة الشعر قادر على النقد؟

استأنس حفني ناصف بالرافعي، جدًّا، وعلم ما يحويه من علم وبيان وقوة حجج، إضافة إلى إلى نفسية الشاعر المرهف.

وعاد حفني ناصف وكتب تقريرًا، ومما جاء فيه:

(إنَّ الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود، إنَّ للرافعي حقًّا على الأمة أن يعيش في أمن ودعة وحرية، إن فيه قناعة ورضى، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه، دعوه يعش كما يشتهي أن يعيش، واتركوه يعمل ويتفنن ويبدع لهذه الأمة في آدابها ما شاء أن يبدع، وإلا فاكفلوا له العيش الرخي في غير هذا المكان.

حفني ناصف)

ورفع التقرير إلى الوزارة وأغلق ملف القضية، وصارت بعد هذه الحادثة قدسية للرافعي في وظيفته، يغدو ويروح كيف يشاء ومتى يشاء، وكم غاب وانقطع عنها؟ لقد كان مؤمنا إيمانًا راسخًا أنه لم يخلق ليكون موظفًا في محكمة طلخا أو طنطا، إنما خلق ليكون أديب أمة كاملة يدافع عنها وعن مفاهيمها..وسرعان ما توطدت علاقة الرافعي بحفني ناصف فيما بعد.. وربما غير نظرته في أن حفني ناصف آخر شعراء الطبقة الثانية!

ومما أحزنه في ذلك العام وقلب فرحه بذاك المقال إلى هم وكدر هو وفاة الإمام محمد عبده رحمه الله.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال الرافعي:

- مقال (شعراء العصر) كان لحظة فارقة في تاريخي الأدبي، صار لي أصدقاء أوفياء، كحفني ناصف (رحمه اللّه)، حيث نقلت إلى محكمة في مدينته، فكان خير صاحب وخير رفيق.

قال العريان:

- وهل صار لك خصوم بعد هذا المقال؟

- طبعًا، وأكبرهم هو أمير الشعراء أحمد شوقي، فقد كان يضيق صدره بالنقد، فلم يحدثني أو يجمعني به لقاء بعد ذاك المقال، ولكني إن ظلمته في مقال (شعراء العصر) عام ١٩٠٥م، فقد أنصفت في مقالتي التي كتبتها بعد وفاته، ولا أحسب كاتبًا أو باحثًا قدم دراسة عنه كما كتبت، (ثم ساخرًا) فليكتب العقاد الذي نقد فقرة واحدة من مقالتي، فهل يقدر؟ (ثم أكمل) ومن الخصوم هو مصطفى لطفي المنفلوطي (رحمه اللّه) فقد كان قاسيا عليَّ، وأحسبه ظل كذلك إلى أن مات.



(٩)

ويعانق القلبُ القلبَ تحت ظلٍّ ميثاق غليظ.

- ألم يأن لك يا ولدي أن تتزوج؟

كانت كلمة الشيخ عبد الرزاق لولده مصطفى عالية ليسمعه، فقد بدأ سمعه يقل شيئًا فشيئًا. وكانت أم مصطفى تجلس على مقربة منهما، فلما سمعت قالت:

- يا صلاة النبي، والله أريد أن أفرح به منذ زمن.

فقال الأب وهو معرض عنها:

- اتركينا يا امرأة لنسمع رأيه وبعدها افرحي كما تريدين.

- وهل له حق الرفض؟ أكيد هو فرح بهذا الخبر، أليس كذلك يا ولدي؟

فقال مصطفى بعد طول الأناة:

- لم أجد زوجًا مناسبًا لي إلى الآن.

فقالت الأم معترضة منكرة عليه:

- لماذا؟ وهل أنت من سيختارها؟ أنا أريد أن أختار لك أجمل فتاة في طنطا وأبهاها، وسوف أزوجك وأجعل نساء طنطا يغارن من جمال فاتنتك الحسناء الملحاء الهيفاء.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقال الأب:

- يا امرأة انتظري حتى نسمع رأيه.

فقال مصطفى وظاهر كلامه اللامبالاة وباطنه السرور:

- أنا غير متعجل على الفتاة التي ستكون شريكة حياتي، يجب أختارها بتمهل وروِيّة وطبقا لفكري وفلسفتي الخاصة.

فقالت الأم وهي ساخطة:

- أي فلس..ف..ت ولا أعلم ما تسميها؟ سوف أختار لك امرأة لم ترَ طنطا مثلها.

فقال الأب بوقاره المعهود:

- هل هناك فتاة ترغب بها وتحبها وتريد أن تتزوجها؟

الحب؟ أخيرًا نطق بها، الكلمة التي لم أنبس بها أمامه قبل بضع سنين لأني كنت أعلم أنه غير مؤمن به، الآن قالها، يا ليته قالها قبل أن ألقاها في ربوة لبنان، عند ذلك الجسر، عصفورة..هل تزوجت ابن عمها في تلك الليلة؟ وهل أنجبت؟ وهل قرأت ديواني وتتبعت أخباري في الصحف؟

- يا أبي الفتاة التي في بالي لها صفات خاصة، وهذه الصفات لم أجدها في سائر نساء طنطا بل القاهرة نفسها..

فقاطعه الأب قائلًا:

- ومصر بل العالم العربي كله، ما هذا الهراء يا ولدي؟ كيف لا تعجبك نساء البلد كلهن؟ هل تريد زوجًا من الحور العين؟ أم من باريس؟ وهذا عرف جديد يتزوجون بباريسية، أي فرنجية، فهل تريد زوجًا فرنجية تتفرجن علينا؟ هه؟

فقال محاولًا إقناع أبيه:

- يا أبت الفتاة التي أتزوجها لها مواصفات صغتها في شعري وموجودة في ديواني.

فقال الأب في يأس بادٍ:

- لك ما تشاء ولن أجبرك على شيء لا ترغب فيه، سر وابحث وفتش عن زوج ملائمة لك، واني منتظر.

فقالت الأم بحسرة وحزن:

- يا حسرة! هل أنتظر ولدي وقتًا طويلًا وقد أموت قبل أن أرى عرسه؟ كيف هذا، هه؟

- يا امرأة هذا ولدك وهو حر في تصرفاته وأفعاله، وله عقل رشيد.

- ومنذ متى ونحن نأخذ برأيهم؟ ونجعله ينتقي حسب مزاجه؟

فقال الأب صارفًا مصطفى:

- اذهب الآن، وافعل ما تشاء.

فخرج مصطفى من حجرة أبيه فرحًا، ولكنه سمع أمه تقول

- لأبيه: ما هذا؟ هل تريده أن يأتي بفتاة..

وتشوش السمع عليه، ولكنه أدرك أنَّ هناك خلافًا كبيرًا بينهما حول زواجه.

وجاء أخوه الأصغر، فقال له مصطفى:

- هل تسمعهما؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- أجل، إن صوتهما عال ويصل إلى آخر البيت.

فكانت وخزة في نفسه، إذ ذكره بعلته التي زادت واتسعت.

فقال له:

- ماذا يقولان؟

- إن أمك تريد هي من يختار زوجك، وأبوك يجادلها بالتي هي أحسن.

ودخل المكتبة وهو يفكر بعصفورة التي سرقت قلبه وسحرت لبه منذ بضع سنين، وصار قول لنفسه: يا ليتها كانت هنا...يا ليت كان هذا البيت مقامها ومستقرها.

ثم سرح في أحلامه وتخيل أن عصفورة تسير في هذه الحجرة تروح وتغدو، وتخدمه من غير كلل أو ملل وهي فوق ذلك راضية مطيعة، ويعيشان تحت سقف واحد من غير هموم أو غموم، وها هي قادمة نحوه وهو جالس يكتب وتحمل بعض الكتب له، فتتعثر وتكاد تقع؛ فيقوم كفارس شجاع ويلتقطها في أحضانه، ويسقط وهي بين يديه سالمة كدرة نفيسة، فيهم بترجمة أشواقه ولهيبها الحارق الذي بثه في ديوانه، الآن سيترجمها حقيقة على شفتيها الرقيقتين، التي لا تنطق إلا حلوًا مسكرًا، ولم يتم قبلته حتى قام فزعًا إثر سقوط كتاب (البيان والتبيين) عليه من إحدى رفوف المكتبة، فلا عصفورة ولا قبلة ولكن أحلام قطعها شيخنا الجاحظ!

كان مصطفى في وظيفته يتحيَّن الخروج للذهاب إلى جورج إبراهيم، ولما ذهب إليه وجد عنده صديقهما (عبد الرحمن البرقوقي)، الصديق الذي تعرف عليه في مجلس الإمام محمد عبده فهو من أحب تلاميذه وخيرتهم، ومضيا يتحدثان في مواضع شتى.

الرافعي يحب عبد الرحمن كثيرًا، فعبد الرحمن كان مولعًا بالأدب شغوفًا به، ووجد ضالته عند مصطفى، وكان ذلك من أسرار تقاربهما، وعبد الرحمن فتى مترف لا يعيش كما يعيش الأزهريون من ضنك وقلة وشظف، يأتي أحدهم ويقتر الجنيه على نفسه تقتيرًا ويحاول أن ينسخ منه نسخًا، إلى أن يظفر بالعالمية فيأمن بعدها على وظيفة صغيرة أو كبيرة، قاضٍ أو مدرس في إحدى عواميد الأزهر.

أما عبد الرحمن فكان مترفًا بسبب غنى أبيه. لم يخطر لمصطفى أن يسأل عبد الرحمن عن أهله وإخوته.

وبينما مصطفى جالس يفكر في فتاته التي أخبر والديه عنها وأنه باحث عنها وسيجدها لا محالة، خطرت في باله صورة عبد الرحمن!

أنا أريد فتاة تشبه عبد الرحمن.. أخته..أجل ستكون أخت عبد الرحمن جميلة ولها شبه منه وظريفة مثله، ولكن هل له أخت أصلاً؟ لم يخطر لي طول صحبتنا أن أسأله عن أفراد أسرته وعن عددهم.. وهذا عيب..أي وربي.

وبات ليلته وهو يبيت أمرًا..

ولما التقى بعبد الرحمن وخلا به ومضيا يتكلمان وتطرقا إلى الزواج، فقال مصطفى:

- إن لزوجي المستقبلية صفات لم تدركها امرأة عرفتها.

فقال عبد الرحمن مستغربًا:

- حقًا؟

وفجأة خطرت عصفورة على باله..لمَ تبحث عن امرأة؟ وصفات لم تدركها امرأة، أنسيت عصفورة؟ لا لا، لم أنسها ولكنها ذهبت، ولن أراها ثانية أبدًا، قد تشير الآن إلى ديواني، وتقول مبتسمة: كان حبيبي.

- أجل.

- وما هي الصفات يا صاحبي الفيلسوف؟ أتحفنا بفتاة شاعر الحسن.

فقال مصطفى بتمهل:

- امرأة تذهب بي كل مذهب، وتنسيني كل جميلة من النساء، ويجب أن تكون مرضية عندي ولها حظوة، جميلة الطبع، وكأني لم أرَ في القاهرة وطنطا امرأة بتلك التصاوير التي صورتها في نفسي، فتعجبني وتصلح لقلبي.

- ألم تعثر عليها في لبنان؟

يأبى خيالك إلا أن يظل ماثلًا أمامي، نسيتك أو كدت أن أنسى لكن حتى هؤلاء يذكروني بك، ما العمل؟

- بلى، وقلت فيها:

منها يريك الحسن صفحة شاعر

وهنا يريك صحيفة الرسام

ولكنها رحلت..

- أكمل..

- أريدها أن تكون حلوة المنظر، حلوة الكلام، رقيقة العاطفة، مرهفة الحسن، وفي لسانها بيان ولوجهها بيان غير الذي في لسانها، تعرف

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فيه الكلام الذي لا تتكلم به، تدرك وترى الحياة بعين باصرة غير قاصرة، بعين يخرج القمر منه، ويأتي متمثلًا أمام الناس، في شكلها دعوة للفضيلة، وفي وقارها وسكونها تنفر للرذيلة، وتكون حبًّا يوصلني إلى غايتي ومأربي، إلى نهاية حياتي، أريدها قصيدة شعر غزلية تعدل ابن أبي ربيعة، وامرئ القيس، والشاب الظريف وجلال الدين الرومي، وتكون هي منبع الشعر والحكمة لي ولدواويني القادمة، لأملأ وعائي منها فأخرج للناس ديوانًا من وحيها وصورتها، أريدها فجرًا يتبلج في قلبي فيضيء أرجاءه بنورها، بألوان من الحسن لا يرى ولا يدركها ولا يصدق بها إلا صاحب هذا القلب الذي افتتحته وتسلطنت عليه (ثم استدار إلى صاحبه قائلًا) من لي بما أريد؟

فقال عبد الرحمن بجد لا يقبل الهزل:

- أنا لك بما تريد.

فقال الرافعي بفرح:

- أتعرف؟

- نعم، وهي هدية أقدمها لك.

فقال بتلهف وترقب:

- من؟

- أختي!

وغشيت الرافعي غشية الفرح، فما لبث حتى مد يده إليه فقرأ الفاتحة.

دخل الرافعي على والديه وقال بخجل بادٍ:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- يا أبي وجدت زوجًا لي.

فالتفت الأب إليه وفي نفسه مشاعر متلاطمة بين سرور وترقب.

فقال مصطفى:

- شقيقة صديقي عبد الرحمن..عبد الرحمن البرقوقي.

- كيف شاهدتها؟ هل اتفقتما على شيء؟

- أجل، قرأنا الفاتحة.

وتعالت الزغاريد من بيت القاضي عبد الرزاق الرافعي في فرح وسرور وابتهاج. وجاء يوم الفرح والعرس، وحضر الأصدقاء السوريون، ومصطفى خجول مضطرب وهو الذي لم يخف من نقد عظام العصر، وكان جورج إبراهيم يرمقه ويرى ما فيه من ابتهاج. وكان مصطفى يغبط نفسه في ذلك اليوم على حظه وتوفيقه اللذين يسيران له هذا التوفيق.

ووسط التصفيق والزغاريد صحب الرافعي زوجه إلى حجرتها، صحبها وهي التي عشقها قبل أن يراها، والآن سيجتمع قلباهما تحت ميثاق غليظ.

ولما دخل الغرفة وكشف عن وجهها البهي، قال:

- يا كهرباء الحبّ رفقا إنما هذي (الأنابيب) الضعاف عظامي.

كان الرافعي في المحكمة يقلب صحيفة بيده، فقرأ مقالا عن رداءة التعليم وفساده عند الطلبة، فأغلقه وهو كئيب حزين على مستوى التعليم، فرماه وهو غاضب.

وبينما هو على هذا الحال دخل جورج إبراهيم، فقال:

- ما لك منزعج؟

- كيف لا أنزعج ومثل هؤلاء التلاميذ يقطنون في مدارسهم ويدرسهم أساتذة بلهاء أغبياء؟

- صحيح، أين كتابك الذي أعلنت عنه (ملكة الإنشاء) ووضعت أنموذجًا منه في الديوان؟

- لم يكتمل بعدُ، أريده أن يكون أنموذجًا صالحًا لمن يريد أن يكون منشئًا، ينسج الطلاب على منواله ويتبعون طرقه في كتابة الإنشاء.

- يعني كيف؟

- أنا كنت أصنع هذا مع كتب الجاحظ، والكتب التي أحاول أن أقلدها، بأن آتي بقطعة من كتاب ما، ثم أقرؤها مرارًا وتكرارًا، أعيدها وأمررها في ذهني إلى أن تستقر معانيها في ذهني، ثم أحاول أن أعارضها، وأبدل كلمات بدل كلمات ولكن على أن لا يتغير المعنى، وهكذا يدرسون ولكن يدرسون على كتابي، الذي هو محصلة تلك الدراسة، فهي تحتاج إلى شيء من التعب والجد والكد.

- وبهذه الطريقة يصبح للطالب ملكة إنشاء؟

- طبعًا، وسيكون أفضل من الأستاذ (المنفلوطي) ومن مقالاته هذه التي ينشرها.

- تقصد مقالات (النظرات)؟

- أجل هي.

- وهناك رجل آخر يرد عليه وعلى كل مقال يكتبه المنفلوطي، هو فتىً ضرير، اسمه (طه حسين) ينشر تحت عنوان (نظرات في النظرات) يزعم أنه نقد.

- وما أقبح من النظرات إلا نظرات هذا فيها.

- هو طالب في الأزهر والجامعة المصرية معًا.

- أما الجامعة فإنِّي أبيّت لها أمرًا.

- الجامعة؟ لماذا؟

- درس الأدب منذ افتتحت لم يقدم شيئًا ذا بال، وإني عازم وحازم على كتابة مقال أكبر قيمة وأرفع صوتًا وأشد وقعًا من (شعراء العصر).

- ويحك يا رافعي، لمَ؟

- لأجل الأدب، لأجله يجب أن نعمل جاهدين، فبعد طول الانتظار ولدت الجامعة المصرية، ولكن دروسها مخيبة للآمال.

- ما زال الوقت مبكرًا، لم يمض على تأسيسها عام، أمهلها قليلًا، وبعدها افعل ما بدا لك.

- وهو كذلك، أما والله أن كتابي (ملكة الإنشاء) لو سار الطالب على منواله وعلى خطاه لاستفاد في الأدب وفن (الكتابة) أكثر من دروس الجامعة.

فقال جورج مغيرًا الموضوع:

- كيف حالك مع أهلك؟

فقال الرافعي مستغربًا:

- ولماذا تسأل؟

- لأني لاحظتك منذ أيام لست على طبيعتك، فلعله خيرًا.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقال الرافعي بدون مقدمات:

- أريد أن أطلق زوجتي!

- تطلقها! لماذا؟

- إن إخوتها يجحدون حقها في تركة أبيها، لا يريدون أن تستمتع منها بشيء.

- فهذا هو السبب؟

- أجل..

- ويهون عندك أن تأخذها بما اقترفه إخوتها؟ مصطفى إنك جبار، ألا تذكر أن الطلاق جريمة لم يقترفها أحد من قبلك من الأسرة الرافعية؟ ألا تذكر أن أهل طرابلس الشام لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة معيبة وقعت مرة ولن تتكرر؟ فكن بعض أهلك يا صاحبي.

وأطرق الرافعي هنية ثم قال:

- أحسبتني أفعلها؟

وعاد إلى أهله وقد انشرح صدره لزوجه واطمأن لحديث جورج، ووجد ولده (محمود سامي) يصرخ وأخذ يسكته ويلاعبه، ويقول له: يا صبي أنت على اسم البارودي فكن جلدا، وشاعرًا رقيقًا، وسباكًّا مجيدًا.

فنظرت إليه زوجته وابتسمت ابتسامة رضا وسرور.

وقام الرافعي بكتابة مقال (الأدب العربي في الجامعة المصرية)، فقلب الجامعة رأسًا على عقب، ورن المقال وسمع رنينه في الأرجاء، ونشرت الجامعة دعوة لمن يكتب في (تاريخ الأدب العربي) فإن له مكافأة

قدرها مائه جنيه، والمدة المقررة لإنجاز الكتاب سبعة أشهر، وما أن حاولت الجامعة القيام من الوقع الأليم الذي تسببه الرافعي لها بمقاله حتى جاءت الضربة الثانية بمقاله الثاني، تهكم على مكافأتها، فضاعفت مكافأتها وتبرعت بطبعه.

وانبرى الرافعي لهذا العمل فشرع في كتابة كتابه الضخم الفخم (تاريخ آداب العرب)، وكان الكتاب نهجًا جديدًا لم يعرفه الأدب العربي، وبدأ اشتغاله في الكتاب وانقطاعه للتصنيف في منتصف عام ١٩٠٩.

وأخرج الجزء الأول عام ١٩١١، ولم يسبقه كاتب أو مؤرخ إلا جورجي زيدان، ولم يحظَ جورجي زيدان باهتمام كالذي حظي به الرافعي، لأنه لم يقدم شيئًا جديدًا إذ اتبع منهج المستشرق الألماني بوركلمان في كتابه عن تاريخ الأدب العربي، ولم ينتقد الرافعي وكتابه سوى طه حسين الطالب في الجامعة المصرية، ولكن الرافعي كان أكبر من أن يرد على طالب يزعم أنه لم يفهمه!

وأصدر الجزء الثاني عام ١٩١٢، فشعر بتعب شديد، فقرر السفر إلى لبنان، للاستجمام!



قال الرافعي:

- لعبد الرحمن البرقوقي فضل لا أنساه في حياتي عندما وهبني أخته.

قال العريان:

- فهل كانت كما تمنيتها؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- وأكثر، كيف لرجل مثلي أن يكتب وينتج ويبحث ويحقق وله عشرة أولاد؟! هي من توفر لي الراحة للكتابة، ولم تشكني يومًا، فعلًا هي كنز ثمين، ومهما فعلت لها فهو قليل أمام ما قدمت.

فقال العريان وهو يغمز الرافعي:

- كيف لا وأنت من أنت!

ففطن لمقصده وقال:

- لا سلطان لي على الحب!

ثم قال العريان:

- كم من الوقت حتى أكملت الجزء الأول من التاريخ؟

- ثلاثة أشهر.

- فلمَ تأخرت على إصداره؟

- لأني قرأت ولخصت الكثير من الكتب قبل أن أكتبه، ولكن الجزء الأول هو أعظم ما كتبت، حتى أني كنت أريد أن أعدله في الطبعة الثانية بعد عشرين سنة ولكن لم أصحح منه شيئًا، لأنه نسيج وحده.

فتبسم العريان.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٠)

آفة الحر أن يكون محبا

وكذا الحب يتبع الأحرارا

ها هو يطل ثانية على تلك الربوة وذلك الجسر..حين لقي عصفورة!

أحد عشر عاما مرت يا عصفورة سريعًا كالعمر بالنسبة للإنسان يوم القيامة كأنه لم يلبث إلا ساعة من نهار لا عمرًا مديدًا، أحد عشر عامًا يا عصفورة على بدء حبنا الذي سرعان ما انتهى سريعًا كما بدأ سريعًا، ترى أين أنت الآن وأين حل بك الدهر؟ كيف صرت في حضرة الثلاثين؟ هل بقيت جميلة؟ وكم أنجبت من أبناء؟ وهل قرأت ديواني؟

كما وعدتك أن أصدر ديوانًا من وحيك، وأنت هل وفيت وقرأته واقتنيتِه؟

وكم من الأسئلة التي تحتاج لجوابك، فهل سترويين عطش الشوق باللقاء؟ وهل سيمنحنا القدر هذه الفرصة الجليلة ويجعلنا نلتقي؟

الآن صار لي اسم ومعارف، فأنا شاعر مرموق ولي مكانة بين شعراء مصر، ومؤرخ يشار له لسعة العلم والبيان، تزوجت ورزقني اللّه بزوج (نفيسة) كم أردتها، وكأنها تعويض بسيط على فراقك، وللّه ما أجملها وما ألطفها من سيدة. أنا الآن على الجسر أنتظر اللقاء، أنتظره وأنا خجل وجل منك، ولكن هل ستأتين؟ وهل سينبهك قلبك أني هنا؟

لم أنسك يوم وإن تزوجت، لم أنسك وإن أحببت أخرى، أجل أحببت هندا منذ خمس سنين مضت وافترقنا، ولكن حبي لهند لم يكن اختيارًا مني، بل عمل القلب الذي لا سلطان لي عليه، وهل أنا مسؤول عنه وعن تقلباته؟ وهي التي أملت عليَّ الكثير من غزل الجزء الثاني من الديوان، وقد قلت فيها مصرحًا:

ولا عجب أن تراني على

(تقلّب) هند عدمت القرارا

و(هند) على ما بنا لا تبالي

ويحك يا هند ليس اختيارا

لماذا تخافين يا هند عني

هبيني ظلا وراءك سارا

لقد رحلت هند يا عصفورة وتركت لي جراحات لم تندمل، فأنت وهي وجع متصل، ولم أنس أيامها، أحسبك قد وقفت عند هذا البيت في الديوان:

وما أنسَ يوم البين من (هند) أنه

تطاير منها بانفجار الهوى قلبي

- فهل عرفت الآن؟

وجاء أحد أصحابه من أقربائه الذي جاء لزيارتهم، وأشار له بالذهب.

فقال مصطفى وفي عينيه نظرة جمعت بين اليأس والرجاء:

- أريد أن أراها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- وكيف السبيل إلى ذلك؟ مر أحد عشر عامًا على لقاءات عابرة، وتزوجت هي كما قلت، فأين سنجدها؟ انسها يا مصطفى انسَها، وسترى خيرًا منها..

- وأين أجدها؟

فقال صديقه كمن تذكر شيئًا مهمًا:

- صحيح، هناك دعوة لك لحضور أمسية شعرية، في فندق قريب من هنا، ويريدونك أن تلقي قصيدًا.

- وهل هناك قصائد؟

- قصائد كثيرة، سر هيا.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وسار في تلك الطبيعة الخلابة تاركًا الجسر ومؤمنًا بالحقيقة التي ظل ينكرها أحد عشر عامًا، ومضى وهو ينشد:

آفة الحر أن يكون محبا

وكذا الحب يتبع الأحرارا



وفي ذلك اليوم اللبناني على أحد جبالها الشاهقات ومناطقها الساحرة كانت العربة التي تنقل الرافعي ورفيقه قد وقفت أمام فندق فخم، نزلا بكامل أناقتهما، وكان الرافعي قد كساه وقار الثلاثين فزاده وقارًا وهيبة فوق وقاره، وكان لمرضه الذي أودى بسمعه تأثيرًا كبيرًا، فهو لم يعد يسمع، وربما هي منحة إلهية لهذا الإنسان ليتفرغ للأدب وفلسفته، ولا يسمع صوت الحياة البائس وضجيجها التعس، بل يسمع أصوات القلوب

وما تتحسسه وتلمسه روحه، لم يعد يسمع تفاهات الأمور، بل خلد إلى نفسه وصوت روحه.

دخل الرافعي وصاحبه في صالة فسيحة كبيرة، اعترضتهم سيدة أنيقة رشيقة، تبدو عليها لمحات الذكاء وأمارات الحسن.

فسلمت على صديق الرافعي، ورحب بها وقال:

- أهلًا بآنسة ليلى، (ثم قدم لها الرافعي) وهذا شاعرنا الكبير والمؤرخ القدير مصطفى صادق الرافعي.

فقالت باسمة:

- أهلًا أهلًا بأستاذنا الكبير، قرأت كتابك الأخير وأنتظر الجزء الثالث.

ثم نبهها صديقه أنه لا يسمع، فجلسا على مقاعد أنيقة، وأخذ الصديق يكتب إلى الرافعي ما تقوله، فكتب له أنها شاعرة لبنانية واسمها (ليلى) وهي معجبة بكتابه (تاريخ آداب العرب) ودواوينه، وأنها تنتظر الجزء الثاني من النظرات.

فابتسم الرافعي ابتسامة رضا وسرور، وقال:

- هذا شرف لي أن تعجب بأدبي سيدة مثلك.

فقالت بفرح وابتهاج:

- كتاباتك مما تستحق الثناء، ومما تطرب لها النفوس، وخاصة وأن فيه ملكية الابتكار والاختراع، ويظهر فيه سعة علمك واطلاعك على اللغة وآدابها وتاريخها، وتلم بها إلمامًا شاملًا كاملًا، وفي الحقيقة سألت نفسي مرة: أأنت شاعر أم كاتب أم مؤرخ أم ناقد؟ ووصلت إلى نتيجة أنك تحويهن كلهن.

فقال الرافعي بعد أن قرأ كلامها:

- أنت ذوّاقة للأدب وشاعرة كما أخبرني، وهذا من ذوقك.

- ولكن هناك سؤال يحيرني، وفرصة مناسبة لسؤالك.

- تفضلي.

- كيف كتبته؟ كيف كنت تجلس وتكتب حتى أحطت هذه الإحاطة الشاملة في كتابك (تاريخ آداب العرب)؟

فتبسم الرافعي وقال:

- أكتبه كما يكتب الكاتبون، ولكنها عملية شاقة.

- حدثني عن هذه العملية الشاقة.

- تمر الكتابة في (تاريخ آداب العرب) بسبعة مراحل:

أولها: أن اقرأ الكتب التي في غرضي قراءة تأمل ودرس، فإن قرأتها بتأنٍ وأناة يأتي دور المرحلة الثانية.

ثانيًا: ألخصها، أجعل لكل كتاب ملخصًا كبيرًا يغنيني عن مجلداته الكبيرة، وطبعًا في هذا الملخص ما يتعلق بموضوعي فقط.

ثالثًا: ثم أضم القريب إلى القريب، وكل موضوع وكل ما يتعلق به من مسائل أضمهن مع بعضهن البعض.

رابعًا: ثم أمزج بين تلك الملخصات فأضم الشبه إلى الشبه، ثم المرحلة الخامسة هي الشروع في الكتابة.

سادسًا: ثم أعود فأقرؤه قراءة الباحث المفتش عن خطأ، وأعدل وأصحح بين الآراء.

ثم المرحلة الأخيرة: وهي التهذيب والصقل وإعادة الصياغة الفنية والبيانية، وانتقاء الكلمات بأناة وتمهل، وأصنع الأسلوب الجزل، بهذه الطريقة كتبت تاريخ آداب العرب.

فقالت بصوتها الطروب:

- يا سلام! عمل شاق ومتعب ولكنك أهل له، أأنت تزور لبنان كثيرًا؟

ثم استأذن صاحب الرافعي للقاء بعض الصحبة من الشعراء، واعتذر للسيدة لأنه لن يستطيع أن يكتب للرافعي لتكتمل المحادثة.

فقالت:

- وما يمنع أن أكتب له أنا؟

ثم صارت تكتب له، واتخذت موقعًا خاليًا في إحدى شرفات الفندق التي تطل على طبيعة البلد الساحرة، ثم عادت وسألته عن زياراته للبنان.

فأخبرها بقصته مع عصفورة وكيف سحرت لبه ونفخت فيه من روحها حتى كان معظم الجزء الأول من وحيها. فتأثرت وقالت:

- كم أنت بائس يا مصطفى!

- هذه حياة الأديب بائسة تعيسة، فأنا موظف صغير في المحكمة، وأعاني من شظف العيش وقلة المورد.

- الجامعة ألم تخصص جائزة مالية، فلمَ لم تعطهم الكتاب لكي يقيموه، لعلك تظفر بالجائزة، والمائتا جنيه ليست قليلة عليك.

- ربما كان صحيحًا إن قست تفكير الكاتب بالمال، فهو مبلغ مغر لموظف صغير، ولكن أنا لا أبيع الأمانة العلمية بمائتين درهم، لأنَّ الجامعة لا يوجد فيها أستاذ يستطيع نقد كتابي، فضلًا عن تقييمه.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- ألا تشعر أنك تبالغ وتهول؟

- ليس مبالغة أو تهويلًا، فأساتذتهم غير مؤهلين، فهل ندع مستشرقًا فرنسيًا أو ألمانيًا ينقد كتابي وهو لا يحسن العربية فضلًا عن نقدها وتقييم كتابها الأصلاء؟

- سوف أستدل لك بدليل يقيم الحجة عليك.

فأجابها الرافعي ضاحكًا:

- هيا أفحميني.

- ألا ترى النجار إذا صنع بابًا أو شيئًا آخر ووضع فيه عبقريته وفنه، ثم قدمه جاهزًا ناضجًا للمشتري، ينتقده المشتري ويظهر عيوبه، مع العلم أن المشتري ليس حاذقًا في النجارة أو متمرسًا فيها بخلاف النجار، وعلى الرغم من ذلك ينتقد ويحكم والنجار يستجيب.

- أقمت الحجة على نفسك يا ليلى، ومت حيث أردت الانتصار جاءك الانكسار، فإن حجتك هذه لأهون الحجج وستتهاوى سريعًا، أمَّا النجار فهو أعلم بالصنعة، أما المشتري فهو ينقد لما يلائم غرضه لا ما يناسب الصنعة التي لا يحسنها، والنجار يستجيب لأجل نقوده لا لأجل نقده، وكذلك هؤلاء المستشرقين، هم ليسوا أعلم من العرب بآدابهم، ولكنهم ينتقدون ما لا يلائم تفكيرهم، ويصنعون ما يوافق تفكيرهم وهواهم وهذا دأبهم.

- لن أغلبك أبدًا.

- الغلبة للحق وهذا الحق.

- ما هي مشاريعك القادمة؟

- أعتقد أني سأبدأ بكتابة الجزء الثالث من التاريخ.

- والشعر، متى يصدر الجزء الثاني من النظرات؟

- لا مزاج للشعر هذه الأيام، ولكن هناك فكرة تلح عليَّ، ولا أعلم إن كنت سأنفذها قبل كتابة الجزء الثالث أو بعده.

- وما هي؟

- أفكر أن أضع ديوانًا غزليًّا نثريًا، سيكون قصيدة طويلة بلا وزن وقافية، وأحسب أنه لن يكون في العربية مثله.

- اللّٰه اللّٰه..

- وفي هذه الطبيعة بدأت تسري روح الكتابة وتستبد.

- وماذا ستلقي اليوم لنا؟

- كنت قد كتبت أبياتًا، وأنا قادم إلى هنا، ولكن تذكرت عصفورة، وسوف أعود إلى ماضٍ بعيد، قرابة عشر سنين، وألقي قصيدتي التي مطلعها:

عصافير يحسبن القلوب من الحب

فمن لي بها (عصفورة) لقطت قلبي

- يبدو أني فتحت جرحًا قديمًا.

- هذا جرح لم يندمل، أنا الذي يأبى أن ينساها.

ثم قاما وجلسا في الأمسية الشعرية، وصعد الرافعي وألقى قصيدته التي تفيض شبابًا، وتتفطر وتتشطر عشقًا وغرامًا، التي جعلت كل من في القاعة يقومون مصفقين بعد أن أضاف إلى القصيدة روحه التي تأبى أن تنسى.

ثم عاد وجلس جنبها، وقامت هي وألقت قصيدتها التي تفاعل الحضور معها حتى الرافعي عندما أعطته القصيدة مكتوبة.

وبينما هي تلقي والجمهور متفاعل والرافعي منهم، مال على صاحبه وقال له:

- قصيدتها تطرب رغم ركتها!

وعادت إلى مجلسها، فقالت له:

- أنا لا أعتبر نفسي شاعرة ما لم أسمع رأي شاعرنا الكبير.

فقال:

- جيدة جيدة.

ولما انصرفت إلى بعض أمرها، كتب صديقه له:

- بالله عليك لو كان أحمد شوقي أو حافظ قد قال قصيدة ركيكة مثل هذه ماذا ستقول له؟

فطوى الرافعي الورقة وهو يبتسم بلا رد.

وتعدد اللقاءات بين ليلى والرافعي وسرت نفسه بها، واستأنس بحديثها، عند ذلك أدرك أن عصفورة قد رحلت..ويجب أن يطوي صفحتها كما طوى الرافعي الشاعر، وكما طوى (شاعر الحسن)، ووجد ليلى قد افتتحت وحي كتاب جديد غزلي.

وعاد الرافعي إلى أهله، ووجد نفسه ترفرف عند الربوة وعند لبنان كلها، فبعث أشواقه إلى ليلى شعرًا في (الزهور) عبر عبرات البين ويقول فيها:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

من دونك البين يا (ليلى) ومن دوني

وبعض ما كان قبل البين يكفيني

ملقى لدى الناس لو أبصرت حالته

في الناس أبصرت حبا غير مدفون

فردت عليه عبر صديقه هناك الذي عرفهما على بعض، وكتبت له على نفس الوزن والقافية:

ليلى تحييك من أعلى (بحمدون)

والبين فاعلم كما يشجيك يشجيني

إن كنت قد مُتُّ قبل البين من شجن

(فبعض ما كان قبل البين) يحييني

و(الصادق) الحب يبقى في مودته

ان كان من دونه بينٌ ومن دوني

إني لأذكر مصرا لا لبهجتها!!

لكن لمن هو في مصر يحييني

واذكر الحر والحر شديد بها

كنار قلبي لا تعنو لتسكين

إلا إذا صادق وافى وأدركني

محمومة فهو من يأسو فيشفيني

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وسرعان ما انقطعت الاتصالات بين مصر ولبنان بعد أن لاحت بوادر الحرب العالمية في الأفق، وتعسر زيارة لبنان، فكانت نهاية حب الرافعي مع ليلاه.

وأتم الرافعي كتابه عند الفجر، ففتح نافذة المكتبة وتنفس نسيم الفجر المنعش، وأمسك ورقة ليكتب العنوان، فكتب:

(حديث القمر. بقلم: مصطفى صادق الرافعي.

وقد كتب على نمط خاص من الكتابة العربية يجعل طالب الإنشاء بإدمان قراءته وتأمله منشئًا، إذ يربي فيه ملكة التخيل الصحيح التي هي أصل البلاغة ولا بلاغة بدونها)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ودخلت زوجته لتعلمه بأن الصلاة قد حانت، فصلى وذكر الله ودعاه أن يشفي علته، فقد أخبره بعض الأصدقاء السوريين أن في الشام يوجد دواء لعلته فهو ما زال منتظرًا مترقبًا لهذا الدواء. وخرج إلى الفناء فوجد زوجه قد أعدت العجين أمام الفرن، وهي سيدة عاملة قائمة بحق زوجها وبيتها. فقال لها:

- أكملت كتابي (حديث القمر) وسأبعثه إلى المطبعة، وهو كتاب فريد من نوعه، ونثر مسبوك أشد السبك.

فأشارت له بفرحها بهذا النبأ. فقال لها:

- هذا الكتاب استوحيته من وحي ليلى، التي حدثتك عنها، عندما رأيتها في لبنان في الصيف الماضي، فهل تذكرينها؟

فأشارت له بأنها تذكرها، ثم سألته هل يعود إلى لبنان؟

فقال لها:

- لا، الوضع سيئ جدًّا، ولم تصلني منها رسالة إلا منذ شهور وهي تدعوني لزيارتها، ولا أخفيك سرًّا يا نفيسة إنني لم أعد قادرًا على مغازلة النساء، وأعتقد أني مللت من الحب وسأقفل قلبي إلا لك.

فتبسمت ابتسامة رضا وسرور معتادين وهو دأبها مع زوجها. فقال:

- ولكن يبقى الحنين إلى الشام..حان وقت نومي، أيقظيني عند الثامنة والنصف.

فتبسمت ابتسامة حبٍّ ووئام، وقام منها وهو ينشد وهي ترمقه:

يا نسمة النيل مري بالسلام على

نسيم وادي الهوى من أرض لبنان

قلبي يرف رفيف الطير بينكما

كأنما أنتما فيه جناحان



عصير الكتب للنشر والتوزيع

القسم الثاني

مع مي

تــاللَّه لـو جـدَّدوا للبــدر تسـمية

لأُعطي اسمك يا من تعشق المقل

كلاكمـا الحسـن فتّانـا بصورتـه

وزدت أنـك أنـت الحـب والغـزل

وزدت يا حبيبتي أنك أنت

(١١)

قضت الحياة أن يكون النصر لمن يحتمل الضربات لا لمن يضربها.

١٩١٩م / طنطا:

سنواتٌ عجافٌ، صعبةٌ معقدةٌ، طويلةٌ كليل بهيم، جوعٌ ودمارٌ، ظلمٌ واستبدادٌ، سجونٌ ممتلئةٌ، وبطونٌ فارغةٌ خاويةٌ.

حرب عالمية جدباء شعواء قد انصرمت تاركة بؤسًا وشقاءً، ثم ثورة عارمة كاسحة، ولعل أسوأ ما جرى على صاحبنا هو وفاة أبيه ورحيل ذلك النجم وأفوله، كان تشيعه مهيبًا في طنطا، كان لائقًا بقاضيها وفقيهها الأول، قرر الرافعي على إثرها أن يعيش في طنطا ما بقي من عمره، ويموت فيها جنب أبيه.

- نترك طنطا، ونرحل إلى القاهرة، هناك عيش رغيد كما أخبرني أخي عبد الرحمن، وهم من سيساعدوننا، والخير كثير ووفير، وإن كان على الوظيفة فعندنا واسطة كبيرة في القضاء من معارف عمي عبد الرزاق رحمه الله..

كان الرافعي يفهم كلام زوجه دون الحاجة إلى أن تكتب له أو تشير له، بل يفهم عليها من حركة فمها، وإن كان لا يفهم كل كلامها، ولكن يلحظ ضجرها وسخطها.

فقال لها بصوته المبحوح:

- يا نفيسة المعيشة في القاهرة غالية باهظة، لا يقوى عليها موظف بسيط مثلي، ومن ذا الذي سيساعدنا؟ إخوتك؟ إخوتك لم يعطوك حقك الذي فرضه الله فهل سيساعدوننا؟ لو أنهم أعطوك ما فرضه الشارع من حقوق وفروض لما كان هذا حالنا، وأيضًا هنا مثوى أبي وأمي فهل أتركهما؟ لا لا، والقاهرة ليست تلك المدينة الساحرة وأنت تذهبين لإخوتك وتعرفينها.

- ولكن يا مصطفى المعيشة هناك أفضل وأقرب لك ولعملك الأدبي الذي هو باق لك بخلاف الوظيفة، وأنت كنت تهم دائمًا في التفرغ للكتابة وترك الوظيفة بأن تحال إلى المعاش، والوظيفة لم تأت بمعشار ما تكد وتتعب في سبيلها.

- ليت ذلك يا نفيسة، ليتني أستطيع التفرغ للكتابة، ولكن من يوفر الرزق لكم؟؟ كان أبي رحمه الله بمرتبه يساعدني وينفق على البيت ويشتري الكثير من الكتب التي أحتاجها، ولكنه رحل إلى رحمة ربه، والكتابة لم تعد تجلب عيشة هنية، وأنا لا أكتب لآخذ النقود بل لأعيش مع القلم.

- سأحدث أخي عبد الرحمن لييسر لك ترك الوظيفة.

- لكن يا نفيسة عندما أترك الوظيفة فإنهم سيقتطعون من راتبي عشرة جنيهات، وهذا كثير، وكم هو الراتب أصلًا ليقتطعوا منه عشرة جنيهات! لو كان القانون يقتطع من الراتب خمسة جنيهات فحسب لخرجت من الوظيفة ولكن عشرة كثير، لننتظر بضع سنوات أخر لعل القانون يتبدل.

- طيب وجدت حلًا، لنطلب من أخي أن يعطيك نقودًا على مقالاتك التي تكتبها لمجلته (البيان)، فتعوضك عن الجنيهات العشرة التي ستقتطعها الدولة عند ترك الوظيفة، وهذا حقك، ولو علم الشيخ رشيد رضا أن مقالاته في الإمام محمد عبده منبجسة من قلمك لا من قلمه لتحول إلى مسخرة، أو لنفرض تغير الأسلوب والديباجة ماذا سيقول محمد رشيد رضا عنه؟ هه؟ أخي لا يستطيع تركك.

- يا امرأة لا أريد أن أكون انتهازيًا كل شيء بمقابل، حسبه أن وهبك لي، فهذه أكبر مقابل لما أكتبه له.

فتبسمت جذلة فرحة، ثم كظمت ابتسامتها ودارتها بعنادها قائلة:

- ولكنك محتاج..

- ربنا يرزق.. يا حبيبتي ربنا الرزاق..أنا داخل لمكتبتي وصلني كتاب من أبي رية منذ مدة ولم أرد عليه، سأكتب جوابًا.

ثم مضى إلى مكتبته ، وهي تدمدم: ربي يرزقك، كم أن قلبك طيب، ونفسك أبية.

دخل الطبيب على الرافعي إذ كان مريضًا بالحمى التي لزمته، وأصابه ركود وجمود فكري، فلم يعد يقدر على الكتابة وصار يهمل أشياء كثيرة، بل يقضي طول النهار يقلب كتابًا، وقال لزوجه وهي تطعمه:

- لا أدري أين ذهبت تلك العزيمة الأولى التي كانت تمضي مضاء السيف، ولعل الله يرزق الشفاء من هذا المرض فقد طال زمنه، ولعنة الله على الدنيا التي لا يقدم فيها الإنسان خطوة حتى تؤخرها حوادثها خطوتين.

- لا تيأس يا زوجي، فقد عرفتك صلدًا جلدًا، لا تزعزعك الحوادث ولا الأمراض، وأنت أكبر من هذا.

- أين محمود؟ قولي له فليذهب إلى (جورج إبراهيم) فاني أريده بأمر.

ولم تمض ساعة حتى جاء جورج سريعًا وهو هلع فزع من وعكة صاحبه، وبعد أن جلس واطمأن على صاحبه، وكان جورج يحمل دفترًا صغيرًا وقلمًا ليكتب لمصطفى، قال له مصطفى:

- هل تعرف ذلك الطالب الذي يدرس الطب في ألمانيا؟ الذي أخبرتك أن أبا رية أخبرني عنه؟

- نعم تذكرته، ما به؟

- سمعت أن في ألمانيا قد اخترعوا أصنافًا مفيدة من السماعات الكهربائية التي تعين على السمع، لقد طال مرضي، تسع سنين يا جورج ولم يتركني، أنا مستيقن أني سأسمع وأشفى يقين المؤمن برؤيا ربه، سيزول حتمًا لا محالة.

- أرح نفسك يا مصطفى وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

- ونعم بالله، وهذا ظني به ما من شك في ذلك أو ريب، وإضافة إلى مرضي يا جورج فان نفسي تميل إلى السكون والخمول.

- نعم، هذا المرض هكذا يفعل، عندي صديقي طبيب نفسي، أخبرني أن هذا المرض له آثار نفسية عجيبة لو أدرك الإنسان عشر هذه الآثار لكان بخير، وأغلبها أمراض معنوية لا جسدية.

- المشكلة أن الكتابة تشق عليَّ.

- لا بأس، استرح هذه الأيام ولا تتعب.

- وهو كذلك.

خرج جورج من عند الرافعي وبين جنبيه عجب واستغراب، ويتساءل: تسع سنين يا مصطفى ولم تيأس أو تمل من شفائك ؟ متى تقتنع أن سمعك لن يعود وأنك ستظل أصمَ ما حييت؟ وأعتقد أن صممك هذا خير لك، فأنت خلقت لتسمع أصوات القلوب وتناجيها وتلبي نداء القلوب المنكسرة وتجبرها بروحك وقلمك، شيء رائع أنك لن تسمع كلام البشر وكذبهم وحيلهم وخدعهم..خير كثير في هذا يا صاحبي.

وصل إلى الرافعي وفي مكتبه بمحكمة طنطا كتاب بريدي، ففتحه:

(يا أبا سامي...السلام عليك..

قد طال غيابك، وانقطعت أخبارك، سمعت من أبي رية أنك مريض، عسى أن يكون خيرًا، إن استطعت فتعال لنا في القاهرة، وإن لم تستطع فابعث لنا بكتاب لنرى أخبارك، فقد مضى أمد طويل على غيابك.

ونسيت أن أخبرك أن هناك أميرًا مغربيًّا جاء إلى القاهرة، وجمع عنده مجموعة من الأدباء، ويبدو أن محبيه في ازدياد، مع العلم أني لم أر عنده شيئًا ذا بال، ولكن تعال نسمعه ونستأنس.

حافظ إبراهيم

١٩٢٠م)

كان القطار يحمل الرافعي من طنطا إلى القاهرة، وهو حامل كتاب يقرأ فيه قطعًا للوقت وهي عادة قديمة عنده، جلس جنبه رجل وأخذ يحدق فيه، فقال الرجل:

- أين رأيتك؟ وأين رأيت هذا الوجه؟ لا أعلم..ما اسمك يا أستاذ؟

والرافعي لا يرد عليه، فظن الرجل أنه مغرور ومتكبر، فأخذ يثرثر ويغلظ القول، والرافعي مبتسم ولم يبد حراكًا، فغضب الرجل وتجهم، ففهم الرافعي أن الرجل يريد التعارف، فمد يده وقال بصوته الذي لا يكاد يسمع:

- أنا مصطفى صادق الرافعي.

فرفع الرجل حاجبيه متعجبًا وقال:

- مصطفى صادق الرافعي الكاتب المشهور صاحب (تاريخ آداب العرب)؟

فهز الرافعي رأسه إيجابًا، فاعتذر الرجل لأنه لم يدرك علته، وأخذ ورقة وكتب له أنه متابع مقالاته وكتبه بشغف ونهم، واستأنس الرافعي بحديثه وقطع طرفًا من الطريق وهو يحاوره ويحدثه، ولكن الرجل أنهى حديثه تخفيفًا عليه وعلى صحته.

وصل الرافعي إلى بيت حافظ، وكان الأخير منهمكًا في عمل قد أضناه وأعياه ألا وهو ترجمة رواية (البؤساء) لفيكتور هوجو، فقال حافظ:

- الترجمة أخذت كل وقتي يا أبا سامي، الترجمة الأدبية صعبة فيها مشقة كبيرة، لأنه يتحتم عليك موافقة فكرة الكاتب التي أرادها وتنقلها للغتك، والعربية والفرنسية لغتان متباعدتان ولكل واحدة نفسية مختلفة عن الأخرى.. (ثم أردف مازحًا) أحمد الله أنك لم تتعلمها.

- هاهاهاها، كنت أود تعلمها ولكني لم أوفق لها.

- ......

- وما أخبار الشعر معك؟

- الشعر ما زال معي، ولكن كما قلت لك الترجمة أخذتني كلي.

- أعانك اللّٰه.

- وأنت ما أخبار الشعر معك؟

- إني متعب يا حافظ، ولم أعد أقوى على نظم الكثير، ولم أعد من المكثرين، ولكن اجتمعت طائفة حسنة ستكون الجزء الثاني من ديوان النظرات، وسأحاول طبعه قريبًا بإذن اللّٰه، أريد أن أضيف له قصائد رثاء أبي رحمه اللّٰه ويتم.

- صحيح والجزء الثالث من التاريخ؟؟ ألم تعده للنشر؟ قد طال وتأخر، مضت ثمانِ سنوات على الجزء الثاني.

- آه منذ سنين والقراء يلحون عليّ لإتمامه، وهو يحتاج لجهد مضن حتى يتم، ربما أتفرغ له في الصيف القادم، وأين أجد الفراغ؟؟ ووظيفة وأولاد و..

- صحيح لماذا لا تترك الوظيفة، وسوف يفرضون لك معاشًا.

- هذه أمنيتي يا حافظ، لكن إن تركتها سوف يقتطعون من راتبي عشرة جنيهات وهذا كثير، لو كان القانون يقتطع خمسًا فقط لخرجت من الوظيفة، لكن عشرة كثير.

- يا صديقي همومك كثيرة، كل طعامك، وسوف نذهب إلى الأمير محمد المغربي.

- ومن هذا محمد المغربي؟

- هو أمير مغربي جاء لمصر، والتفَّ حوله الكثير من الطلاب المغربيين في مصر، يتخذ مجلسًا أدبيًّا له في إحدى مقاهي خان الخليلي، أما الآن فقد اتسع نفوذه وانتقل إلى قهوة في حي الأزبكية، ويأتي إليه في بعض الأحايين عبد الرحمن البرقوقي.

- يبدو أن الأمير عنده باع في الأدب.

- لا، سوف ترى واحكم بنفسك.

- متى نذهب؟

- العصر إن شاء الله.

بعد أن صليا العصر بقليل خرجا يتمشيان بتأنٍ وتمهل نحو الأزبكية وهما يتكلمان في الأدب والسياسة وكل شيء، كانَ الرافعي يدرك من صاحبه قليلًا ويفقد كثيرًا، ولكن كثيرًا ما كان حافظ يفسح المجال لصاحبه فيجعله يتكلم أكثر منه.

وفي إحدى المقاهي الكبيرة من حي الأزبكية جلسا ينتظران الأمير وصحبه، كان صيت الأمير قد ذاع بأنه رب السيف والقلم، وأنه فارس شجاع وباسل مغوار لا يشق له غبار، وأنه شاعر فحل وحجة في اللغة وفقهها، وسرعان ما غاص المقهى بالأدباء والكتَّاب وإن كان معظمهم من البائسين ومن الذين ليسوا ذوي بال يذكر، ويشتري الأمير عطاياهم بسخائه، وجاء الأمير بمن معه بزيه المغربي الفضفاض، وكان في الأربعين من عمره أو يزيد قليلًا، عينان واسعتان، ولحية صغيرة مدببة قد كساها مشيب خفيف، وهو طويل القامة، يمشي متبسمًا، وله هيبة ووقار، وما أن سلم حتى قام الكل مصفقًا مرحبًا، حتى أن المعلمة (أم المكارم) صاحبة المقهى وهي السيدة المغرورة سليطة اللسان قامت وبتواضع جمٍّ حيت الأمير لأنفاقه السخي ورقته وربما غزلياته الركيكة التي يمنحها

بين الفينة والفينة، ولما لمح شاعر النيل قام بتواضع واحترام بالغين وسلم عليه، وقدم للرافعي قائلًا:

- أقدم لك نابغة الأدب وحجة العرب مصطفى صادق أفندي الرافعي، شاعر العربية الكبير، وكاتبها القدير، وناقدها البصير.

فتهلل وجه الأمير مرحبًا وقال:

- أهلًا وسهلًا، وهل يخفى القمر! الإمام الحجة صاحب (الإعجاز)، استرح.

وعاد لمكانه. دخل فجاءة رجل متأنق في منتصف عقده الرابع، تبدو عليه الرزانة والوقار، فقامت أم المكارم ترحب به وتقول بلسان سليط قد دارته بلهجة هي أشبه بدلع الراقصة وهي صفة لا تنفك عنها:

- أهلًا أهلًا بالبيك، أهلًا بشاعرنا خليل مطران بك.

فقال بهدوء:

- أهلًا معلمة.

وسلم على الحضور وجلس جنب حافظ.

فقال الأمير:

- أهلًا بشاعر القطريين الكاتب الحجة، أنا محظوظ يا ناس، أجلس بينكم في مصر بين أعلام الثقافة العربية، شعراء وكتّابًا، ما أجملكم تجلبون المسرات على القلب، شيء مفرح، حتى الفتوة يجلسون بأدب وبمنظرهم هذا وما فيه من حلاوة ووداعة..

أشار لاثنين منهم يسمعون الحوار بترقب وينتظرون عطاياه..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ثم يكمل:

- وهذا كله ببركة المعلمة أم المكارم التي هي ركن مهم في بناء هذا الاجتماع البسيط.

فرفعت أم المكارم يدها شاكرة، وكان صبي القهوة قد بدأ بتوزيع الأراجيل والمشروبات على الحضور، وبينما يتابع الأمير مدحه وثناءه على مجلسهم قاطعه خليل مطران قائلًا:

- لو رأيت مجلس (مي) لنسيت مجلسنا هذا.

فتوقف الأمير عن كلامه وقال مستفهمًا:

- ومن (مي)؟

فتنهد وقال بلهجة المتواضع الذي لم يفلح في إخفاء غروره وفخره:

- ألم تسمعوا عن (مي زيادة) الكاتبة اللبنانية المعروفة التي تطير بمقالاتها الصحف، وبفلسفتها ودراستها العميقة، وألم تسمعوا بمجلس الثلاثاء؟

فقال الأمير ولم تزل في وجهه علامات التعب والاستفهام:

- نعم، لم نسمع.

فقال خليل مطران بتعجب مصطنع:

- غريب! مع العلم أن الشعراء لا يقفون عن ذكرها ومدحها، وكل من رآها شهد بذلك.

فقال حافظ:

- أنا أحضره وأشهد بذلك.

فقال خليل:

- ومن ذا الذي لم يسمع بأبيات صبري التي سارت بها الركبان، وذلك عندما اضطر للغياب في يوم من أيام الثلاثاء، فبعث أبياتًا يعتذر فيها للآنسة مي عن غيابه وعدم حضوره:

روحي على بعض دور الحي حائمة

كظامئ الطير تواقًا إلى الماء

إن لم أمتع بمي ناظري غدا

أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

فقال الأمير:

- يجب أن نراها حتى نعرف لماذا ينكر صبري صباح الثلاثاء إن لم يرها؟ لا بد أن يكون عندها شيء يستحق.

فقال خليل مطران متحمسًا:

- ستجد هناك شوقي بك أمير الشعراء، ود. طه حسين، والعقاد، ولطفي السيد، والكثير من أعلام الأدب والفكر والثقافة في مصر، فهي كاتبة وشاعرة ومفكرة تدعو لنصرة المرأة وإخراجها من ضيق الجهل إلى سعة العلم، ومن عبودية الرجل إلى حرية العلم والفكر والأدب، وقد بدا ذلك جليًّا في مقالاتها عن باحثة البادية، ألم تقرأها؟

- لا، الآن سمعت عنها منك، متى تأخذني لها؟

- الثلاثاء القادم إن أردت.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- نعم أريد.

- اتفقنا.

- والآن سوف أسمعكم قصيدة لي...

خرج الرافعي وحافظ بعد أن انفض مجلس الأمير، كان الجو بعد العشاء طيبًا رائعًا، أخرج حافظ دخينة له وأخرى للرافعي، فقال حافظ وهو ينفث الدخان:

- كيف وجدته؟

- رجلًا فارغًا، أما سمعت شعره كيف يتلوى به ويلحن ويضمر على مزاجه ويعصب ويكف، لقد كفر بالعروض، أبيات كثيرة في قصيدته مكسورة، يعني على البسيط ولكن الكثير منها من غير وزن.

وأخرج من جيبه ورقة وهو يقول:

- هذه هي القصيدة، أنت كتبتها لي لكي أقرأها هاك واقرأ، على ماذا يصفقون؟ هه؟

وأخذ حافظ يضحك وهو يمر جنب الحديقة الأزبكية وقد بدت رائعة في عتمة الليل، ويقول:

- عطاياه حسنة يعطيها للشعراء البائسين والذي يصفقون له، فهو يشتري إعجابهم.

- وخليل مطران ما به يثني على (مي) هذا الثناء كأن لم نر كاتبة قبلها؟ أم لأنها بنت بلده؟

فأخرج حافظ ورقة وكتب له:

- لو علمت ما عند مي، وكيف يلوذ الأدباء بحماها، ويكتبون من وحي جمالها وبيانها والأولى أشد إلهامًا.

فقال الرافعي في شيء من السخرية:

- يعني أنت بدأت تكتب في الغزل؟!

فعرف حافظ أنه قد أصابه في نقطة ضعفه، وأنه سيتخذها مطعنًا ومهمزًا عليه، فأكمل الرافعي تهكمه وقال:

- يعني تركت النظم في الاجتماعيات وتحولت للغزل؟

- لا، ليس هذا، أنت لا تعرف مي.

- لا، رأيت مقالاتها، وليست فيها شيء يذكر.

- ما رأيك أن نذهب يوم الثلاثاء مع الأمير؟

- لا، لا أستطيع، في المرات القادمة إن شاء الله.

ثم أكملا طريقهما.



قال الرافعي:

- في هذا المجلس برز اسم مي أمامي جليًّا، كنت أعرفها ولكن معرفة الأديب بأديبة صغيرة، كنت ألقاها في بعض الصحف فنتحاور في شئون الأدب وأهله، فتسأل وأجيب، وتناقش أحيانًا، ولكن لم تكن تلك المعرفة المتينة لدرجة أن أحضر مجلس الثلاثاء التي تعقده.

قال العريان:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- ألم تتوقع يحدث شيء كالذي حدث معها؟

فتبسم الرافعي وقال:

- لم أكن أتوقع أن أحبَّ وأعشق مجددًا، إذ الحرب ثم وفاة أبي رحمه اللّه أتعبتني جدًّا، ولم أتخيل أني سأعود وأغرد حبًّا وعشقًا. ولكن القدر قدر أن يكون ذلك.

فقال بشيء من الخوف:

- أتعتقد سترحب بي غدًا؟ بعد كل الذي جرى؟

- أعتقد سوف تفرح أيضًا.

- ما الذي يجعلك فرحًا ومتأكدًا هكذا؟

- السنون كافية بأن تمحو، ويبقى الحبُّ صامدًا شامخًا.

- يبقى صامدًا؟ لا أظن.

- ستعرف غدًا، أليس الصبح بقريب؟

- قريب..



عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٢)

ينظر الحبُّ دائمًا بعين واحدة، فيرى جانبًا ويعمى عن جانب، ولا ينظر بعينيه إلا حين يريد أن يتبيَّن طريقه لينصرف.

طوى الرافعي كتاب حافظ، وتنهد ثم قال: آه كل هذا فعله الأمير؟ ماذا فعلت به يا مي؟

كانت رسالة حافظ تخبره بما فعل الأمير مع الآنسة مي، وقع في غرامها، وطلب يدها للزواج، ولكنها رفضت، فقرر خطفها، لكي يتزوجها بالقوة، وكانت مي مع مجموعة من الأدباء، فاعترف خادمها أنَّ الأمير قد أعطاه رشوة كي يساعده في خطفها، وسرعان ما أبلغوا البوليس الذي نصب فخًا للأمير واعتقله.

ثم تساءل من هي مي أصلًا؟ هو لم يعرفها إلا معرفة عابرة قبل بضع سنين، ولم يحضر مجلسها، سمع ثناء خليل مطران عليها فظن ذلك انحيازًا منه لبنت بلده، قد لا يكون انحيازًا.

ومد الرافعي قدمه على كرسيٍّ مقابل كرسيّه وهو يغالب النعاس ويفكر في مي، فدخل عليه صديقه أمين حافظ شرف -وكان رفيق طريقه من المحكمة إلى أن يفترقا في مقربة من بيته- وبعد أن سلم، قال:

- ألم يحن وقت ذهابك؟

- بلى، ولكن كنت أنتظرك.

- هيا لنذهب.

وسحب الرافعي عصاه التي لا يمشي دونها مع العلم أنه لا يتكأ عليها وربما يحملها لتزيده وقارًا، وكتاب وصحيفة ومجلة يضعها تحت إبطه وضعها، ثم خرجا.

فقال أمين:

- ألم تعلن اللجنة النتيجة؟

- ليس بعد، واللجنة لم تغلق باب المشاركات إلى الآن.

- إلى الآن؟ لم؟

- يبدو أن رئيس اللجنة يأبى إلا أن يشارك شوقي.

- شوقي لم يشارك؟

- لا، وحتى حافظ لم يشترك.

- لماذا؟

- لأنه عضو في لجنة التحكيم، فلا يحق له.

- أرجو أن يكون النشيد الذي سيوضع ليعبر عن أهداف الثورة ومآربها هو نشيدك، حقًا نشيد رائع.

- شكرًا يا أشرف، لو تنصف اللجنة حقًا لما اختارت سوى نشيدي.

ومضت الأيام ولم ينته الأجل المضروب، وكان المشرف على اللجنة الوزير جعفر والي ينتظر مشاركة شوقي، وسعى عشاق شوقي مطالبين شوقي المشاركة، ولم يكن عند شوقي ما يقوله أو قد جهزه، فبعث بنشيد سابق له مطلعه:

بنـي مصـر مكانكمـو تهيـا

فهيـا مهـدوا للمجـد هيـا

ودخل محمود على أبيه وأخبره أن أحمد شوقي قد شارك في مسابقة نشيد الثورة.

فقال الرافعي بإيمان تامٍّ بما يقوله:

- شوقي هو الفائز في المسابقة، ولم يطل موعد استلام المشاركات إلا ليشارك شوقي ويفوز!!

وعلت الأصوات بين الأدباء ناقمة ساخطة على اللجنة ومسابقتها، وسرعان ما انقلبت إلى ثورة أدبيّة حامية الوطيس ضد اللجنة، وكان الرافعي عميد تلك الثورة وكتب في (الأخبار) مقالات في شوقي ونشيده وأنصاره ، وكتب العقاد ناقدًا والمازني.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رمى شوقي الجريدة من يده وقال غاضبًا:

- لم يكتبوا ما سموه نقدًا إلا كمدًا وبغضًا وحسدًا، لعلمهم بي، وكيف أن الشعر مذلل لي راكع.

فقال حافظ:

- لو شاهدت ما كتبه الرافعي في (الأخبار).

فقال بلهجة غاضبة:

- قرأته، هو رأي رجل حاقد لا ناقد.

- لا تنس بينكما مشاحنة ومجافاة.

- أنا أجافي رجلًا مثله؟ من هو أصلًا قبل سبعة عشر عامًا؟ هه؟

- والعقاد والمازني أيضًا.

- لا يهمني قولهما.

وسحب الرافعي نشيده من اللجنة التي عرف حكمها قبل نطقه، ومضى ليجعله نشيدًا مستقلًا ينشده الشعب.

أما اللجنة فمضت وأعلنت أن النشيد الفائز هو نشيد أمير الشعراء أحمد شوقي، ولحنه الملحنون ومضوا منشدين:

بني مصر مكانكمو تهيا

فهيا مهدوا للملك هيا

إلى أن يختتم ببيتين فيهما وعد بتهيئة مستقبل يليق بالماضي:

نقوم على البناية محسنينا

ونعهد بالتمام إلى بنينا

نموت فداك مصر كما حيينا

ويبقى وجهك المفدي حيا

أما الرافعي ورهطه من الثائرين على اللجنة فمضوا ينتخبون لجنة أخرى، وقررت اللجنة الأخرى أن النشيد الفائز هو نشيد الرافعي.

وصار هناك سباق بين الملحنين والمنشدين على نشيد الرافعي والظفر بجائزة لجنته، وسبقهم الموسيقار منصور عوض ولحنه.

وأقيم احتفال في طنطا رسمي لإذاعة النشيد، وحضر الباشوات والشخصيات المرموقة في طنطا، مع الملحنين، وطارت الأصوات لتحلق عاليًا:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

إلى العلا، إلى العلا، بني الوطن

إلى العلا كل فتاة وفتى

إلى العلا في كل جيل وزمن

فلن يموت مجدنا كلا ولن

إلى الإمام للأمام للأمام

يا مصر والهمة تدفع الهمام

لمصرنا عهد لمصرنا ذمام

لمصرنا على بني الدنيا المنن

عصير الكتب للنشر والتوزيع

والرافعي مستمتع وهو يرى ملامح الحضور في فرح وابتهاج، ويكفيه سعادة أن يسمع ثناء زوجه نفيسة من حركة فمها فيسعد.

ودخل جورج إبراهيم على الرافعي، وقال له:

- هل رأيت نقد الآنسة مي زيادة لنشيد شوقي؟

- لا، لم أره.

- لقد نقدته نقدًا أليمًا، خاصة نهاية المقال، هاك انظر ما كتبت في خاتمة المقال ناقدة نشيدهم.

وأمسك الجريدة وقرأ المقال سريعًا ليصل إلى النهاية وتكاد تكون روحه الثائرة على اللجنة أسرع من بصره الذي يريد أن يصل إلى نهاية المقال.

وكان نهاية المقال:

(وهذا القول ينطبق على النشيد المصري، أنه (حلو كثيرًا) وينقصه (شاربان) ينقصه قصف المدافع، ورنين الأجراس، وزفير اللهيب، وزغردة النساء، وهتاف الثوار، وقعقعة قيود الذين سجنوا لأجل الحرية، وأنين الذين قتلوا في سبيلها.

ينقصه مواكب النعوش الملفوفة بالألوية الحمراء، وضجيج الجماعات حولها (ليحيا ذكر شهداء الحرية).

أنزل الرافعي المقال وهو مبتسم، فقال:

- هذا قول حق لا يأتيه الباطل.
- لأنها توافق أهواءك؟
- ليس هذا فحسب، بل هو الحق الذي لا ريب فيه، فشوقي كتب النشيد لمسابقة ثانية.
- نعم.. ولكن يبقى شوقي هو من هو. (قالها جورج قولاً ولم يكتبها للرافعي)
- أريد أن ألقى مي.
- لم؟
- في منتداها الأدبي، للتعارف وحضور ندواتها.
- أنت لم تكن مؤمن بموهبتها.
- قد أكون غيرت رأيي.
- ربما..
- يا جورج أشعر أن شيئًا يجذبني إليها، شيء ما، ربما تقارب الأفكار وتشابهها.

فبدت الحيرة على جورج وقال لنفسه: ربما تكون علامة حب جديد يا مصطفى. ولم تمض أيامٌ حتى جاءه كتاب، ولعمري هل كتب بيد القدر الذي سيغير مصيره أم كتب بيد إنسان من دم ولحم؟؟

شعر شعورًا غريبًا وهو يفتح ذلك الغلاف الذي هو بداية لحظة من حياته كانت تتوق نفسه إليها، وتنتظرها انتظار المحب الولهان.

كان الكتاب فيه:

(حضرة الشاعر الناثر الفذ مصطفى صادق الرافعي المحترم..

أنا الأستاذ إلياس زيادة صاحب مجلة (المحروسة)، أدعوك للحضور لزيارتي يوم الثلاثاء القادم، لتناول الشاي معنا أنا وابنتي مي، ومجموعة خيرة من أهل الأدب والفكر، ونحن نعرف قيمتك وأدبك وشاعريتك، ونرجو أن لا تحرمنا من زيارتك، بيتي بالشارع المغربي بالقاهرة، رقم (٢٨).

إلياس زيادة

القاهرة ١٩٢٣م)

وطوى الرافعي الكتاب وقد بدا منتعشًا متحمسًا، عجيبة هي الأقدار، كيف تجمع بين نفوسنا وبين ما نبغي بهذا الترتيب والتركيب؟

وأخبر صاحبه وخليل جورج إبراهيم بما وصله من كتاب إلياس باشا، وقال له جورج:

- أتتك فرصة على طبق من ذهب لتلقاها

- أجل.

- اذهب إذن.

- وأنت ستذهب معي يا جورج.

- ولمَ؟

- أنيس ونيس، وأنت رفيق عمري، وعلمت أن في مجلسها يكثر الأدباء السوريون خاصة.

- ولمَ لا؟ أذهب معك.

ونزل الرافعي مع جورج في المحطة وانطلاقًا مباشرة إلى منزل السيد إلياس، كان جورج قد عرض على الرافعي أن يذهبا إلى بيت أحد أقاربه للراحة وتبديل ملابس السفر، لكن الرافعي أصر أن يذهب عند وصولهم مباشرة، مع العلم أن أغلب رواد الآنسة مي من الطبقة العالية فكرة وأناقة وجاهًا.

لم يجدا مشقة في معرفة البيت، وكانا قد وصلا مبكرين، وكانت الصالة متأنقة كالعادة لاستقبال الضيوف، فرحبت بهم والدة مي، وما هي إلا لحظات حتى أطلت مي بوجهها الصبوح وأبوها خلفها، فسلما على الرافعي، وأخرج جورج أوراقًا ليكتب للرافعي كلامهم.

فقال الرافعي:

- أشكرك يا سيد إلياس على هذه الدعوة الطيبة، وأنا أتشرف بزيارتك، وزيارة الآنسة مي التي سمعت عنها وعن أدبها وثقافتها.

فتبسمت مي، وقال إلياس:

- مثلك كاتب وشاعر فذ يستحق كل التقدير، ويتشرف كل صالون أن تحضره، لا مجلس متواضع مثل مجلسنا.

فقالت مي:

- نسمع عنك يا صاحب القلم البليغ، وعن بيانك الفخم، ونقرأ في تاريخك فرأينا حجم علمك وسعة اطلاعك على علوم العربية وصنوفها، فتبين لي أنك شاعر قدير، وكاتب بليغ كبير، ومؤرخ بصير.

- هذا من حسن ذوقك آنسة مي.

- ليس ذوقي فحسب، بل هذا الذي يفرضه الذوق الأدبي السليم والملكة اللغوية، أنت أستاذنا كلنا.

فقال بتواضع جم:

- أستغفر الله..

- هذا الحق..

وقاطعهم إلياس زيادة مستأذنًا الخروج لبعض حوائجه.

فقالت مي متوددة إليه:

- قرأت الجزئين الأولين من التأريخ، وأنا أنتظر الجزء الثالث الذي تأخر، أليس كذلك؟

فقال وفيه نفسه رغبة جامحة للكلام معها يمنعه خوفه من السقوط في هاوية عشق جديد لا رغبة له في خوضه:

- بلى، ولكنه يحتاج لعمل جهيد، وقتي ضيق، لكن سوف أسعى جاهدًا لأن يتم في القريب العاجل .

فقالت مستدركة:

- أجل، أعلم أنك موظف في المحكمة، نسأل الله الإعانة، فأمثالك يجب أن يكونوا متفرغين للأدب فحسب.

- نعم، وهي أمنيتي التي أرجوها.

- حزنت لعدم فوز نشيدك في المسابقة، وقد انتقدت نشيد شوقي.. (قالتها وفي عينيها نظرات ذات معنى)

- نعم، قرأته.

ففرحت وسرت بها نشوة بعد أن قال كلمته الأخيرة، كم أنا محظوظة أن يقرأ نقدي نابغة مثل الرافعي ويبدو عليه علامات الإعجاب، فقالت له وهي تشرق ابتسامًا:

- ولكن أنت قمت بعمل رائع في ما فعلته، وصار لنشيدك (إلى العلا..) شهرة قد غلبت شهرة نشيد شوقي الذي فاز.

فقال هو يداري خجله بابتسامة:

- هذا من فضل الله علي يا آنستي .

شعر هو يحاورها كأنَّ شيئًا ما يدفعه للحديث معها أكثر، ليبث شكواه وهمومه، شعر بشعور مقارب لشعوره عند لقاء عصفورة التي لقيها على الجسر، ترى أين ذهبت عصفورة؟ وهل ما زالت عند ابن عمها؟ هل سمعت بي وبشهرتي وبكتبي؟ وعدتني أنها ستنتظر ديواني، ولكن هل وصلها؟ الآن هي امرأة لها أولاد مراهقون، فهل قرأوا كتابي (حديث القمر)؟ أو ديواني ووصل صدفة ليد عصفورة؟ آه على أيام الشام ما أجملها وما أنداها.

- وهذه التي تتغزل بها في ديوانك هل هي حقيقية؟ ما قصتها؟

فتنهد وقال بيأس:

- نعم، وهي لبنانية، كنت في زيارة إلى لبنان عام ١٩٠١م لبعض أقاربي، فرأيتها هناك وهمت بها، قابلتني بنفس الحب، ولكنها سميت لابن عمها ورحلت..

كيف هجمت بغتة علي؟ لم أكن أوقع أنها ستباغتني بهذا السؤال، اقتربت من قصصي العشقية ودانت منها، كم هي بالغة الجرأة وأنا الرجل الذي تجاوز الأربعين لو أردت أن أصل لهذه النقطة لاحتجت لدهر، وهي تفجأني من أول حوار!

- وهل أنت كثير الزيارة للبنان؟

تريد التزود والاستفسار، لم؟ لم هذا التحقيق؟ ماذا تريد من هذه التساؤلات؟ هل يعقل مجرد تعارف فحسب؟

فقال مجيبًا بإجابة مقتضبة:

- لي أقرباء هناك، فأصلنا من طرابلس الشام.

- ولكن لفلسفة الحب عندك شيء آخر، ومذهب ظريف طريف، يستأنس به القارئ، في أسلوب بلاغي عال لا يصدر إلا عن نابغة ومفكر مثلك وبحجمك.

آه دخلت إلى العمق، وصارت تتحدث عن فلسفة الحب، إلى أين ستصل بي هذه الفتاة المجنونة؟ هل تريد أن تجبرني على حبها والهيام بها؟ ألم تنهي تحقيقها بعد؟

وشعر مرة أخرى في رغبة في الحديث معها، فقال:

- الحب هو مأدبة كبيرة للأدب نقتات منها، ولكل مجتهد منا نصيب معلوم، أنا أومن إيمانًا تامًّا أن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق.

أما استطعت يا مصطفى أن تكظم نفسك المتأججة بالحب؟ حتى تفصح عن ما في نفسك دفعة واحدة، وتاركًا كلماتك تتهادى كقنبلة موقوتة قابلة للانفجار في روضة مي الندية؟

فقالت باسمة ضاحكة:

- يا ويلي.. (وأردفت بلهجة تجمع بين المزاح والجد) لعلك يا أستاذنا ستجرفنا بفلسفتك هذه إلى واد عميق، ومعترك صعب، إذا قيمنا الأدب والنبوغ فيه بقدر حبنا ومشاعرنا.

فقال الرافعي مؤمنًا بما قاله:

- هذا رأيي، وقد لحظته من خلال اطلاعي على الآداب.

- أنت سوف تدخلنا في باب شاسع، وربما ستصنع لنا بابًا ظريفًا في النقد، إن كان ميزانك هو الحبُّ والعشق.

فقال موافقًا:

- واللغة والنقد بابان شاسعان يتحملان مثل هذه الأبواب الظريفة.

فقالت وهي تلمح:

- إذن تزعم أن حافظًا ليس بشاعر.

- لم أقل أنه ليس بشاعر.

- ولكن من خلال ميزانك نفيت عنه النبوغ في الأدب، فهو من المقلين في الغزليات كما تعلم.

- نعم، هو شاعر اجتماعي بارع، ولو كان حاذقًا في لغزل لكان بحق شاعر العصر الأوحد.

- سوف يأتي بعد قليل ولنقل له قولتك هذه.

- وأنا قائل له قولي هذا منذ زمن، فهو من أصدقاء العمر.

- حدثني عنك، (وأردفت مازحة) وقيل أنَّ خطك رديء.

فضحك، وفرح لمزاحها العبق، وقال:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- قدر الله علي أن لا أحسن الخط ولا اللغات.

فقالت مازحة مع ضحكة تنم عن راحتها معه:

- وأنا أحسن خمس لغات، أما خطي فسأريك.

وأخرجت ظرفا ونظر إلى الغلاف فإذا بخط أنيق، كأنه كتب على آلة كاتبة، فتعجب الرافعي وجورج من هذا الخط الرائع حقًا.

فقالت وهي تفتح بابًا للقاءات قادمة:

- لا تخف، فأنا موجودة ومستعدة لتعليمك مبادئ اللغات والخط.

- أشكرك، فوقتي كما تعلمين ضيق والأعمال كثيرة.

- المهم أني مستعدة لتعليمك، ومن ذا الذي يتاح له أن يعلم إمامًا مثلك؟

شعر أنها تغازله من وراء حجب، ورأى فؤاده يطرب لكلماتها وضحكاتها التي أعادته إلى تلك الربوة التي فتحت عليه سبل البيان، هل يعقل أن الحب يذكر بعضه البعض؟ ألا يغار على نفسه؟

ربما هو شعور واحد يتبختر في أعماقنا، ولكنه شعر بضعف ووهن يغزوه منها.

وبينما هو جالس معها وجورج يراقب ألحاظهما دخل رجلان الأول كهل تبسمت مي له، والثاني أعمى، لم ير ابتسامتها ولكنه يطرب لصوتها، فقالت مي بابتهاج لجورج والرافعي: تعالا أعرفكما على الأستاذ لطفي السيد، والدكتور طه حسين!



عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال الرافعي:

- لما بلغني كتاب إلياس بك والد مي فرحت فرحًا كبيرًا لا يوصف، لم أكن أبصر إلا بعين التطفل لمعرفة سر تلك المرأة وكيف فعل الأمير فعلته معها، محوت صورة تلك الفتاة المتعلمة التي كنت أراها في بعض الصحف صدفة، ورسمت لها صورة ثانية، فلما جاء كتاب أبيها ظننت أن القدر سخرها لي، وأنها لم تخلق إلا لي، وهذه الفكرة التي استبدت على تفكري.

- سحر الحب قبل اللقاء؟

- لمَ لا؟ وقد سوغ قبول هذه الفكرة لقائي بها، فرأيت امرأة ناضجة مفكرة فيلسوفة.

- فيلسوفة؟

- أجل، في ظل انعدام وجود النساء على الساحة الأدبية، كانت كنزًا.

- ولم تزل؟

- سوف نراها غدًا، ونعرف.



(١٣)

يا حبيبتي، كلُّ دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنما بعض الفكر والحس لا بعض الزمان والمكان.

ما أن سمع باسم الرافعي حتى عادت به الذكريات، وطوى تاريخه كله، ونسي باريس بحلوها ومرها، ونسي الجامعة وشهادتي الدكتوراه، ولم تتوقف به الذكرى إلا عند مشهد قبل خمسة عشر عامًا في (الجريدة) عندما كان الرافعي لا عمل له إلا الشعر، وكان طه مع زملائه في الجريدة، فسلم الرافعي عليهم وكان مشهورًا معروفًا عندهم، وصافحهم واحدًا واحدًا إلا هو، لم يا ترى لم يصافحني أو يسلم علي؟ أكل هذا العداء لرجل ضرير مثلي بسبب كلمة كتبتها وكنت ناقدًا لا حاقدًا؟

ومد طه حسين يده للرافعي مصافحًا، وكان الرافعي قد امتعض من وجوده، وسلم على أحمد لطفي السيد الذي لم يكن يستطيبه أيضًا، لقد كانت بين الرافعي وطه ولطفي بوادر خصومة لم تبدأ بعد، بل خصومة صامتة تلحظها الألحاظ وتضمرها القلوب، ولم يكن الرافعي يرى بطه ندًا يستحق الوقوف أو المجاراة، ولطفي لم يكن فارسًا في الأدب ساطعًا وإن كان الرافعي يقدر جهوده التي بذلها في سبيل ترجمة الفلسفة اليونانية ويشجعه على المزيد.

وبينما هو سارح عادت الآنسة مي لتكمل حديثها الذي تمنت أن لا ينتهي.

فقالت :

- أتمنى أن لا يأتي أحد، وأن أخصص الجلسة كلها لكما.

فتبسم الرافعي وجورج من حديثها..

وقال الرافعي :

- لنا أحاديث طوال لن تنتهي.

- حتمًا.

وبينما هما يتجاذبان الحديث دخل حافظ، فتفاجأ عندما رأى الرافعي، وعانقه، وجلس عنده.

وقال:

- كيف عرفت الطريق؟ أتأتي إلى القاهرة ولا تزورني؟

- كانت دعوة من السيد إلياس فلم أحب أن أتأخر عليه.

فقال (دون أن يكتبها له)

- من إلياس أم..!

وبعد أن كمل الحضور قامت الآنسة مي كعادتها، وأخذت تلقي محاضرتها، وكانت هذه المحاضرة عن عالم الألحان والموسيقا وعملها في مصر، وأخذت تطنب في الحديث عن الكلمات وأثرها وأفضليتها على اللحن في الغناء، وهي تتكلم والكل مصغ إليها بشغف قام الرافعي هامًّا بالذهاب، فأشار اليها الخادم حسن.

فأوقفت المحاضرة وقامت أمام الكل لتودعه وتوصله إلى الباب، وبعد أن أوصلته مع رفيقه إلى الباب، قالت له:

- متى تأتي مرة أخرى؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- قريبًا.

- حدد موعدًا يا أستاذنا.

- الثلاثاء.

- لا تتأخر، موعدنا الثلاثاء القادم.

وعاد إلى بيته في طنطا وهو على غير حال، دخل بيته ثم جلس في مكتبه، فدخلت عليه زوجه، وقالت له:

- ما بك يا مصطفى؟

- لا شيء.

- ولكنك متعب، ولا تبدو على ما يرام.

- لا شيء، مجرد إرهاق وتعب من السفر.

ثم خرجت لتجعله يتمتع بهدوء تام كما اعتادت.

وجلس وهو يفكر بمي، وما ألم قلبه، هل يعقل حب جديد؟

وإن كان حبًّا جديدًا، ماذا سيحصل؟ لا يوجد سبيل للتقرب منها أو الزواج منها، فهي مسيحية منفتحة، وأنا المسلم المنغلق، وهل يرضى الرجل أن تجلس زوجه مع رجال كثر يتغزلون بها، وينظرون لحركاتها وسكناتها؟

لا طبعًا، ولكن مي كذلك، وهي محبوبة عند الكل، وتعودت جو الانفتاح، وهي سافرة، ولكن الحب يبدد كل تلك العراقيل ويمحوها محوًا، بلى وهو كذلك.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

مضى يوم وهو كذلك. وقرر أن يرسل لها مؤلفاته، فجمعها وضبها وأخذ يكتب رسالة لها مع الكتب:

(الآنسة ماري إلياس زيادة المحترمة..

أما قبل؛

لم يقولوا في لغتنا (أما قبل) كما أقول أنا يا حبيبتي، ولم تخطر لأحد قط ولا يصححها وجه ولا تعليل، ولكني أضعها من أجلك، وما أشك أنها ستكون عبارة معشوقة من أثرك وأثر الحب عليها: وأقولها لك ولا أرتاب في أن ألسنة المحبين سترمي بها في كل زمن مراميها عند حبيبة..

إنها كلمة حنانة، فيها الحب والذكرى، وفيها من نفسي ومن اللغة ومنك، وهي غريبة بالغة الغرابة لأني صنعتها صنعة قلب لا صنعة لسان، ففيها الفن أي سر الحسن، أي حروف التصوير، أي المجلس الذي كان لنا أمس.

ويد المصور الملهم الحاذق لا تمر على الصورة بحركات الرسم وخطوطه، بل بحركات الفكر والقلب، ورعشات اللذة والألم، مستفيضة بالوحي الذي من لغته الخطوط والإبعاد والظلال والألوان. فما الرسم الوجه الممكن لاتصال الإنساني من الفكر بالإلهي في الأشياء لخلقها مرة ثانية. وكذلك ليست (أما قبل)إلا الوجه الممكن عندي لاتصالي بأمس، وانتقال قطعة كانت من وجودنا في وقت إلى وجودنا في كل وقت، وخلق ما كان من قبل خلقًا تصويريًا في كلمة.

قالوا (أما بعد) وسموها فصل الخطاب، وأنا أقول (أما قبل) وأسميها وصل الماضي، وبها نجعل لما فاتنا مما نحبه أو نؤثره لسانًا، ونعيد إليه الصوت ؛ ونفتح له باب الساعة التي نكون فيها، ونخترع للمحبين لفظًا

سحريًا لم تستطع حواء بجنة خلد أن توحيه لآدم ، وأوحيته أنت لي بمجلس حبك في لحظة!

(وأما قبل)... فماذا أصف مكانًا للحب كأنما مر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه نقصانًا من العمر بل زيادة عليه، وكانت، يا حبيبتي، كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنما بعض الفكر والحس لا بعض الزمان والمكان.

بماذا أصف الوقت الغض الذي كان ينبت لساعته رطبًا نديًّا كأنما انبثق من قبلتين، لأنه مر بهواء حجرتك التي أنت فيها، ثم جعلني أعرف، بعد أن فارقتك ولقيت الناس، أن الزمن قد يكون من جدبه في أنفاس الناس حطبًا يابسًا وهشيمًا؟

وبماذا أصف ما لا يوصف ولا يوجد بيانه في اللسان مع أنه حي قائم في العين والضمير: إذ أشعر بك بذلك المجلس وكأن أكثر معانيك الإنسانية تتهارب من حوله لتسبغ عليك من اللطف معاني ملائكية سمية تتكلم بوجهك كلاما هو شعر الحب؟

إذا أشعر من شدة ما وجدت بك ووطأة حبك على قلبي، إنه لو حل في كرسيك شخص من معانيك لما كانلاإلا ملكًا موترًا في إحدى يديه قوسًا محنيّة من صاعقة، وفي يده سنان يمور كالشعلة، وهو يرمي ويطعن وما يرمي ويطعن إلا لحظًا وابتسامًا؟

بل بماذا أصف ما لا يوصف إذا أرادت بلاغتي أن تكون على مقدارك وأنت تلجين على قلبي من كل جوارحي، وأراك أمام عيني تحولًا مستمرًا في خواطري ومعاني، فلا أملك أن أفكر في شيء ثابت، كأن دلالك قد سلبني حتى قوة التحديد، ويأتي لك أن يخضع لي منك شيء ولو بالمعنى للفظ في الذاكرة؟

(وأما قبل).. فلقد كنت وما أحسن منك في جملة ما أرى إلا أن الجمال الرائع في معانيه الإنسانية إنما هو قدرة في بعض النساء على اختراع أمثلة أرضيّة من الجنة.

وكنت وما اشعر من سحرك إلا أني بإزاء سر وضعني في ساعة من غير الدنيا وحصرني فيك وحدك، حتى ليس لك من نظرة ولا كلمة ولا حركة إلا خيل لي أنها لم تكن امرأة، إذ لا توسمك في الحسن امرأة!

وهاجمتني من يقظتي واقتحمت علي من حذري وتركت بعض أفكاري من بعض كالمجروح يمشي على المقتول في معركة ورمتني بما لا أجد له اسمًا إلا أنه زلزال روحي عنيف كان في قلبي، أو كأن يدًا امتدت إلى قلبي فنالته فضغطته!

وخليتني وعينيك، وخليتني وما كتب علي!

وضاعفتك رهبتك في نفسي فكثرت وكثرت، وضاعفتني أيضًا فزدت وزدت، حتى أن مع كل قوة في عادت فكرة حبك قوة أخرى.

واتسعت روحي لتشملك! فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين في غرفتك ولكن في داخل نفسي!

وكان نور الكهرباء وهو يشع في وجهك يغمغم أيضا بكلمات من النور لتلك الشعل التي اضطرمت في قلبي!

وملأت حياتي بك وعرفتني من ذلك أني كنت من قبل حيًّا من الأحياء الفارغة..

وأشعرتني أجمل السعادة، سعادة نسيان الوقت، كأني هنيهة خلقت لي وحدي تجري بي وبك فوق المقادير.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ثم دفعت بي إلى ما وراء السعادة إلى منطقة الأحلام التي لا يكاد يصدق الإنسان فيها أن الحقيقي حقيقي!

ثم رفعتني إلى حس خالق، فإذا أنا أرى كيف تخلقين في خلق معانيك لتعود معانيك فتخلقك كما أحب وأهوى وتحقق بجمالك فن عاطفي وتنشئ بعواطفي غرامي.

(وأما قبل) فقد كنت موجودة معي لكنك ضائعة فيَّ، إذ كنا من وراء الشكل الإنساني كالعطر والنسمة الطائفة به.

وكنت أمامي ولكني أحتويك، وما أدري كيف كنت مملوءًا بك وأنت أمامي!

وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق أمامنا ويلثم بعضها بعضًا من حيث لا تراها إلا عيناي وعيناك.

وكنت أقطف الحياة بالتنسم من أهواء شفتيك، وكأن هذه الأنفاس في فرع ممدود من شعاع الشمس في روحي.

وتراءت النفسان فملأنا المكان بأفراح الفكر، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة، وهو عطرها للنظر.

وقلت لي بجملتك: أنا.. وقلت لك بجملتي: وأنا!

(وأما قبل).. فقد رأيت عند الفجر وأخذت منه نهارًا في روحي لا يظلم أبدًا.

وخالطت عندك الربيع، وانتزعت منه حديقة خالدة النضرة في نفسي لا تذبل أبدًا!

وجالست عندك الشباب، وترك في قلبي من لحظاته ما لا يهرم أبدًا!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

واجتمعت عندك بالحب، وكشف لي عن مخلوقات الكون الشعري الذي تملؤه ذاتي فلا ينقص أبدًا!

ورأيتك يا فجري، وربيعي وشبابي، وحبي فلن أنساك أبدًا!

وأما قبل..!

مصطفى صادق الرافعي

طنطا / ١٩٢٣م)

ووضع الرسالة فوق الكتب وجهزها للإرسال، ولكنه شعر بوخزة الضمير نحو زوجه، نفيسة التي هي أنفس هدية وصلته من آل البرقوقي، هي فتاة أحلامه التي تمناها فاستجاب له القدر وتعانقت الأسباب فكانت نفيسة زوجة صالحة، وهي فتاة الأحلام التي نسجت الأماني عليها، وبعد ثمانية عشر عامًا من العشرة الطيبة وهي المتحملة لمرضي وفقري ومزاجي الباحث عن السكون الدائم، وفي النهاية وبعد أن تخطيت الأربعين أخونها؟ لا لم أخنها، ولكن القلب وما هوى، وإني أديب فحق لي أن أعشق وأحب، وحبي حب سام عن المحسوسات والملموسات والشهوات، بل حب عذري نقي، ولكن هي خيانة أن يحدث الرجل امرأة ويغازلها، ولكن هذا لا ينطبق عليّ وأنا الكاتب الشاعر، كيف لا ينطبق وأنا الإنسان قبل أن أكون الكاتب والشاعر؟

وجال فكره ساعيًا لإيجاد تعليل يقنع به نفسه ويرضيها عن ما ألم بها من عتاب الضمير ولكنه فشل في إيجاد ذلك التعليل المقنع لضميره، فهم بفعل ما لا بد منه، ولكن شيئًا يجذبه ويمنعه، وبين التردد فيما يود فعله كبح هواه وقام بفعل ما يرضي ضميره ويريحه، فنادى على زوجه.

وجلست صامتة واجمة. فقال متمهلًا:

- يا نفيسة بيننا عيشة طويلة، وتعرفين مدى حبي لك وهيامي بك، وأنت منحة إلهية بعثت لي.

ولم تنبس ببنت شفة فهي تعلم أن وراء كلامه هذا كلام يتوقع هو أن لا يرضيها فهو ممهد لها، ولكنها ابتسمت ابتسامة باهتة مجاملة له. فأكمل قائلًا:

- خلاصة ما أريد قوله أني واقع في حب سيدة ثلاثينية، شابة جميلة، شاعرة أديبة فيلسوفة، مثقفة، قد تكونين سمعت بها، مي زيادة، الأديبة اللبانية بنت السيد إلياس افندي زيادة صاحب (المحروسة).

فقالت وهي تأخذ نفسًا عميقًا ينم عن حزن عميق مكبوت:

- أعرفها من مقالاتها.

- نعم هي، وأنا أحبها، وكتبت لها رسالة غزلية، أريد أن أبعثها لها مع مؤلفاتي، وتعرفين، أنا رجل لا أقوى على الخيانة، فأستسمحك في مراسلة الآنسة مي. وهاك الكتاب الذي كتبته لها.

ثم مدها بالرسالة، وقرأتها، واستدار إلى الجهة المقابلة، لكي يتركها تقرأ على مهلها. ومدت له الكتاب وعيناها تترقرق بالدموع، وقالت بصبر وتجلد:

- راسل من تشاء على شرط أن أقرأ كل كتاب يأتيك منها، وكل كتاب تكتبه لها قبل أن ترسله لها.

فقال وهو مشفق عليها ومبتسم ابتسامة الإشفاق:

- لا بأس في ذلك.

ثم خرجت. كان الألم يحز قلبه، كم هي صابرة متحملة؟ يرق قلبه لها، يهم أن يخرج عليها ويعانقها ويقول لها: يا حبيبتي ويا نفيسة قلبي أنت

السلطانة على هذا الفؤاد، ولن أراسل مي أو غيرها بل أنت وحدك، ولكن صورة مي قد حضرت في ذهنه، فتوقف، مي ملكت قلبه وتسلطنت عليه، لم يعد يستطع أن يمنع نفسه من مراسلتها، ولكن نفيسة امرأة قاسية جدًّا! أجل قاسية بطيبتها، كان يريدها ويتوقع منها أن تصرخ في وجهه، وتقول: له لا أرضى بذلك، أنت لي وحدي، لن تراسل أحدًا.

لكان ذلك مسوغًا للاستمرار بالمراسلة، وتكون دأبها دأب كل امرأة غيور، تتعارك معه، تتذمر وتصرخ بوجهه وكأنها ستحتضر إن راسل وحدّثَ سواها، ولكن نفيسة كانت أكبر من ذلك، نفيسة قد قست عليه، وتركته في خيبته، كيف ترضى أن يراسل زوجها امرأة شابة جميلة ويغازلها، والأدهى من ذلك أنها تريد مراقبة علاقتهما، ولن يستطيع أن يقابل لينها بقساوته أو قساوتها بلينه، آه..ماذا لو صرخت وندبت حظها علنًا؟ لارتحت، ولكنها فعلت ما يجعلني أرى نفسي طائشًا مذنبًا.

واستمر يحادث نفسه إلى أن مضى هزيع من الليل، ثم قام يسير بهدوء والأفكار تدور في رأسه وخرج إلى فناء المنزل ونظر إلى القمر، وصار يتأمل القمر المنير وسرعان ما تذكر أيام كفر الزيات وعصفورة، وتذكر كيف كان يناجي القمر في أمرها، وشتان بين الحبين، ثم دخل وبدل أن ينعطف لمكتبه سار إلى حجرته، وكان باب الحجرة منفتحًا فرأى نفيسة وهي جالسة في فراشها تنتحب، فوقف ينظر إليها وقد تضاعف ألمه وزاد، وهو يقول لنفسه: ليتني أستطيع أن أعمل شيئًا في سبيل سعادتك، ولكن كل حزنك وألمك هذا متعلق في هذا القلب، الذي لم يعد ملكي بل صار ملكها، وطوع أمرها، سبحان الذي خلق الحب، ولكن يا نفيسة لا ذنب لي فيما يهوى قلبي ويطلبه، وأنت تدركين ذلك، ثم عاد إلى مكتبته تاركًا نفيسة تنتحب وتاركًا شفقته تتألم، وتاركًا حبَّ مي ينتصر!

فتحت مي الرسالة فوجدته كلمات تترنم وتغازلها، فلم تكد تصدق، بل صارت تتعجب وتبتسم، وما أن أكملته حتى قالت:

- سوف يتفوق على (جبران) في رسائله وبلاغته وبيانه.

ثم أرسلت له ظرفًا. وفتحه بشغف وهو يراه كبير، ترى ماذا به؟

وإذا بكتابها (ظلمات وأشعة) وكتبت عليه إهداء إذ كتبت (أما بعد، فاليك يا صديق جواب: أما قبل والسلام!)

ومع العلم أن الكتاب صغير إلا انه تاه به، وصار يقرؤه وأكمله، مفتشًا عن جمل تعنيه أو كأنها كتبت له، ويقول هذه.. بل هذه، وهو مترقب منتظر، إلى أن وصل إلى نهاية الكتاب، فقرأ بصفحاته الأخيرة هذه الكلمات وهو مضطرب وقلبه يخفق سريعًا إذ شعر بكلماتها التي كتبتها له قبل أن تعرفه:

(لقد التقينا وسط جماعات من المتفقين فيما بينهم للضحك من سواهم حينًا والضحك بعضهم من بعض أحيانًا.

أنا منهم وإيّاك، غير أن شبهك بهم يسوؤني، لأني إنما أقلدهم لأريك وجهًا مني جديدًا؛ وأنت، أتجاريهم بمثل قصدي أم الهزء والاستخفاف فيك طوية وسجية؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف؛ ورغم امتعاضي للتغافل منك والحبور، أراني وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثر.

بنظرك النافذ الهادئ تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به، فصرت ما ذكرت إلا ارتدت نفسي بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم، متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق)

(وسأدعوك أمي وأبي، متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر، وسأدعوك قومي وعشيرتي، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دومًا بالمحبين، وسأدعوك أخي وصديقي، وأنا التي لا أخ لها ولا صديق، وسأطلعك على ضعفي، واحتياجي إلى المعونة، أنا التي تتخيل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد!

وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري، وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك السبل، وإذ أسيء التصرف وأرتكب ذنبًا، أسير إليك متواضعة واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة، وقد أتعمد الخطأ لأفوز بسخطك عليّ فأتوب على يدك وأمتثل لأمرك!

وسأصلح تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن أعمالي حسابًا لأحصل التحبيذ منك أو الاستنكار فأسعد في الحالين، سأوقفك على حقيقة ما ينسب إليّ من آثام فتكون لي وحدك الحكم المنصف.

وما يحسبه الناس لي فضلًا وحسناتٍ فسأبسطه أمامك فتنبهني إلى الغلط فيه والسهو والنقصان.

ستقومني وتسامحني وتشجعني وتحتقر المتحاملين والمتطاولين لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جناني: كما أذب أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك، ولا أصدق سوى نظرتي فيك وهي أبر شاهد، كل ذلك وأنت لا تعلم.)

(سأستعيد ذكرك متكلمًا في خلوتي، لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك، حكاية البشر المجمعة في فرد واحد، وسأسمع إلى جميع الأصوات عليّ أعثر فيها على لهجة صوتك، وأشرح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكاري، وسأتبين

عصير الكتب للنشر والتوزيع

في جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هي شاحبة تافهة لأنها ليست من تعبيرك ومعناك، وسأبتسم في المرآة ابتسامتك في حضورك، وسأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك!

سأتصورك عليلًا لأشفيك، مصابًا لأعزيك ، مطرودًا مرذولًا لأكون لك وطنًا وأهل وطن، سجينًا لأشهدك بأي تصور يجازف الإخلاص، ثم أبصرك متوقًا فريدًا لأفاخر بك وأركن إليك.

وأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب، وكيف تشتاق وكيف تحزن، وكيف تتغلب على عادي الأفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل؟ وسأتخيل ألف ألف مرة إلى أي درجة تستطيع أن تقسو، والى أي درجة تستطيع أنت أن ترفق، لأعرف إلى أي درجة تستطيع أنت أن تحب!

وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخورًا، لأنك أوحيت إليّ ما عجز دونه الآخرون.

أتعلم ذلك، أنت الذي لا تعلم؟ أتعلم ذلك، أنت الذي لا أريد أن تعلم!

(من أنت؟..ماذا كنت؟ أكنت وحيًا من فيض شاعريتي المكتظة، وطيفًا من أطياف شوقي وعذابي؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرت في أفق حياتي مرور السفن في البحر إلى الشواطئ النائية؟

يا مهذبي!)

ونقل الرافعي ما شعر انه مكتوب له إلى ورقة، وأخذها وأعطاها لزوجه. وتركها تقرأ الورقة وهو يرمقها من حيث لا تراه ويتلصص عليها بين الفينة والأخرى، فيراها تقرأ بها وهي تبكي.

فتعود حسراته على زوجه الطيبة، ولكن تلك كانت مسيطرة عليه اقوى من ذلك بكثير. وبعث له رسالة أخرى تشكره على كتبه:

(سيدي..

رسالتك التي كانت هي الأخرى قصيدة من قصائدك، جاءت في الواقع (أما قبل) تبشر ب (أما بعد)..

جاءت ديباجة حسناء شغلت مني نهارًا بتمامه، محدثة عن مجموعة مؤلفاتك التي أقبلت في اليوم التالي. وإني حيال هذه المجموعة المنوعة، وكلمات الإهداء المرسلة على صفحاتها الأولى..بدقة زهرات آذار وبهائها، لأشعر تارة بأني عند روض من الفضل والشعر ناضر، وطورًا أمام يمٍّ من نوعه زاخر، وسأكون طائف الربيع يتجول بين أعطاف الرياض، مستوحيًا ما فيها من وشي وعبقر، ثم أكون الغواص يهبط الأغوار ليغلبها ولو على بعض ما حوت من در وجوهر..

وإني لشاكرة لك ما أتحفتني به من الآيات الصادقة الرافعية، راجية أن تقبل شعائر إن تعذر على تجميلها بالتشطير أو التخميس، فحسبي أن منثورها ضمن دلائل الإعجاب والإكرام.

مي زيادة- آذار- مارس ١٩٢٣م)



قال الرافعي:

- وهكذا بدأ حبنا، بلا مقدمات تذكر، ما أن التقيت بها حتى وجدت نفسي أميل لها ميلًا عظيمًا، بل هو نفس الشعور الذي اعتراني بعد أن التقيت بعصفورة قبل ذلك التاريخ باثنين وعشرين سنة. وهكذا جاء الحب إليّ ساعيًا، فأجبته.

فقال العريان:

- وكيف آمنت فجأة أنها تحبك؟

فقال الرافعي منفعلًا:

- إن لم يكن غير الحبِّ فماذا؟

- إعجاب مثلًا.

- وهو من تعجب به تكتب ما كتب من نصوص الكتاب؟

- ومن قال لك أن ما اقتطعته من (ظلمات وأشعة) ووضعته في أوراق الورد هي لك؟

- قلبي قال لي ألا يكفي؟

- إذا نظرنا إلى القصة من كل أطرافها فإنه غير كاف.

- وأنت لم تشعر بالحب حتى تتكلم هكذا..

- ولكني أرى عاطفتك المتوهجة فجأة في رسالة (أما قبل) تعبر عن حاجتك للحب في تلك الفترة، ومعانٍ مضطربة في نفسك، لا حبٍ صادقٍ كما ظننت، يعني ما زلت إلى الآن أشك إذا كانت مي قد أحببتك حقًا.

- تشك؟

- أنت حاد المشاعر يا رافعي..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٤)

للعلا أبناء مصر للعلا

وبمصر شرفوا المستقبلا

كان يمشي في شوارع القاهرة، وإذا بسعد زغلول ينتظره وهو مستبشر فرح وإذا بالزعيم يطلب من الرافعي نشيده الذي نظمه، والنحاس باشا يقف خلفه وهو يأمره بان يلقي نشيد الباشا، وكبار الوفد منتظرون الرافعي أن ينشد نشيده الفخم الذي سيكون صوت زغلول وهو صوت الشعب.

استيقظ الرافعي من المنام بعد ذلك الحلم. خرج إلى مكتبه وجلس في مكتبه، وأخذ يرج قدمه الأرض ويطقطق بأصابع يده على المكتب محاولاً كتابة نشيد (سعد زغلول) تحقيقا للرؤيا، ومضى على هذا حال برهة وصار يكتب.

وما أن انتهى حتى أعاد قراءته بصوت عال وأمام أولاده لكي يردوا خلفه:

نشيد سعد

اسلمي يا مصر إنني الفدا

ذي يدي إن مدت الدنيا يدا

أبدًا لن تستكيني أبدًا

إنني أرجو مع اليوم غدا

ومعي قلبي وعزمي للجهاد

ولقلبي أنت بعد الدين دين

لك يا مصر السلامة

وسلاما يا بلادي

إن رمى الدهر سهامه

فأتقيها بفؤادي

واسلمي في كل حين

أنا مصري بناني من بنى

هرم الدهر الذي أعيا الفنا

وقفة الأهرام فيما بيننا

لصروف الدهر وقفتي أنا

في دفاعي وجهادي للبلاد

لا أميل لا أمل لا ألين

لك يا مصر السلامة

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ويك يا من رام تقييد الفلك

أي نجم في السما يخضع لك؟

وطن الحر سما لا تمتلك

والفتى الحر بأفقه ملك

لا عدا يا أرض مصر بك عاد

إننا دون حماك أجمعين

لك يا مصر السلامة

عصير الكتب للنشر والتوزيع

للعلا أبناء مصر للعلا

وبمصر شرفوا المستقبلا

وفدي لمصرنا الدنيا فلا

تضعوا الأوطان إلا أولا

جانبي الأيسر قلبه الفؤاد

وبلادي لي هي قلبي اليمين

لك يا مصر السلامة

وما أن أكمل حتى رأى زوجه وأولاده واقفين وهم يرددون (لك يا مصر السلامة)..

فقال:

- هذا النشيد كتبته على لسان الزعيم (سعد زغلول) وهو يمثل صوت الأمة، وهذا ما يجب أن يكون عليه القائد، وهذه الكلمات هي لمن يستحق الريادة والقيادة والرياسة.

- ولماذا لا تكتب صوت الملك؟ (قالتها ابنته وهيبة)

- لأن سعد هو صوت الشعب لا الملك.

بعث بالنشيد إلى الزعيم سعد زغلول في منفاه بجبل طارق، وكتب معه:

(هذا نشيد كتبته على لسانك، فأنت صوت الأمة، وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر في كل فرد من الأمة على قدر استعداده، ويبقى اسمك الجليل مع كل مصري على الدهر ليكون مصدرًا من مصادر إمداده.

ويقولون: إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية. وأنا أقول انهم هم يتقربون به إليك، ويجدون منه الوسيلة لتقبيل اسمك المحبوب إذ لا يستطيعون مثلنا تقبيل يدك، ويجدون في كل زمن من شرح هذا الاسم الكبير أنه الرجل الذي خط قلم الأزل بيده كتاب نهضته الكريمة، واختاره الله للامة كما اختار الأنبياء إلا أنه نبي الفكر والعزيمة.

وأسأل الله يعجل فرجكم.

محبكم

مصطفى صادق الرافعي

طنطا ١٩٢٣م)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وكتب لهذا النشيد القبول وراج بين الطلبة، ومحبي سعد من الوفديين ، ونغمه الموسيقار منصور عوض وصفر علي، وانتشر لحن صفر علي بين الناس.

وتم اختياره النشيد القومي للدولة.

وكان في الجريدة عند أحمد زكي باشا، فقال الرافعي معاتبًا:

- يا باشا نشيدنا (نشيد سعد) صار النشيد القومي كما تعلم..

- مبارك..ويستحق.

- ولكن لم أر منك إطراءً أو مدحًا أو ثناءً.

- معك حق، وماذا تريدني أن أكتب لك؟

- أكتب عن رصانته ومتانته، وبلاغته، والمعاني التي كتبت وهي بحق تمثل صوت الشعب.

فدفع له ورقة وقلمًا، وقال له:

- أكتب ما تريدني أن أقوله، وسوف ينشر غدًا.

فكتب الرافعي ما يريد الباشا أن يقوله عن نشيده، وفي اليوم التالي قرأ الناس مقالًا ضافيًا عن نشيد سعد للرافعي؛ بقلم أحمد زكي باشا!



كانت الآنسة مي قد جلست على (البيانو) لتعزف، وكان ضيوفها لطفي السيد، وخاتون صديقتها، ويعقوب صروف، وخليل مطران.

وأخذت تعزف وتغني بصوتها الجميل الذي يخترق قلوب محبيها:

اسـلمي يـا مصـر إننـي الفـدا

ذي يـدي إن مـدت الدنيـا يـدا

كانت تغني وصورة الرافعي ماثلة أمامها وكأنها تغني له، ولكنه لن يسمعها حتى وان حضر أمامها فهو أصم، وكان ذلك الخاطر يزعجها وينكد عليها خواطرها الشاعرية.. إلى أن أكملته بصوتها الرائع (لك يا مصر السلامة)

فصفق الحضور.

فقال لطفي السيد وهو يغمزها:

- أراك معجبة جدًّا بكلمات نشيد سعد.

فقالت له بلهجة العاتب:

- سوف تجعلني أشك في ذوقك الأدبي يا أستاذي.

- يا سلام، تلميذتي تشك بذوقي، هل نسيت من علمك العربية وآدابها؟

- لا، لم أنس، ولكنك تعتب علي إعجابي بنشيد الأستاذ الرافعي، على الرغم من متانته ورصانته، وأنت تعلم أن مثل هذا النشيد يحتاج إلى رجل عبقري بمكانة الأستاذ الرافعي، موسوعي، ويغور في نفس المواطن المصري.

فقال في لهجة تنم عن إشارة لموضوع ما لم يفهم سوى مي:

- الله يبارك لك في الأستاذ الرافعي، الرجل الموسوعي الذي يغور في نفس المواطن المصري.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقالت خاتون:

- أنا كاتبتي الأولى هي مي، لا رافعي ولا غيره، ومن يعترض فمشكلته.

فضحكوا أجمعين.

- قد قرأت رسالته لي وما تحويه من بلاغة وحلاوة وطلاوة.

- أما قبل؟

- أجل..

- فعلًا تحفة نادرة

ثم قالت مي معيدة الموضوع مما يدل على اهتمامها:

- ورأيتم المقالة الضافية لأحمد زكي باشا في النشيد، وعلمت أنهم أعدوا كتيبًا فيه النشيد وبعض المقدمات والتقاريظ.

فصار لطفي السيد يحدث نفسه: ما لها تلهج بذكر الرافعي هكذا؟

لعلها وقعت بحبه، وأن الرافعي سيظفر بها؟؟ لا لا، غير معقول.

ووصل كتيب الرافعي إلى مي ولم يكن عندها إلا خاتون، وكان مكتوب على أولى صفحاته إهداء وكلمات، فقالت مي بعد أن قرأتها:

- الرافعي يمتحن تعلقي به، فكلماته كالعاتب الذي يشك فيَّ وقد استبطأني في الكتابة عن نشيد سعد.

- وهل صرح لك صراحة؟

فنظرت إليها بعتب وقالت:

- الرافعي يصرح؟ لا، ولكنه لمح، وأنا قلت لك كالعاتب ولم أقل عاتبًا، ما لك لا تفهمين العبارة؟

- لم يخلق لي ذوق لفهم العربية مثل ما فهمتها مي.

- أي فهم؟ هذا الطفل بعد النطق يفهمها.

فقالت ببلاهة -ومي تحب بلاهتها هذه-:

- أنا لست عربيّة اللسان، فتكاد تكون لغتي الأم الفرنسية.

فضحكت مي بظرافة، وقالت:

- أي فرنسية التي تحسنينها؟ أنت لا تدركين منها إلا الشيء اليسير جدًّا.

وكتبت مي إلى الرافعي بروح تفيض تغنجًا ودلالًا:

(سيدي:

وكذلك يغضب أهل البحور والأوزان.

أما إني أبطأت في إسداء الشكر على (نشيد السعد) فذلك لأن الشكر أنواع ولأني اخترت أن يكون الشكر شكري هذه المرة نشيدًا مترددًا، فأنشدت النشيد السعيد على توقيع البيانو كلما وجدت لذلك متسعًا من الوقت)

ثم كتبت إليه أبياتًا لإسماعيل صبري قد بعثها لها، فكأنها تريد أن تقول له: لست وحدك حولي. ثم تابعت وهي تعزف على مشاعره المتوهجة:

(ولست لأضن بها عليك... رغم اعتقادي دومًا أن الشعراء لا يعنون دومًا ما تضمنته منظوماتهم ولله الحمد.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

عسى أن تشفع هذه الأبيات في تصويري، وعلى كل فلست لأخشى أرباب القوافي والقريض، إذ كثيرًا ما يكون الغضب لهم وحيًا، والوحي في الدنيا هو كل ما ينشدون.

مي زيادة

القاهرة ١٩٢٣م)

دفع الرافعي كتاب مي إلى زوجه نفيسة لكي تقرأه، وكان قد لاحظ في رسالتها هذه أنها تحاول أن تبلغه أنه ليس الوحيد في عالمها ولا الأثير عندها، وإلا علام تبعث برسالتها أبيات صبري؟؟ يبدو أنها تحاول استجوابي ومعرفة مدى حبي لها وهيامي.

قالت نفيسة:

- تبدو أنها معشوقة الأدباء.

- ولم؟؟

- هل يخفى عليك؟ صبري يغازلها، وشوقي، وأنت، وألم تسمع بمراسلاتها مع جبران؟

وشعر بضيق وحرج، وجاءت به إلى أمور كان هو نفسه يتغاضى عنها، ثم أردفت:

- هل هي جميلة؟

كيف هجمت هكذا بلا تردد؟ كيف سيجيبها وهي التي تتوقعها أن تكون ضرة لها بين الفينة والأخرى؟

هل يقول لها أنها ساحرة شاعرة فيلسوفة؟ لو لم يصف جمالها وذكر ثقافتها لأدركت أنها امرأة رائعة. فقال دون تفاصيل:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- نعم هي جميلة.

ثم خرج إلى مكتبه. فقالت بعد أن ولى:

- لا بد أنها أجمل من طلعت عليها الشمس.

قال الرافعي:

- وبنشيد سعد عانقت ناصية التاريخ، أجل..فبسعد نرتفع، على رغم نقدي له فيما بعد، إلا أني أحبه، ولم أكتب نشيدي ذاك إلا حبًّا.. حبًّا فحسب، لم أرد منصبًا أو مالاً.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٧)

وهأنذا أضمك إلى قلبي، فمتى فتَحَتك فانثري عليها في معاني العطر لمسات العناق.

قبض مرتبه، فخرج إلى السوق مع أشرف بعد نهاية دوامه، وكان يبحث عن محل للعطور النسائية، وذهبا إلى صاحب أشرف وكان محلًا فخمًا، فلما شاهدهم صاحب المحل رحب بهم، واحتفى بالرافعي كثيرًا، فقال الرافعي:

- أريد عطرًا، هو هدية لسيدة لها عطر تضعه؛ أشمه من القاهرة كأنها تجلس جنبي فهل لك عطر فواح إذا وضعته ضارع عطرها ذاك؟

فقال صاحب المحل ضاحكًا:

- هذا عطر لن تجده عند أمثالنا من البائسين، فهو عطر القلوب وقد لا تجده إلا عندها.

فتبسموا ضاحكين. أخرج لهم عطرًا فخمًا، وقال مبتسمًا:

- ثمنه خمسة جنيهات.

فلم يتوقع الرافعي هذا السعر الباهظ لزجاجة العطر، خمسة جنيهات بحالهن يعطيها لصاحب هذا المحل من اجلها وهو قابض راتبه للتو؟ هذا يعني أن ربع الراتب تقريبًا سيسقط دفعة واحدة. وبعد معاملة صاحب المحل ولأجل صاحب القلم البليغ احتسبها بأربعة جنيهات فقط.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وعاد يجر الخطا وهو يفكر بالجنيهات الأربعة التي أنفقها في سبيل هدية لها.

ثم جلس منفردا ليكتب لها رسالة مع الهدية. فكتب لها:

زجاجة العطر

(يا زجاجة العطر اذهبي إليها، وتعطري بمس يديها وكوني رسالة قلبي لديها.

وهأنذا أنثر القبلات على جوانبك: فمتى لمستك فضعي قبلتي على بنانها، وألقيها خفيةً في مثل حنوّ نظرتها وحنانها ، والمسيها من تلك القبلات معانيَ أفراحها في قلبي ومعانيَ أشجانها...

مصطفى صادق الرافعي

طنطا ١٩٢٣م)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قرأت الرسالة وهي مبتسمة، ثم أمسكت زجاجة العطر وتعطرت منها، وقالت مخاطبة الزجاجة الآن خلد الحب.

(سيدي:

وصلتني رسالتك وزجاجتك، وقد أفعمت قلبي بالحبّ، شكرًا على هذا التعبير الجميل والبليغ، يا صطيف!

سيكون هناك لتأبين طيب الذكر (فرح أنطوان) صاحب مجلة (الجامعة) وعلمت أنك مدعو إلى هذا المهرجان، وسيكون هناك لقاؤنا.

مي زيادة

آذار ١٩٢٣م القاهرة)

- صطيف؟ على أي أساس تناديك بهذا؟؟ (قالها جورج للرافعي متعجبًا).

فقال وهو باسم:

- باعتبارنا حبيبين، وهذا ترخيم، وهو جائز نحويًا.

- ترخيم؟ هه؟ أنت تستغفل؟ أنت تدرك تمامًا أن ترخيمها هذا خاطئ، ولا يصح على قاعدة الترخيم.

- ولكن يصح على قاعدة الحبّ والهيام والغرام.

- قل هكذا من البداية. ولا أعلم متى أحببتها.

فقال الرافعي متغاضيًا عن كلامه الذي لا يريد سماعه لأنه حتمًا سيتكلم عن غزليات صبري وشوقي والعقاد وجبران وهو الأمر الذي لا يحاول استيعابه :

- هناك مهرجان تأبين (فرح أنطوان) أريد أن تذهب معي سوف أرثيه.

- وهل هو للسوريين خاصة؟

- لا، ولكن السوريين لهم النصيب الأكبر.

قد كان فرح أنطوان صاحب مجلة (الجامعة) التي احتفت بالرافعي شاعرًا، وبشرت بميلاده في دنيا الأدب والفكر العربي الحديث، رحل فرح أنطوان وهو في أوربا ولم يبقَ منه إلا الذكريات، رحل ذلك الأديب النابغة والمترجم الفذ، بعد أن كانت له يد سابغة رحيمة برة على الرافعي.

ليقف الرافعي راثيًا بقصيدة رائعة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وبعده اعتلت المنصة الآنسة مي خطيبةً وناعتةً لفضائله. وبعد أن أكملت جلست جنب الرافعي بعد أن ناداها علنًا.

وصار الأستاذ جورج يكتب له ما تقوله، فقالت له:

- شكرًا على زجاجة العطر!

- الزجاجة أعجبتك أم الرسالة؟

- بل الرسالة ذات العطر الفوّاح بحبك وهيامك.

- هو لك، وأنت صاحبة هذا القلب.

- لك اللّه، ماذا فعلت بي.

- بل أنت.

- ماذا أصنع لأن كنت جذابة؟

فتبسم، وقال لها ملمحًا:

- أريدك لي وحدي!

فقالت متغاضية عن إجابته:

- ما هي كتاباتك الجديدة؟!

كانت مي وسط محبيها ومعجبيها في صالونها يوم الثلاثاء، وكان من بينهم الرافعي، وبعد أن أكملت محاضرتها ونقاشاتها، قالت:

- اسمحوا لي أن أعزف لكم النشيد الوطني.

فصفقوا لها أجمعين. فقامت برشاقة ولباقة لتعزف بصوتها الندي : اسلمي يا مصر إنني الفدا..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كان الرافعي يرمقها وهو يلحظ الكلمات تتحرك في فمها وهو يتخيل كيف هو صوت رائع، تعزف وهم صامتون ولا حراك بهم. إلى أن أكملت فصفقوا لها أجمعين.

فقال الرافعي:

- أنا أشكر الآنسة مي على ما قمت به من إكرامي وشكري بعزفها الرائع..

فتبسم بعضهم وتهامسوا وتضاحكوا لأن الرافعي لا يسمع فكيف يشكرها على عزفها الرائع؟

ويكمل:

- وإن كنت لا أسمع فقد شعرت بها أكثر منكم بكثير، فقد طرت إلى عالم ثانٍ، وخرجت من مجلسكم هذا إلى ما هو أبعد من ذلك وأسمى، وقد صارت توحي إليّ هذا العزف الذي لم أسمعه بقصائد وقطع أدبية لو فكرت بها زمناً غير يسير لما كتبتها، والآن نحن في منتصف الربيع، والليل ساكن هادئ، فقد هاجت شاعريتي بمقطع للآنسة مي.

فعلت الدهشة وجوه الحاضرين، وتبسمت مي بفرح وترقب.

فقال الرافعي وهو ينظر لعينيها الجميلتين:

تالله لو جدَّدوا للبدر تسميةً

لأُعطيَ اسمك يا من تعشقُ المقلُ

كلاكما الحسنُ فتانًا بصورته

وزدت أنك أنت الحبُّ والغزلُ

وزدت يا حبيبتي أنك أنت

فصفق الكل في إعجاب وبعضهم في حسد وكمد.

جلست عنده، فقال لها:

- أين وعدنا في مهرجان تأبين فرح أنطوان؟ لم تفي به.

فقالت باستغراب شديد:

- لم أعدكَ شيئًا.

- نعم لم تعديني بلسانك، ولكن وعدتِ بما فيك من الشفقة ما ترين فيَّ من الاضطراب!

فقالت ضاحكة:

- مخطئة شفقتي فيما قالته.

- أأنت تخطئين؟ أما إنك لو تكلمت خطأً صرفًا لكان وجهك وحده برهانًا وحجة!

فضحكت ضحكًا ظريفًا يطرب له قلبه، فقال:

- إنك تتكلمين ولا تعرفين أن وجهك ينقح فيَّ معاني كلامك.

- كلماتي لا تتم بمعانيها ولكن بفهمك أنت لمعانيها.

- لماذا عندما تتكلمين مع غيري تكونين مختلفة جدًّا.

- أنا في نفسي كما أنا، ولكن في حبك كما أرى، فأنا أكتشف نفسي الجميلة فيك، وبهذا أجد حبك من عظمتي وسروري!

- وأنت سماء أستوحيها فتمطر بيانًا وتفيض أدبًا.

- إذا كنت تريدني سماءً تستوحيها وتستنزل منها ملائكة معانيك، فلماذا تنكر عليَّ أن يكون لي مع أنواري سحابٌ وظلمةٌ ورعدٌ وبرقٌ؟

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقال هاربًا من جوابها عن سؤالها الأخير:

- ستكونين لي.

فقالت له وهي غاضبة غضبًا ظريفًا:

- أنت متوحشٌ.

- وأنت متوحشة.

وعاد إلى داره ويرى نفسه إنه يفيض بمعانٍ ومشاعر لتلك المتوحشة، ولما رأى نفسه يقوى على الكتابة كتب لها رسالة المتوحشة التي تصف توحشها الذي يوحي له بجمالها.



قال العريان:

- يبدو أن الأستاذ جورج إبراهيم كان رافضًا منذ البداية لهذه العلاقة أو غير مؤمن به.

- جورج كان حذرًا، يعمل بما يمليه عليه عقله، وإن خالف قلبه، لذلك لم يصبح أديبًا ذا بال، فهو يقدم العقل على القلب، وكان يرى حبي لمي مجازفة في تاريخي الأدبي وأنه لن يستمر كثيرًا.

- وكان محقًا؟

- ....

- لماذا لا تجيب؟

- أترك الإجابة لصباح الغد، لعل جورج إبراهيم يكون مخطئًا.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٥)

أم أنت من مادة العناق، وقد جئت هالكة ضمًا من انطباق صدرين تحتها زلزلتا قلبين ترجفان؟

ذهب الرافعي هذه المرة إلى صالون مي بشكل مختلف، فبدلته جديدة أنيقة، ومختلفة عن كل مرة، فقد جرت عادته أن يأتي إلى صالونها عاشقًا متشوقًا لمي ومجلسها وحديثها ووجهها الحسن، كان يسمو فوق المظاهر، ولا يبالي بها، بل يكاد ينساها أصلًا، فهو غير عابئ بهذه الأمور، ولكن الأدباء صحبه مهتمين بهذا أشد الاهتمام ، فكان يصل إلى المحطة فيذهب مباشرة إلى بيت ميّ على ما فيه من وعثاء السفر وأتربته التي لا تكاد تتركه، فيصل إلى مي وقد أضناه السفر بأتربته وتعبه، فلما يروه الأدباء يتهامسون ساخرين ضاحكين وهازلين جدًّا، والرافعي لا يسمعهم!

والرافعي بطبعه رجلٌ يكاد يكون منعزلًا عن الناس، فعالمه محدود جدًّا، مصاب بالصمم الذي يتعبه في التواصل مع الناس. ولما رأى حافظٌ الرافعي بهذه الصورة الأنيقة، قال له:

- ما هذا يا أبا سامي، اليوم جديد، يبدو أنَّ الحبيب أمرك بهذا.

- لا، ولكن تغيير، ولكن هل بملابسي شيءٌ يعاب سابقًا؟

- لا، ولكن أعجبتني ملابسك هذا اليوم.

- هذا من ذوقك .

وقامت الآنسة مي لتخطب فيهم وهم ينصتون باهتمام بالغ، وكانت تتكلم مي عن باحثة البداية[1] وكيف تعرفت إليها، وكانت تقول:

- وكانت تحدثني بصوت أغن الرنين تملؤه لهجة الواثق مما يقول المعتقد بصلاح فكره، العالم أن آراءه مفيدة كل الفائدة لو كان لها الناس تابعين. وإذا وجدت الكلمة العامية ركيكة إذا ما عُبّر بها عن بعض المعاني استعملت الكلمة اللغوية مكانها بنطق عربي صحيح مستشهدة بأبيات شهيرة وحكم سائرة تعزيزا لآرائها، وعلى وجهها هيئة المحقق الجاد وفي عينيها نظرة بعيدة...

ومضت تتكلم عنها بكل لباقة إلى وصلت إلى قضية المرأة عند باحثة البادية، فقالت:

(وأكثر ما يزعجها هو ما يسوء المرأة وقد سمح به القانون، فمثلًا قضية تعدد الزوجات، نجد باحثة البادية تقول:

إنّه لاسم فظيع (تعدد الزوجات والضرائر) تكاد أناملي تقف بالقلم عند الكتابة. فهو عدو النساء الألد وشيطانهن الفرد، كم قد كسر قلبًا وشوش لبًا وهدم أُسَرًا وجلب شرًا وكم من بريء ذهب ضحيته وسجين كان أصل بليته وأخوة لولاه ما تنافروا ولا تناثروا ففرقهم أيديسبا وأصبحوا تأكل الحزازات صدورهم ويضمرون السوء بعضهم لبعض يثأرون ولا ثأر بني وائل وكانوا لولاه متفقين...)

وما أن أتمت الآنسة مي اقتباسها حتى علت الأصوات، بين مؤيد ومعارض، وبين المد والجزر صمتت مي وسمعت أحدهم يقول:

---

(١) وهي بنت الأستاذ حفني ناصف، وللآنسة كتاب عنها.

- لا هذا الكلام غير صحيح، وللزوجة الثانية فوائد فريدة لا تُدركها امرأة قاصرة التفكير كهذه، للزواج الثاني فلسفة لو كلفت نفسها بقراءة ما كُتب حول هذا الموضوع قليلًا لأدركت حجم غلطها.

وقال آخر:

- أنت لا تعرف من هي باحثة البادية، هي مثقفة ومفكرة ومنظرة، ولها آراء جديدة ولا تقلد أحدًا.

وسمعت آخر:

- باحثة البادية حكمت في هذه المسألة من جهة واحدة، وهي كونها أنثى منتصرة للنساء، لا كاتبة محايدة.

وقال آخر:

- بل هي منصفة، ويجب أن تتحرر المرأة وتخرج وتتعلم.

فرد عليه آخر:

- ماذا تعني بتحرر المرأة؟؟ أي أن تكون سافرة... وهذا الحرام بعينه وقمة الفساد.

فقال آخر:

- تعيش المرأة المصرية عاملة محررة متعلمة..

وبين أحاديثهم الصاخبة وخلافهم المحتد، وعندما علم الرافعي سبب نقاشهم، قال لنفسه: وأنا الذي أريدك زوجًا ثانية لي فإذا أنت مؤمنة بهذه الفكرة !!!



عصير الكتب للنشر والتوزيع

ووصلت الرافعي رسالة من مي، ففتح الغلاف فلم يجد سوى زهرة ذابلة!

فحار في أمرها وفي تفسير معناها وتعليلها..

ما معنى وردة ذابلة؟

هل انتهى كل شيء؟ وهل الحب ضاع؟ ولكن لم يبد مني شيء يستحق الجفاء أو هذه الرسالة، ودفعها لنفيسة لعلها تجد تأويلًا مقنعًا له، ولكن لم تجد.

وعرضها على جورج، فقال:

- لعلها نهاية حبكما؟

- لا لا..

- لكن الذبول علامة المعاتبة والمخاصمة..

- ولكن الوردة علامة الحب.

- نعم، الوردة علامة الحب والذبول علامة الأفول، قد تقول لك أفل حبنا.

- لا غير صحيح تعليلك.

- لماذا ترفض فكرة نهاية حبكما يومًا.

- لأنه لن ينتهي.

- وهل ستظل على هذا الحال من المراسلة؟

- لا، سوف أظفر بها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- وكيف ذلك الظفر؟

- الزواج طبعًا.

- الزواج! وهل نسيت من هي؟ هي مسيحية وأنت مسلم مؤمن محافظ.

- وإن كان، الإسلام يبيح لي الزواج من مسيحية.

- ليست القضية قضية دين فحسب، بل بينكما فوارق اجتماعية كبيرة، هي الفتاة المتحررة وأنت المحافظ، هي السافرة وأنت الذي تستحرمه وتجاهد بقلمك في سبيل الأخلاق الإسلامية السامية، هي التي تلقى الرجال أكثر مما تلقى أهلها، وهي التي يتغزل بها الأدباء وكأنها شجرة الدر أو ولادة بنت المستكفئ، هل تحسب كل النساء مثل نفيسة؟ طيبة رقيقة محافظة، لا تعارض لك أمرا تبت به، ولكن مي تختلف جذريًّا، هي أصلًا ترفض فكرة الزواج الثاني والضرائر ومنهجه، وقد شاهدت ذلك بأمِّ عينيك في الخلاف الذي حصل في مجلس الثلاثاء الفائت، هي تهاجم فكرة فكيف ستقتنع بها؟هي تحارب زواج بأكثر من واحدة فكيف تتزوج وتكون ضرة! زواجكما مستحيل، هذه مجرد أمنيات تبنيها في نفسك.

- ولكنها تحبني وتتزوجني.

- وهل قالت لك أتزوجك؟

- لم تقلها بلسانها ولكن قلبها قال لي.

فضحك جورج، وقال:

- دعك من فلسفة الأدب وكلامهم، هناك عوائق عظيمة جسيمة بينكما.

- سوف تتبدد تلك العوائق والفوارق.

- كيف؟

- بالحبّ، الحب أقوى رباطًا؟

- ولكن المجتمع والعرف أقوى.

- لا، بل الحب.

- أنت واهم.

- أنت الذي تتوهم.

- سوف تبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا..

- نعم، سوف تبدي، وستعلم كيف سينتصر الحب أمام الفوارق والعوائق المجتمعية.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وحار بماذا يجيب، هل يجافيها ويتركها؟

هو أضعف من أن يفعلها، وهو وإن فكر بهذا الخيار ولكنه مقتنع بأعماق نفسه أنه أضعف من أن يقوم بهذه الخطوة الفاصلة، ولكن هل يسألها التوضيح؟

فلم يجد في هذا الحل بأسًا، ولكن رأى أنه شديد اللهجة بعض الشيء، فلم يجد بدًا من الحرفة التي يجدها والحيلة التي يلوذ بها، والجوابات القانعة لقلبه عندما تهاجمه موجات الشك الجارفة.

فكتب إليها جواب الزهرة الذابلة)، ويمضي على سجيته في تلك الرسالة معللًا زهرتها الذابلة،

(وفهمت من العطر أن الرسالة مكاشفة بالحب أو مناسمة: ولكني فهمت من الذبول أنها معاتبة في الحب أو مخاصمة!)

وتارة يسأل الزهرة الذابلة: (أم أنت من مادة العناق، وقد جئت هالكة ضمًا من انطباق صدرين تحتها)

قالت خاتون وهي تقرأ الرسالة:

- لماذا كل هذا؟؟ ماذا فعلت به؟

فقالت مي ضاحكة:

- أريد أن أستدرج قلمه في الكتابة بتلك البلاغة.

- يعني تريدين أن ترضي نفسك؟؟

- لا أعلم ما بي، أريده أن يكتب عني بهذا الكلام الذي لم يقله امرؤ القيس لفاطمه ولا قيس للبناه.

- هل تحبينه؟

فقالت ضاحكة:

- ربما، ربما أحبه.

- يعني تعشقينه؟؟؟

- لا أعتقد يصل إلى مقام العشق، ولكني وجدت عند الرافعي ما لم أجده عند غيره.

وهل سترسلين له وردة ذابلة هذه المرة أم تقاطعينه أم..

- لا، سأكتب رسالة ولن أرد على رسالته، بل موضوع ثان.

وكتبت إليه رسالة تحدثه عن كاتب فرنسي بعيدة كل البعد عن ما كان يرجوه.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

تقول لي وأنت؟ وأنا ما بي؟ لماذا تفعل بي هكذا؟ لماذا تتأخر بالرد وما مرادها من ذلك؟ ألا تعلم كم أكافح في سبيلها وفي سبيل حبنا؟ قد لا تراه كفاحًا يستحق الذكر، فقد تظن أني شرقي العقل والمذهب فأنا صاحب قرار، نعم صاحب قرار، ولكن ليس في هذا الأمر، أنا لم أعد أقدر على الكفاح، قد تعبت من التبرير والتغاضي عن لمزات الأصحاب. (هكذا حدث الرافعي نفسه عندما قرأ كتابها).

ولم يجد بدًا من الكتابة لها، مع العلم أنه في الثلاثاء سيزورها.. فكتب لها:

يدمدم الحبُّ على قلبه

كأنه في نفسه ينهدم

برجفة حاملها لم يزل

ممزقا في القب لا يلتئم

زلازل البركان لما دعت

أن سئمت بركانها المحتدم

أجابها الله الطفي وارجفي

من شفتي محبوبة تبتسم

مصطفى صادق الرافعي

طنطا ١٩٢٣)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال العريان:

- ومن ذبول وردتها بدأت علامات النفور!

- أجل.

- وأنت لم تشعر؟

- لا بل كنت في سكرة العشق، أحاول أن أجد التعاليل التي تبرر فعلتها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٦)

عذرًا أيتها الحبيبة، فمهما أكتب فلا يزال وراء الكلام ذلك المعنى الدقيق الذي لا يظهره الكلام، وذلك المعنى المعجز الذي هو بلاغة فوق البلاغة، ذلك المعنى الجميل الذي هو

أنت ...!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وبدأت مي تلعب لعبة ثانية مع صاحبنا، كانت لعبة شرسة، فلم تعد ترد على رسائله إلا نادرًا، ولما رآها في مجلس الثلاثاء، قال لها معاتبًا:

- لماذا لا ترسلين لي؟

- أراك كل ثلاثاء، وعندما ترسل كتابك يكون قد مضى ثلاثة أيام على لقائنا، وأحتاج يومًا كاملًا كي أقرأها، وأحتاج يومًا لكتابتها، ولا تلحق أن تصل حتى يكون قد جاء الثلاثاء.

فقال وهو غير مقتنع:

- أنت كاذبة كما يقول عقلي، ولكن في عينيك كل الأدلة والبراهين على صدقك.

فضحكت ضحكة مجلجلة، وقالت:

- وهذا الأسبوع لك كتاب مني.

وانتظر كتابها على شوق كبير، وبعد طول الانتظار وصل كتاب منها فكان مختصرًا، مخيبًا لآماله، لم تتغزل به، ولم ترفعه مكانًا عليًّا في قلبها، بل رسالة عامة جدًّا.

ولم تسمح له نفسه بمجافاتها أو الإعراض عنها، بل هاجمها من حيث لم تحتسب، وكتب إليها كعادته يداعبها ويشحذ عطفها ببلاغته، لعلها ترد.

ولم ترد مي على كتابه، فضجر، ولم يعد يبالي بشيء، حتى أن نفيسة قالت:

- لماذا لم تعد ترسل لك شيئًا؟ هل حصل بينكما شيء؟

- لم يحصل شيء يوجب القطيعة.

- إذن لماذا لم تعد ترسل لك؟

- لا تحسبي أنها ترسل لي كتبًا وأخفيها عنك.

فقالت باسمة:

- أعلم ذلك فثقتي بك تامّة، ناتجة عن عشرة طويلة، ولا أشك بك قط، ولكني افتقدتها.

- ما أصبرك وأجلدك يا نفيسة؟؟

- ربما هو دلال لا أكثر.

ولم يتحمل التي تجيش بها مشاعره، ولكنه وعد نفسه ألا يراسلها، ولكنه كسر وعد نفسه كالعادة وتغلب شوقه، فكتب إليها، وحاول في كتابه هذا أن يجد حيلةً ظريفة، تستأنس هي بها حتمًا، تخيل أنها كتبت له كتابًا وهو يرد عليه:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(وصل كتابك أسرع ... مما قدرت، فعلمت أن قلبك أشفق علي وخشي أن أتألم إذا انتظرت، وتناولته فأحسسته فياضًا بمعانيه إذ كان في يدي كأنه لهفة قلب مجسمة، حتى ما شككت أن كلَّ كلماته كانت خفقات.

وفضضته فطالعتني منه صحيفة تضطرب بأشواقها كأنها رجّة صدر عاشق

أمسكت في زفراتها وطويت، وختم عليها وجعلت رسالة! ونظرته فإذا هو ترجمة شخصك في حسنه وجماله وظرفه، وابتدرتني منه جملة باسمة أمطرتها لثمًا؛ إذ خيل إليّ إنها ترجمة عن شفتيك....

مصطفى صادق الرافعي

طنطا ١٩٢٣م)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ورأت الكتاب فضحكت، وفرحت، ثم رأت أن تعطف على ذلك العاشق الولهان، فكتبت له:

(سيدي:

أخرت جواب رسالتك لتجيب عني بظنك، وستجيب بأنواع متناقضة مما يسوؤك ويسرك. وتضع في أجوبتك مائة (نعم) ومائه (لا)..ثم يأتيك بعد كلامي فينزل من نفسك منازل لا منزلةً واحدةً، إذ يقابله بكل ما قدرت في نفسك من قبل، فيسرك على قدر ما أحزنت هذه النفس، ثم يعطيك من اليقين ما يسرك من ناحية بإثبات الحقيقة ومن ناحية أخرى بمحو الظن!

هذه سياسة بعض ما يحتاج إلى الشرح في بعض علاقات النفوس، يكون السكوت الطويل فيها أطول شرح للكلام الذي يأتي بعده..يفسره تفسيرًا غير مكتوب!

مي زيادة

القاهرة ١٩٢٣م)

ولما قرأ الرافعي كتابها هذا لم يقدر على كتابة جواب لها، إذ أحسَّ في مرض شديد قد أصابه، وقام من مكتبه إلى الغرفة فوقع في الطريق، وسمع أهله صوتًا ند عنه؛ فهرعوا إليه مسرعين فأوصلوه إلى السرير، وجاء الطبيب، فقال:

- فيك نزلة برد شديدة، هل تجلس في مكان بارد؟ مع العلم أن الجو ربيع.

فقالت زوجه:

- يبقى في مكتبته إلى ساعات طويلة من الليلة.

- يبدو عليه أثر الإرهاق، عليه أن يرتاح لأيام أخر.

- حاضر.

وظلت نفيسة الليل بطوله واقفة عند رأسه تحاول أن تنزل حرارته التي كانت مرتفعة وتأبى أن تنخفض، كان يرتعش، وهو يحدث نفسه. يشعر بنفسه أنه خارج الآن من هذه الدنيا، لقد قضى ليله وهو سارح يفكر كيف اكتشف حقائق الحياة المغطّاة، كان يتألم ويستخرج لنفسه مواعظ ينتفع به في أيام صحته.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- كيف حالك الآن يا أبا سامي؟ (قال جورج إبرهيم).

- متعب جدًّا يا جورج، لا أعلم ماذا أصابني، مجهد ومرهق جدًّا.

- لعل أذنك سببت هذا المرض.

- ربما، فهي تتعبني جدًّا، ولا أعلم متى أجد لها علاجًا نهائيًّا، حتى أسمع بها!!!!

- إن شاء اللّه تجد علاجًا.

- يا جورج أريد أن أكتب رسالة إلى مي، سأمليها عليك.

- رسالة ماذا؟

- اعتذار لها، لأني لن أستطيع أن أحضر مجلسها هذا الثلاثاء.

- ماذا؟ وإن لم تستطع الحضور، هل تعتذر لها؟ لا يوجد شيء يستحق الاعتذار.

- بلى، الاعتذار عن لقيا الحبيب واجب.

- عدنا إلى السيرة الأولى، ألم تقطع رسائلها عنك زمنًا؟ أليس في هذا دليل وبرهان على أنها لم تتخذك حبيبًا قط!

- أنت لا تفقه في القلوب وما تحويه.

- أعلمني إذن.

- أكتب يا جورج أكتب.

ولم يشأ أن يناقشه وهو في مرضه.

فأملى عليه:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(الآنسة مي زيادة..

يسؤوني أن أعتذر إليك في عدم استطاعتي الحضور هذا (الثلاثاء) لمجلسك لما ألم بي من مرض، أرجو أن تتقبلي عذري..والسلام.

مصطفى)

وعندما قرأت مي الكتاب أسرعت فكتبت:

(سيدي:

أحزنني ما كتبته لي من مرضك، وهي نازلة عابرة، أرجو لك الشفاء العاجل، وهذا المرض وإن أصاب جسمك فإنه قد أصابني أنا أيضًا، ولكن مرضي أشد، لأني مريضة فيك!

مي)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فكانت رسالتها مسحًا رقيقًا على آلامه، وكلماتها علاج من نوع آخر.

وطال مرضه، وربما سيغيب عن ثلاثاء قادم ، وهو كان يكدر صفوه، ولكن سرعان ما وصلته رسالة منها:

(سيدي:

هو المرض الذي استحق مني كل هذه الغاية ولكنه المرض على إنه في جسمك..

أنا إنسانية أعطف على كل أحزان العالم، لكني لو تألمت لكل المتألمين لما أثاروا في نفسي إلا الجزء الأصغر مما تثيره فيّ آلامك.

لو تألمت بنفسي أو لنفسي لاحتملت، ولكنّ ألمي بك، وشقاءه فيك، فهو ألمٌ وجزعٌ واضطرابٌ، أتألم بثلاثة من تتألم أنت إلا بأحدها..

نعم هو المرض الذي أثار فيَّ كل هذا، ولكنه المرض على إنه في جسمك!

مي القاهرة ١٩٢٣م)

(الآنسة مي:

أشكرك على هذه الرسائل التي هي أنفع لدائي من أدوية الطبيب، وأعتذر هذا الثلاثاء لأني لا أقدر على الحضور أيضًا.

لو تعلمين ماذا يفعل بي حبك؟

إن حبي مسرف، وعداوتي مقتصدة، وإن هذا الحب كخضوع المستبد، والاستبداد في نفسه قوة وفتوة، فهو إن أخضع كان واثقًا أن خضوعه قوة أيضًا وإن هان وإن ذلّ.

مصطفى

طنطا ١٩٢٣م)

(سيدي صطيف:

تقول إن حبك مسرف وعداوتك مقتصدة، وإن هذا الحب كخضوع المستبد، والاستبداد في نفسه قوة وفتوة، فهو إن أخضع كان واثقا أنَّ خضوعه قوة أيضًا وإن هان وإن ذلّ.

يا صديقي السيد..نعم ثم نعم، ولكن كلمتك تجعلني أرى في صلتنا هذه نوعًا من تطفل الفتاة على سيادة الرجل، إذ تقتحم بها الفتاة وإذ تجرؤ على ألا تضع هذه الصلة فوق موضعها الطبيعي، إن هي إلا خضوع وطاعة وعبودية للسيد..أليس كذلك أيها السيد؟

أما والله إن الرجل مهما يغلب نفسه ويحملها على الرقة ليصلها بنعومة الأنوثة من جانبها المصقول الناعم، فلا بدَّ أن تغلبه نفسه مرارًا حتى تظهر حقيقته الجافية الخشنة التي خلق منها ولها. ولو أنّ حجرا، أحد جوانبه ماسٌ ثمينٌ وسائر جوانبه الأخرى حجر، ثم مسته الحياة فتمثل بشرًا سويًا لكان رجلًا متحببًا متظرفًا مثلك يا سيدي، وهو من جانب واحد يعتبر المحب، أي الماس من ثلاثة جوانب يعتبر السيد..أي أي الحجر!

مي

القاهرة ١٩٢٣م)

(سيدي صطيف:

لا يسوؤك أيها الصديقُ! فما أنا بالتي ترغب الإساءة إلى عدوّ، فكيف بها إلى صديق، والى صديق عزيز؟ أيغضب السيد من وصفه بالسيد؟

ولكن ما كانت الصداقة لتحمل في يدها ميزان العدل لكلّ كلمة وكلّ معنى وكلّ إشارة، بل إنها تصفح كثيرًا عن كثير لتجعل الحق الذي لها أن تستوفيه كاملًا كأنه حقٌ عليها تؤديه كاملًا فتكبر بتسامحها وتنمو.

كن أنت الحاكم على نفسك كن أنت الحاكم على نفسك نتصافا لما ظلمت به نفسا أخرى... وإني أهزّ يدك بقوة تؤكد لك أنَّ حرارة

الإخلاص هي أبدًا قوية من أها إخلاص، متجددة من أنها قوية، باقية، ما من أنها متجددةٌ، وبكل هذا هي الحبُّ وهي الصداقة!

مي

القاهرة ١٩٢٣م)

(الآنسة مي:

شكرا على رسائلك مجددًا، وأؤكد لك ثانية أنها كانت دواءً نافعًا أكثر من دواء الطبيب، فكأنَّ دائي فيك، ودوائي عندك، أحمد الله فقد صرت بخير وبحال جيّد الآن.

مصطفى

طنطا ١٩٢٣م)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ويكتب لها عن فلسفة المرض بعد أن طلبت منه وعن معانيه.

قالت خاتون بعد أن قرأت الرسالة:

- فلينعم بالصحة والسلام، فهو يستحق، ولكنه لم يتغزل بك هذه المرة.

- لأنه مريض، وسيعاود الغزل بعد أيام.

- هل تستطيعين أن تأمريه بأن يكتب عن موضوع فيكتب؟

فقالت مي بإيمان تام:

- طبعًا طبعًا.

- هيا أكتبي له.

- عن ماذا يتحدث لك؟

- عن القمر مثلًا.

- حاضر.

- هل كتب لك لطفي السيد رسائل جديدة؟

- لا، ولا أريد أن يكتب لي.

- لمَ؟

- لأني أريده أستاذًا لا عشيقًا.

- والعقاد؟

- ما زال يكتب لي.

- وجبران؟

- أتركهم كلهم وأستغني عن مراسلاتهم إلا هو.

- ود. طه حسين؟

- طه يكتب لي كتبًا في الأدب والفكر، لا عاشقًا.

- والرافعي؟

- الرافعي وجدت عنده ما لم أجده عند غيره من رواد صالوني، وجدت الحب والفكر والبلاغة، وكل شيء.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- هل تتزوجينه؟

- كيف أتزوجه؟ هو متزوج وله أطفال كثر.

- زوجة ثانية، أما تعلمين بتعدد الزوجات؟

فقالت مي بلهجة جادة:

- وكيف أتزوجه وأكون ضرة؟ وأنا المؤمنة بمبادئي، وأنا التي أكمل بما بدأت به باحثة البادية وعائشة التيمورية، ودعوة الأستاذ الفيلسوف المفكر قاسم أمين في تحرير المرأة، أأكفر بها جمعاء وأتزوج الرافعي؟ هذا مستحيل طبعًا، لم أدرس ولم أتعلم لأبيع مبادئي أمام الرافعي.

- حتى وإن أحببته؟

- قد أكون أحبه ولكن لا يعني هذا إني سأتزوجه وأكفر بما تعلمته طول تلك السنين.

- وهل التضحية في سبيل الحبّ تسمى كفرًا؟؟

- نعم، إن تعارضت مع مبادئي وإيماني بقضيتي، إني إن تزوجت الرافعي فسأكفر بما تعهدت إكماله من خطوات باحثة البادية وعائشة التيمورية، وكل دعوات التحرير التي تحققت، كان حلمًا قد بذره قاسم أمين في مصر، وظل زمنًا غير قليل متوجسًا من فشل فكرته، وبعد المصابرة والمجاهدة والمكابدة، وبعد أن انجلت الحرب العالمية وتمثلت دعوة قاسم بشرًا، ونجحت وطبقت تريديني أنا، أشد أنصار تلك الدعوة أن أتخلى عنها في سبيل الرافعي؟! أما المعاشرة في الحرام فذاك الذي لا يرتضيه هو الرجل المؤمن وأنا

أيضًا، وأما الزواج فذاك الذي يعارض مبادئي وأهدافي، وهناك طريقة أخرى وهو أن يطلق زوجه وأتزوجه، وهذه أشر الشرين السابقين، فهل ترضين أن أتركه يطلق زوجه؟

- وهل تعتقدين أن يفعل؟

- لا أعتقد.

- جربي.

- لا، لأني لا أفعلها أصلًا.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

جلس الرافعي بعد أن قرأ رسالتها الأخيرة وهو يفكر، طلبت أن أكتب عن القمر، ما أشقاك من امرأة يا مي؟ تصرين أن تعيديني إلى أيام جسر كفر الزيات، وقصتي معها، عصفورة قلبي ها قد جاء من يذكرني بك، كم من ليال قضيتها وأنا أحدث عنك القمر؟ وها هي مي جاءت لتعيد الكرة وتطلب مني أن أكتب لها.

وبعد وقت غير قليل، كتب لها عن القمر. ولما قرأتها مي على خاتون تعجبت خاتون من حبه لها، وصارت تقول لها:

- ولكن ما نهاية حبكما؟؟ ما النهاية؟

- القدر من سيكتبه.

- ما أرى الرافعي إلا رجلًا ساذجًا مخدوعًا بحبك كالشيخ مصطفى عبد الرزاق!

- ويحك! أمثلي تخدع مثلهم؟!

- وإن لم تخدعيهم صراحة، فهم مخدوعون بك.

- غير صحيح.

- كما قال شاعر لا أعرفه: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً..

قال الرافعي بلهجة قطعية:

- لم أشفَ من مرضي لولا رسائلها!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٧)

فسبحان من علَّم آدم الأسماء كلها لينطق بها، وعلمك أنت من دون أبنائه وبناته السكوت، والسلام عليك في أزلية جفائك التي لا تنتهي. أما أنا فالسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت!

كان يومًا دافئًا مشمسًا من أيام آذار، وبعد أن أكمل الرافعي عمله خرج واشترى جريدة، وما أن فتح الجريدة حتى وجد في صفحتها الأولى نعي وفاة صبري!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

لقد مات الشاعر إسماعيل صبري نده في مجلس مي، كان صبري دائم التغزل بمي، الذي طارت أبياته وهو لا يرحب بصبح الثلاثاء إن لم يَرَ مي فيه، ماذا عساها تقول؟ هل تحزن وهي الرقيقة التي لا تتمنى المكروه حتى لأعدائها؟ ماذا عساها تقول، وكم سيحد صالونها على هذا الشاعر النابه؟

لم يكن الرافعي يرى صبري شاعرًا ذا بال، ولم تكن تجمعه صداقة فيما بينهما، بل كان بينهما دخان خفيف لمعركة أدبية لم يكتب لها الميلاد عندما كتَبَ الرافعي (شعراء العصر)، ولكن اهتمامه لأجلها هي، هل ستحزن؟ هل كانت تحبه حقًّا؟

هو لا يعلم، وهي لا تفصح عن شيء من هذا. مي ليست من النساء اللواتي يثرثرن فترى حياتهن ككتاب مفتوح، بل بئر عميق، ولديها المئات

من الرسائل التي بعثها الكُتَّابُ والشعراء والفلاسفة بين الغزل والفكر والأدب.

وبعثت له برسالة فيما بعد عندما كان هناك لجنة لحفل تأبين صبري:

(أما قبل.. فعلى الرافعي الصادق السلام وله بالعيد السعيد تهنئة.

وأما بعد..إن لي أمرًا أبديه..فهل لك يا سيدي أن تكون رسولي إلى لجنة تأبين صبري، ولا أظنني مقتحمة أو متطفلة.. ولا أخال فضلك ملبيًا طلبي..

وسلام على الرافعي الصادق ثانية.

مي

القاهرة ٢٣ تموز- يوليو ١٩٢٣م)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وحضر بعدها جورج إبراهيم، وقص عليه الرافعي أنه كان سفير مي إلى لجنة تأبين صبري، فقال جورج:

- إلى متى؟ إلى متى وأنت تسير خلفها مغمض العينين كشاب مراهق يسير خلف الفتيات وينتظر نظرةً منهن أو لفتة؟ أنسيت من أنت وما وزنك في الأدب العربي؟ أتنسى ما يقوله لك وما يكتبه عنك شكيب أرسلان وعبد المحسن الكاظمي والعقاد، وأنت أملنا في التحليق بالأدب العربي وأن تعيده إلى سيرته الأولى على أيام ابن المقفع والجاحظ وأبي حيان التوحيدي، أنت الذي تنشد الدولة كلها نشيدك وصوتك، تسير خلف امرأة مثل مي؟ معشوقة للكلّ.

- وما بها مي ؟

- ميّ لا تناسبك يا مصطفى، هي ليست لك لأنها غير مستعدة لأن تضحي من أجلك..

- الحب يستحق التضحية، ومي ستضحي.

- ومن قال لك أنّ الآنسة ميّ تحبك أصلًا؟ لماذا تأبى إلا أن تخدع نفسك؟ لماذا تتغافل؟

- لأني أحبها.

- أنت من يحبها وليس هي، وهناك فرق، هذا حبٌّ من طرف واحد إن كنت لا تعرفه، وربما عشق مي جعلك لا تعرف أبسط الأمور، وكيف تدبرها أو كيف تتصرف.

فقال الرافعي منفعلًا:

- وكيف تتكلم معي أنت بهذه اللهجة؟ هل أنت وصيٌّ عليَّ؟ ماذا دهاك؟ هل نسيت نفسك؟ إن نسيتها فعليك أن تذكر، أنت مجرد صاحب من مئات الأصحاب، كيف تتكلم هكذا وتنتقد.

وشعر جورج بخيبة كبيرة من كلمته (أنت مجرد صاحب من مئات الأصحاب) وشعر بالندم لأنه تكلم معه كلامًا قاسيًا، فقال:

- أنا أتحدث لأجلك..

- لست طفلًا لتتحدث معي هكذا، والآن تفضل اذهب!

خرج جورج والخيبة تعتريه، خرج ولم ينبس ببنت شفة.

جلس مصطفى وهو لا يعلم ماذا يقول أو يتصرف. وكانت عند الباب نفيسة التي سمعت كلام مصطفى كله، وصارت تذرف الدموع عطفًا على

زوجها، وترفع يدها متضرعة: يا رب لتنتهي قصته مع مي على خير..يا رب.

وكتب الرافعي إلى مي كتاب حبّ وغزل، وقد غلب قلبه عقله وانتصر، فها هو يجافي جورج وغير مبال وهو الصديق المقرب.

ولكن مي عادت للعبتها السابقة في عدم الرد عليه، وتركه يناجي ليله وقمره.

فلما استيأس من ردها ومن وصول كتابها، أخذ يفكر في طريقة جديدة لعله يفجعها بأن تكتب له، فتذكر أنها تبغض أساليب العرب القديمة في المراسلات بأن يغلب السجع والطباق والجناس، وكان نوعًا من أنواع التهكم ولكنه برفق، فهو لا يحب أن يقسو عليها أو يشتد.

فكتب لها عاتبًا:

(كتبت إليك من أيام يشفع لها قربك من نفسي فلا أقول إنها بعيدة وتمر قديمة، ولكن ما في النفس منها ومن آلامها يجعلها دائمًا جديدة وكأنها تجري بي إلى الفناء فهي تطول إلى غير حد، وتأخذ معنى اليأس الذي يمضي به الأمس فتلقي به في معنى الأمل الذي يأتي به الغد، والأيام تعد بالأرقام، ولكنك أنت جعلت هذه الأيام تُعَدّ بأنها لا تعد ...

مصطفى

طنطا ١٥ آب ... ١٩٢٣م)



كان في مجلس الثلاثاء ينتظر ذهاب الرواد.

وظل الرافعي ينتظر مي إلى أن انتهى المجلس، وجلس معها وحيدين إلا من خادمها حسن الذي جلس يكتب له.

فقال الرافعي بلا مقدمات وعلامات الترقب والخوف بادية عليه:

- تعرفين يا آنسة مدى حبي لك، وكم أكن لك من عشق شديد، وقد بدا ذلك جليًّا في رسائلي التي كتبتها لك وأرسلتها، وفي رسائلي التي كتبتها لك لم أرسلها، وكل حب مثل حبنا (وتردد قليلا) أي حبًّا عاطفيًّا يجب أن ينتهي أما بسفاح أو نكاح؛ فأما السفاح فذاك الحرام الذي لا يقدر عليه لا أنا وأنت، وأما النكاح فهو شريعة اللّٰه وسنته وسنة رسوله ﷺ، فأنا أطلب يديك للزواج على سنة اللّٰه ورسوله!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقالت والدهشة قد غشتها:

- ماذا تقول؟ زواج؟

- نعم، وهو شرع اللّٰه..

- ولكنك يا رافعي متزوج، وعندك أولاد كثر، فكيف تتزوجني؟

- زوجة ثانية، والقانون والشرع يحل ذلك.

- هذا في شريعتك التي آمنت أنت بها..

- والقانون الموجود في هذا البلاد.

- ولكن هذا البند من القانون يتعارض مع ما أنا مؤمنة به، وما أنا أجاهد في سبيله، من دعوة لتحرير المرأة ومناصرتها، ومن أهم قضايا المرأة المصرية هو رفضها لزواج زوجها عليها، ونحن نقاتل

بما أوتينا من قوة لنلوذ عنها هذا البلاء العظيم، وبعدها تريدني أنا أن أبيعها وأتزوجك؟

- تسمين الزواج ممن تحبينه (بيع للمبادئ)؟

- أجل..فأنا وهبت نفسي لأنصر هذه القضية، ونكمل ما بدأه الأستاذ الفيلسوف المفكر قاسم أمين، وباحثة البادية، وعائشة التيمورية.

وشعر وهو يسمع كلامها أنَّ شيئًا يتصارع ويتجاذب في معدته، الحب وكرامة النفس، يكاد يحتقر، كيف له أن يتذلل هكذا لامرأة؟ سمع شيئًا ما في داخله يدعوه لينتفض، ليثور عليها، ليتركها بلا عودة، ليمزق حبه الذي جعل نفسه مذلولة، لم تذله لأنها جميلة فتانة، بل لأنها كما يشتهي أن تكون من العقل والجمال، وكاد يثور ثورته ويحطم تكبرها بمعول كرامته، ولكن نفسه ترغب بها وتأبى ألا أن تتذلل بها.

فقال لها مستسلمًا:

- وأنا ما ذنبي؟ أحببتك حبًّا عظيمًا، أعطيتك قلبي وقلمي، وبعد كل ذلك تعرضين عني، وتصفين أحمد أمين بالفيلسوف المصلح؟

- وقد كان مصلحًا عظيمًا.

- لم يكن مصلحًا يومًا، لأن الإصلاح لا يكون بالخروج عن الدين والتمرد عليه، وحب التقليد.

- لا أريد مناقشتك في دعوة أحمد أمين، فأنت عصبي الآن.

فقال وقد فقد صوابه:

- عصبي! كيف لا أتعصب وأنت تخونين حبنا وتذبحينه بدم بارد ، ولم تجعلي له حتى قبرًا أو اعتبارًا.

فقالت بعصبية:

- أخون؟؟ وأي حب هذا الذي تقول عنه حتى أخونه أصلًا؟

فقال يائسًا:

- أي حب؟ (فتبسم ابتسامة باهتة يائسة) وقال لها: ما أذللتني لأنك كما أنت، بل لأنك كما أشتهي.

فقالت وقد خففت من حدة كلامها:

- سيدي..أنت الآن عصبي، وقد تجرفنا هذه العصبية إلى ما لا نحمد عقباه، تعال غدًا عندها ستكون قد ارتحت، ونتكلم.

هو يشعر بذلة ومهانة كبيرين.



قال الرافعي:

- أتعتقد يا سعيد ما قمت به حماقة أم ثورة للكرامة؟

- بل لكرامتكم.

- بل..



(١٨)

يا ظلام القمر كيف تكون ظلامًا وقد تعلقت بمخلوق النور؟

شعور الفراق بات جزءًا منه، لم يعد يقدر على النوم أو العمل أو الكتابة في هذين اليومين. عندما تشعر أنك ستخسر حبًّا بنيت عليه آمالًا عظيمة ستحاول جاهدًا أن تدافع عنه بكل السُبل الممكنة أو غير الممكنة لإنقاذ ذلك الحبِّ القابل للتبدد. وهذا الرافعي لشدة ما ألم به صنع تمائم، ووضعه في السطح لعل تلك التمائم تصلح ما أفسده فوارق الحب وما بينه وبينها من شرخ عظيم، ولكنه لما علق التمائم لم يسلم من أذىً، فوقعت عليه مصائب جسيمة كبيرة، فقد ظهرت نتائج الثانوية العامة وإذا ببنته مكملة بمادة اللغة العربية!!

فكان رسوبها عجبًا في تاريخ عائلتهم أن ترسب بنته في مادة اللغة العربية، وحدث أن انقطع من راتبه خمسة جنيهات، ونجا ولده محمود سامي من حادث سير أثناء زيارة أخواله في القاهرة وكاد أن يودي به.

فلم يجد بدًّا من إنزال تلك التمائم، وفلها وتركها في الهواء! ثم عاد صراع نفسه يضطرم، وشعر أن في نفسه أشياء تتصادم وتتلاطم ولا يعرف أين يجد نفسه بين هذه الأشياء المتصادمة المتلاطمة بعنفوان.

فتارة يرى شيئًا قويًا يقول له اتركها تذهب سدىً، فهي لا تستحقك، هي امرأة مغرورة متكبرة تحسب نفسها حاملة لواء الأدب في التاريخ الحديث

وسلطانتهم وأميرتهم وفراشتهم، ترى نفسها تعادل ولادة بنت المستكفئ أو سكينة بنت الحسين أو الملكة نازلي وصالونها المعروف..

مَن قاسم أمين لتفضله عليك وتنصره؟حتى لتزعم أنها حاملة دعوته ومتممة ما أراده، أحقًّا يتوسل ويرجو الزواج من سيدة تنصر من قضى عمره في مكافحة الإسلام والدعوة لتركه والتمسك بعادات الغرب وتقاليدهم والاتجاه التام الكامل نحو الغرب، وهو من قال له غير واحد بأنه حامل لواء القديم وناصره، ومعنى حامل لواء القديم بعرفهم هو الرجل المؤمن المتمسك بالإسلام وتعاليمه وأخلاقه ويلوذ عنه بما أتي من قوة في البيان والتعبير، هو هذا القديم في عرفهم، فإذا كان هذا القديم عندهم فنعم هو، وهو فخر أن يحمله ويدافع عنه فهذا جزء رسالته الأعظم، وروحه المؤمنة تظهر في أول ديوان أصدره، ولكن أيعقل أن أتركها ترحل؟ مي التي كتبت بها الرسائل الغرامية والقصائد الرائعة هل ترحل هكذا؟

وبين المد والجزر يأتي ذلك الصوت الذي يلاعب نفسه ليقول له: لا تتركها بل عُدّ إليها فهي قالت لك: تعال غدًا. ربما غيرت رأيها وعادت وزن الأمور بشكل آخر، ولكنها مصرة معاندة على دعوات أمين والتيمورية، ولكن الإنسان كلّ يوم هو في شأن، ومي إنسانة، لكنها مختلفة عن باقي النسوة فهي مثقفة شاعرة، تدرك ما لا يدركه غيرها من النساء، ومدافعة قوية عن آراء أمين ، ولكن ماذا يمنع أن تتنازل؟ دعوتُ اللّه كثيرًا، وغدًا ذاهب أنا إلى القاهرة لعلي أظفر منها بشيء.

وبينما هو على هذا الحال دخلت زوجه، فقالت له:

- ما بك يا مصطفى؟ قل لي..حدثني ما الذي أصابك؟

فقال وهو غير مبال بملامح وجهها التي قد علاها التوتر:

- ميّ، هي التي أحببتها بصدق كبير، وحبٍّ عظيم، طلبت منها الزواج فرفضت، رفضتني أنا، هل تصدقين؟ لم أنل من الحب شيئًا، ولكن لماذا كُتب علي الفراق، هل تعلمين ماذا تعني لي مي؟

أنا لم أتذلل لأحد يوما إلا لها، نعم تذللت لها ولكن طردتني أيضًا من جنانها، وقالت لي تعال غدًا لعلك تهدأ، ولكن هل فوران الحب وغليانه يهدأ؟ وهل بعد هذه العاطفة القوية المكبوتة هدوء وسكينة؟ هي تحاول أن تطبق ما في الكتب وما تعلمته من لغات على العواطف الثائرة الفائرة وتظن أن المشاعر الثائرة تقنع بالفتور والسكون، وهي لا تعلم أن كل فلسفات الأدب والكتب تنهار عند قدم المحبوب، هي تجرم في حقي كثيرًا ولكن سأعود إليها غدًا لعلي أظفر منها بعودة ووصال جديدين، فهل تعتقدين ذلك ممكنًا؟؟

فرفع رأسه لينظر إليها فوجدها قد اغرورقت عيناها بالدمع، فقال:

- كم أنت طيبة! أكبر ربح في حياتي هو أنت، حفظ الله أخاك عبد الرحمن عندما سماك لي، فكنت هدية عظيمة لي.

فقالت بصوت باك:

- يا مصطفى أنت أكبر من أن تتوسل بامرأة! مهما بلغت تلك المرأة فهي لن تصل معشار ما بلغت إليه من علم وفهم وفكر، أما آن أن تدعس على هوى النفس دعسًا؟ أنت قادر على فعل ذلك ..قادر.

- ولكني ضعيف أمامها.

- لست ضعيفًا، أنت الذي هزم الأمراض والعلل التي عصفت بك من كل جانب، تضعف أمام امرأة؟

- ولكن المرأة أقوى كل العلل وأشقاها فهي التي أغوت بني آدم، أما سمعت بالحروب التي حصلت بسبب النساء والدماء التي سفكت بسببهن؟.

- وهل تعيد خطأ الماضين؟ لكي تقع في غواية امرأة وتشقى؟

- لا أعلم يا نفيسة لا أعلم، ليت كلّ النساء مثلك ليت كلهن كن مثلك.

- إنني فداك، أما والله لو أن مي زيادة وافقت لذهب وخطبتها لك!!

- أعلم ذلك ولو وافقت لأخذتك أنت!

وجد نفسه أمام بيت مي واقفًا، في القاهرة كثير من الأحلام تولد وتباد، ترتفع وتنخفض، ولكن حلمه الواشك على السقوط هل يباد أم سيبعث من جديد؟ كله بيدها. أريد أن أجعلها في نفسي كالحطب لعلي أشفى منها ولكن كيف السبل إلى ذلك وهي زهرة متفتحة منتعشة؟؟

دخل إلى البيت ففتح الخادم، وكانت تجلس جنب شاعر، فقامت متفاجئة من حضوره، وسرعان ما دارت مفاجأتها ببسمتها الوداعة فقالت برقٍ:

- أهلًا بسيدي..أهلا بالرافعي الصادق..

- أهلًا بك آنستي.

وجلس على مقعد أمامها، وعادت هي جنب ذلك الشاعر، كان لا يسمعها، تمنى للمرة الأولى أن لا يعود له سمعه بل أن يفقد بصره، بل أن تشق الأرض على أن يراها تتكلم معه متوددة متحببة إليه، وكأنها تغازله، وهو متقرب إليها كطالب التقبيل، وكأنها مستعدة لذلك، أخذ الأوهام تكبر فيه والصراع في نفسه يستفحل.

شعر أنه يتزلزل، غير قادر على التحكم في نفسه، يتفصد عرقًا، شعر بشعور مخزٍ، شعر بنفسه أنه يجب أن يثور، ليس هو من تذله امرأة، إلى هذا الحد حتى تتركه هكذا جالس، وتتغزل مع ذلك الشويعر، كأنها تقول له: ها أنت عدت إلى مائدتي طالبًا رضاي وعطفيّ وشفقتيّ، لم تنظر إليه أصلًا، لماذا تفعل هذا؟

لماذا كل هذه المذلة والمهانة، ولماذا لا أخرج وأحفظ كرامتي... كرامتي؟ وأين الكرامة؟ هل ما زلت يا رافعي تحس بالكرامة التي فقدت وضاعت مذ حين؟ أنت الآن مجرد رجل مراهق، يركض خلف شهواته ونزواته، وأنا ابن الثالثة والأربعين، كلها تبددت.. ولكن لا..سحقًا للحب ووهمه، وما الحب أصلًا؟ ليس إلا وقوع في التيه الذي يكون بين الفكر وهو رأي ورغبة. والكرامة لم لا تنتصر؟ كرامتي أولى من هذا الحب.

وصار يهم بأن يقوم بعد أن غلى دمه واحمرّ وجهه ولكنه لم يقدر على القيام، بل شعر بأن شيئًا يمسك به ويقول له: ابقَ..ابقَ ..ابقَ... ستعود لك الآن..

ويوشك أن يستقر في مجلسه حتى يأتيه صوت آخر ويقول له: قُم..قم.. قم.. احفظ كرامتك..

وبين هذه الأصوات التي تجول في نفسه يقوم الرافعي مستبسلًا..يقوم وهو متكئ على قوة شعوره بكرامته... يقوم ويخرج ويترك مي مع شاعرها.

وما أن قام حتى همت باللحاق به، ولكنه ذهب...ذهب ولم يعد..

خرج إلى الشارع وكان الجو شتاءً، وكان يتصبب عرقًا، فسار في الطريق ولفحه برد يناير، وهو يرتجف ويرتعش.

وما أن وصل إلى أهله حتى كان قد مرض مرضًا شديدًا، وكان يتألم وهو متدثر في فراشه، فكان كمن يريد أن يخرج منه جن قد تلبسه، ولكنه يريد أن يخرجها هي من نفسه ومن قلبه.

وما أن صحا قليلًا بعد يومين حتى كتب لها رسالة القطيعة، فكتب لها:

(إلى الآنسة ماري إلياس زيادة..

هنيئًا لك الأعياد تأتي وتنقضي

ولا ينقضي أن يستجد لك السعدا

يعزُّ علينا أن تكوني بموسم

ولا نلتقي فيه سلامًا ولا ردا

فإن كان هذا الغصن أنبت شوكة

فما ذاك إلا أنه أنبت الوردا

مصطفى

طنطا -٥ يناير- ١٩٢٤م)

وقرأت مي الأبيات مرارًا، وأعادت قراءتها لعلها تفهم منها إشارة خفية غير الإشارة من ظاهر العبارة، ولكن لم تفهم شيئًا خفيًّا، فقالت لصاحبتها:

- يبدو أن الرافعي جاد في قطيعته.

- وماذا كنت تنتظرين من الرجل الحليم؟ وهل للبركان إلا الانفجار؟

- سأكتب له.

- وماذا تكتبين؟

- هذا ليس من شأنك.

شعرت مي وهي تكتب الكتاب أنها نادمة وإنها أغضبته، وأن تصرفها غير لائق، فكتبت لعلها ترجع الود، أو ترجع الزجاج بعد أن تكسر!

(سيدي الأستاذ الكريم..

لئن قصرت في الشكر على أبيات غصنا عليه ورد، وعليه شوك، فإني لم أقصر دون الشعور بذلك الشكر على تفضلك بإزجاء التهنئة إلي، والتمني..في مثل هذا الموسم من العام، بتلك الصيغة الشعرية الأنيقة.

ولكني أبادر بالرد على خطابك الأخير لأن فيه ما يدل على الألم، ويسوؤني أن أكون سببًا في هذا الألم الوهمي، ولا سيما أنك بارع في ابتكار مواضيع الألم، والجد في شعبها ومناحيها، وهي البراعة التي ألهمتك في العام الماضي أني عنيتك خلال بحثي عن التيمورية.

أشكرك كل الشكر على حسن ظنك بي، والسلام عليك أيها الأستاذ فنحن نقدرك أديبًا كبيرًا، ورافعيًّا نبيلاً.

مي زيادة

القاهرة ١٩٢٤م)

وأغلق الرافعي كتابه وهو غير مبال برقتها وعاطفتها التي تكاد تسيل من رسائلها. وتتابعت كتبها له وهو مصر. فقال لجورج بعد أن تصالحا وعاد الود بينهما:

- لماذا يا جورج؟ تحاول أن تعيد الود بيننا ولكن يا ترى هل هي صادقة؟ ولكن لم تعد نفسي تطير إليها، أنا راغب بها، ولكن كرامتي فوق حبي لها.

- وحقيق برجل مثلك إلا لا يذل مرتين.

- نعم. انظر لخطابها هذا ماذا تكتب به..(أيلزم أستاذنا سماءه الشعرية السحيقة في هذه الأيام؟! أم هو يغادرها حينا يتفقد شؤون الحياة الأرضية، ويتلقى تهاني أصدقائه؟! فليتقبل -إذا كان على الأرض- طاقة أهديها إليه من خالص التهاني وحار التمنيات)

- أتراها حقًّا يا جورج نادمة؟

- سيدي أنت أعلم بما تقوله.

- أجل.. أن نفسي تعاودني ذكرها وتحنني إليها.

وكتب إليها فيما بعد:

(يا نسمةً في ضفاف النيل سارية

مسرى التحية من ناء إلى ناء

يا ليت رياك مسَّت قلب هاجرتي

فتشعريه بمعنى رقة الماء

ليست تحب سوى أن لا تحبَّ فما

فما أعصى الدواء على من حبُّه دائي

عصير الكتب للنشر والتوزيع

هذا وإن النفس لتنازعني إليك... ولكن لم أتطفل على أحد من قبلك، ولن أتطفل عليك مرتين!

مصطفى

طنطا ١٩٢٤م)

وصارت تقرأها وهي حزينة متألمة!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(١٩)

وأحببتُها وهي بجملتها فنٌّ وجمالٌ ووحيٌ، لأرجعَ وأنا بجملتي حسنٌ وانفعالٌ وإدراك.

وصلت دعوة لها لكي تلقي خطبة في جمعية الإحسان الخيرية في طنطا!

فقالت لنفسها حتمًا سيكون هناك، كيف تحتفل طنطا ولا تأتي بنابغتها؟ وأخيرًا سوف نلتقي يا مصطفى، ولن أتورع عن محادثتك وإني قادرة على ذلك، ولما أخبرت خاتون. قالت الأخير لها:

- وبأي وجه سوف تقابلينه؟

- لم أفعل له شيئًا هو من غضب ونفر، وهو ما زال قلبه عندي أنا متأكدة ولكن كبرياءه، أنا لا أحبه حبًّا عاطفيًّا ينتهي بزواج، لا، أنا أحب الرافعي الأديب المفكر، وسوف أحاول أن أقنعه بهذه الفكرة، لا غير.

فتبسمت مي، وقالت:

- هناك مائة واحد مثله يريدوني كما يريدني هو!

ووجدت نفسها في طنطا وهي متأنقة مستعدة للخطابة وللقاء الرافعي، وكانت القاعة ممتلئة، وعلى المنصة مقاعد معدة لجلوس الضيوف.

فجلست مي، وهي تنظر إلى الحضور وتتفحص وجوههم لعله بينهم، وبينما هي تنظر إذ بالرافعي مع جورج يسيران بتوئد وتمهل، فتبسمت، وصعد الرافعي إلى المنصة وجلس قريبًا منها.

وصار ينظر إليها ويتأملها خلسةً ويشبع عينه منها، ولكن سرعان ما يعاوده ذلك الكبرياء وتلك الكرامة المتأججة فيه، فيعدل عن النظر إليها.

هل يعقل هو وهي في مكان واحد، وحديث بينهما بالألحاظ، وعاد ذلك الصراع الذي دار في نفسه يوم الفراق، فلم يجد بدًا من القيام..

قام وما زال الحفل في بدايته، وراح إلى البيت وقبل أن يخرج لحقه جورج، فقال له:

- إلى أين؟

- ألى البيت.

- لمَ، الحفل لمّا ينته بعد؟

- ألم ترها؟

قال جملته الأخيرة ومضى إلى بيته..

وخطبت مي خطبتها، واستمتع الكل بما قالت وبما خطبت، وبعد أن أكملت وصفق الكل لها عادت تريد النظر إليه ولكنها لم تجده..وظلت تبحث عنه بعينيها ولكن لم تَرَه، فقالت بعد أن انفض المجلس متغلبةً وكاسرةً ما بها من كبت وعنت:

- أين الرافعي؟!



عصير الكتب للنشر والتوزيع

كان الرافعي في بيته، فجلس يكتب رسالة عنها، ولكنها رسالة ليست بقلم العاشق الولهان، لا، إنما بقلم المتزن الذي فهم الأمور حقًّا وعرف الحبّ معرفة المستبصر، فكتب:

(أحببتها جميلةً لأوجدَ الجمالَ في معانيَّ وذوقي، ورقيقةً لأُسيلَ منها بالرّقَّة في عواطفي ونزعاتي، وظريفةً لأزيد بها في نفسي طبيعةَ مرح وابتهاج، ومتوازنةً لتُدخل في طباعي الانسجامَ والوزنَ وصحَّةَ التقدير، ومتفتّرةً لألقيَ من تفتُّرها على بعض أيامي فتنقلب حبيبةً بما تمنع وتصدّ، ورشيقةً لتهب خيالي سرَّ التوثُّب والحركة، وجذّابةً لأجدَ بها المغناطيس الذي يجذبني في الإنسانية إلى مصدري الأعلى.

وأحببتُها وهي بجملتها فنٌّ وجمالٌ ووحيٌ، لأرجعَ وأنا بجملتي حسنٌ وانفعالٌ وإدراك.

وكنت كأنما أضرب من الحياة في قفر من المعاني الجافية لا أتوسَّم نضرةً، لا أتهدّى إلى حقيقة جميلة، فأرسلتها الحقائق السامية التي تعشقها نفسي تقول في جمالها: تعالي إلينا من هنا: إنَّ الطريقَ من هاتين العينين! لا أقول إنه قد وقف نموُّ الكلمة السحريَّة التي تزداد وتعظُم بتجدُّد الأيام إذ كلُّ يوم في الحبّ هو دائما أوَّل حبّ.

.... ولا أقول إنّ ذلك الاسمَ الجميلَ قد أُنزل عن عرش الفكرة التي كانت تُملكُه الوجودَ لأنها أملكته القلب.

... ولا أقول إن الذكرى قد سُلّط عليها النسيانُ فصفّاها من حوادثها وأيامها.

.. ولا أقول إنّ ما كان في النفس جنونًا وعقلًا من معاني الحبّ قد رجع في النسيان كالكلمة المكتوبة على ورقة حُبس في الورقة معناها إلى أن يوجد من يقرؤه فيُخرجه.

.. ولا أقول إنها قد بُطلت القوة المتضاعفة من الجمال وكانت تجعل كلَّ ما يؤلم من الناس يؤلم منها هي أضعافًا، وكلَّ ما يسرُّ منها هي أضعافًا، كأنَّ الذي هو إنسانيٌ في الخلق ليس إنسانيًّا فيها.

...ولا أقول إنه قد اختفى من ذلك الوجه برهانه الذي كان يقوم بسحره الساحر دليلًا مُقحمًا في كلّ قضايا الحبيبة المتناقضة، فلا تتوافى وهي متناقضة إلا على نتيجة واحدة هي أنها الحبيبة، مهما تأتي أو تدع فليس بشيء منها على هوان.

.. ولا أقول إنه ليس بين ما تُعجَب به وما تزدريه إلا رجعة خطوة منقلبة وأنها هي قد خطتها فليست هي بعد.

..ولا أقول إنّ روضةَ الحبّ قد انتهت إلى أيامها المقشَعرَّة التي تظهر فيها كلُّ أشجارها حاملة من اليُبس والتجرُّد إعلان آخر الفصل..

......ولكني أقول.... والسلام عليها!

مصطفى صادق الرافعي

طنطا ١٩٢٤م



قال العريان:

- هل ندمت على قطيعتها؟

فقال الرافعي:

- أجل، وغدًا سأحاول أن أصلح ما أفسدته!

- ألم تنتصر لكرامتك؟

- بلى

- فلمَ الندم؟

- لأنك لم تجرب مر الفراق.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

القسم الثالث

مع طه

(كل جملة من جمل الكتاب تبعث في نفسك شعورًا قويًا أن الكاتب يلدها ولادة وهو يقاسي في هذه الولادة ما تقاسيه الأم من آلام الوضع)

طه حسين

(وها أنا أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها، وإن لم يكن الأمر عندك في هذا الأسلوب الشاق عليك إلا ولادة وآلامًا من آلام الوضع كما تقول فعليّ نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة اللّٰه)

الرافعي

(٢٠)

.. حتى ليظنها كل من حادثها أنها تحبه وما بها إلا أنها تفتنه.

ستة وعشرون يومًا أتم كتابه (رسائل الأحزان..في فلسفة الجمال والحبّ)، الكتاب الذي استوحاه من وَجْده بها، وعشقه لها، أتمها خمس عشرة رسالة، فكان كتابًا جزل الأسلوب، قوي العبارة، متينًا رصينًا مسبوكًا على أعلى ما يصل إليه الأديب النابغة، كأنه لم يكتبه إلا لها، هو لا يعنيه هل سيعجب به القرّاء أم لا، ولكن يعنيه كيف ستقرؤه؟ وهل ستفهم المغزى والإشارة؟

لقد زعم الرافعي أن هذا الكتاب وهذه الرسائل قد جاءته من صديق انقطع عنه خبره زمنًا فهام بعشق واحدة، وأفاض في وصفها في تلك الرسائل، والحق أن الصديق هو نفسه.. كانت عاطفة قوية، ولم يشهد الأدب العربي رسائل في الحب وفلسفته بهذه القوة.

ونشر الكتاب، وأهداه لمحبيه، واشترت مي نسخة، وعكفت عليه تقرأ به، وبينما هي تقرأ بالكتاب إذا بدموعها تنزل دون وعي أو إدراك، هكذا تبكي وتسأل نفسها: يا ترى من أين أتى بهذه الحرقة حتى كتب هذا؟ أيعقل مني؟ مني أنا؟ نعم..لقد كانت خاتون محقة فعلًا، وأنا خدعت الرافعي.

وجاءت خاتون في ميعادها، فقالت لمي بعد السلام:

- هل قرأت كتاب الرافعي الجديد؟

- ما زلت أقرأ به، (وأردفت ببرود) كالعادة وماذا تريدين من كاتب عظيم إلا هذا البيان وهذا السحر!

- لا تراوغي، وقولي أليست تلك الصفات التي يتحدث عنها هي أنت؟ وتسببت له بحرقة ولوعة فانفجر بهذا الكتاب؟

- وما يدريني، اذهبي واستفسري منه.

- ألم تشعري أن يصفك شاعرة فيلسوفة، و..و..

فقالت مي مستسلمة:

- نعم شعرت أن الكتاب لي، كتبه الرافعي لي، ربما كان يكتب عاطفته المتوقدة في رسائله لي، ولما انقطعت تلك المراسلات ولد هذا الكتاب الذي هو آية الإبداع، ولا يقدر عليه أي كاتب، ولكن تكلمي بصدق هل استطعتِ فهم الكتاب حقًّا؟ أم لا، فالكتاب صعب اللغة قوي التركيب، واستعاراته وكناياته عميقة صعبة، فهل فهمتيه؟

- نعم ولكن ليس كله، هل قرأت كيف وصفك؟ اسمعي..

وأخرجت الكتاب من حقيبتها وقرأت:

(خُلقت مقدرة تقديرًا كأنَّ كل شيء فيها وضع قبل خلقه في ميزان الجمال ووزن هناك بأهواء القلوب ومحابّها، وكأنها بعد أن تم تكوينها أرسلت الملائكة في دمها نقطة عطرًا فهي تنفح على القلوب برائحة الجنة، وهي أبدًا تشعر أن في دمها شيئًا لا يوصف ولا يسمى، ولكنه يجذب ويفتن، فلا نراها إلا على حالة من هذين الحالين حتى ليظنها كل من حادثها أنها تحبه وما بها إلا أنها تفتنه.

رشيقة جذَّابة تأخذك أخذ السحر؛ لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء؛ فإذا تنفس أمامها فقد عشقتها. وتراها ساكنة وادعة أمام عينيك، ولكن قلبك يشعر أنها تهتز فيه وتضطرب فلا يزال قلقًا نافرًا يتململ.

أما أنوثتها فأسلوب في الجمال على حدة؛ فإذا لقيتها لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب، وإذا كنت ذكيًّا فأضافت إلى ما فيها من بواعث الهوى إعجابها بك فقد أحكمت العقدة التي لا حل لها.

ومهما تكن من رجل باذخ فإنك بإزائها ترى كيف ينقاد جزء من الطبيعة لجزء من الطبيعة فلا براءة لك ولا مخرج من حبها. ومهما فإنك تتهافت تحت أشعة عينيها كما تتدحرج جبال الثلج في القطب إذا زاحها عما حولها شعاع رقيق من أشعة الشمس تتنهد فيه نسمة ضعيفة.

وهي في لونها ذات بياض أسمر محمر وضيء يخترق العين حسنًا، وكأنَّ ائتلاف الألوان الثلاثة فيها جملة مركبة من لغة النور والهواء والحرارة، معناها الجمال القوي الصحيح، هيفاء لم يهبط جسمها ولم يرب، تملؤ قلبك كما تملؤ ثوبها، وتتمايل أعطافها فلو خلق غصن البان امرأة لمشى يتهادى في مثل مشيتها، وتنظر نظرة الغزال المذعور ألهم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزًا يتوجس، في كل حركة صائد يطلبه، وتنفجر لعينيك في حركاتها وكلماتها كما ينفجر أمام الظمآن ينبوع الماء العذب، وما رأيتها مرة إلا أحسست نفسي تصورها تصويرًا كأنَّ الشمس والقمر قد صنعاها في الحسن صنعة جديدة، وتنتحل هذه الظبية أحيانًا كبرياء الأسد فيكون ذلك منها في باب الدلال مخاشنة

بين طبعي وطبعها تبث بها في الحب قوة تبلغ قوة الافتراس في أسد جريح.

تريد الهوى وتعرفه وتنفخ في ناره وتذكي ضرامها بما لا يخمد ولا ينطفئ، ولكن.. ولكن لترى من كل ذلك كيف أحترق.

تلك هي أيها العزيز؛ من أي الجهات اعتبرتها لا ترى أوصافها تنتهي إلا كما تنتهي أطراف الواحة الخضراء في رمال كالأقيانوس الجاف تقحمك المتالف، وتبث لك مصايد الموت في كل جهة، ولا يخرجك منها أن يكون عمرك أوسع منها، ومع ذلك فلا تخرج إلا حيًّا نصفه موت أو ميتًا نصفه حياة، إن عاشقها المسكين في كل ما يناله من حبها ليمشي إلى الجدب بخطوات خضر تُعد عليه واحدة واحدة؛ فههنا نبع يروي وهناك روضة تتنفس، وثم سرحة تفيء بظلها؛ وما شئت من متاع أحسن ما تنظر؛ ومن روح أجمل مما تبتغي، ومن نعمة أبدع ما تتحفى بك النعمة؛ ثم تنتهي من الواحة لأنك كنت تندفع ولا تحس ويسار بك ولا تدري، وتنتهي بعد الفضاء الجميل الأخضر إلى ذلك الفضاء المخيف الأبيض بياض عظام الموتى.. فضاء الصحراء المهلكة التي تقول لك أول ما تتلقاك: ليس من يحس بك ههنا فحيث شئت فمت..)

وكانت مي تستمع لكلام صديقتها وهي صامتة بحزن، ولما سكتت خاتون، قالت لمي:

- ألا ترين أن له غرورًا وكبرياءً كبيرين؟

- لمَ؟

- من عباراته، ومن نسبة الرسائل إلى صديق، فكأنه يقول لك: أنا أكبر من أن أذل لك.

- وهو متكبر حقًّا!

- ولكن ما هذا الوصف لبديع؟ كيف سحرتِه هكذا؟ قولي. اللّه يبعث لي شاعر يتغزل بي مثلك.

- وهل هذا غزل؟ لا تكوني بلهاء.

- ماذا تسميه إذن؟

- سمِّيه نار قلب قد أضرمت في كتاب فكانت رسائل الأحزان.

كان الأستاذ أحمد لطفي السيد في مكتبه بالجامعة المصرية، يقرأ في كتاب (رسائل الأحزان) ولما كان يقرأ بالرسالة السادسة ووصل إلى هذه الكلمة: (... حتى ليظنها كل من حادثها أنها تحبه وما بها إلا أنها تفتنه.).

فقال لطفي لنفسه: صدقت واللّه يا رافعي، وإني لأحبها وهي لم تحبني ولكن فتنتني، كم وصلت إلى عقل رزن متواز حتى فرقت في ما تكمنه مي وتظهره، وكيف وصفتها هذا الوصف البديع؟! لا بد أن جرحك عميق حتى وصفتها بهذه الدقة، وليس كما أخبرتني..

وبينما يحدث نفسه حول هذا الكتاب دخل الدكتور طه حسين وسكرتيره، وجلسا، وبعد السلام قال أحمد لطفي:

- هناك حملة جديدة أيضًا عليك، مقالات عديدة تنتقد دروسك في الجامعة عن الحضارة الفرعونية والمصرية القديمة، ويقولون: لماذا الفرعونية المصرية القديمة في الذات؟ لماذا لم تتحدث بهذا الإطناب عن الحضارة الإسلامية مثلًا؟

- لأن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين وستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وتقوى، والمصري فرعوني قبل أن يكون عربيًّا، ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها وإلا كان معنى ذلك اهدمي

يا مصر أبا الهول والأهرام وانس نفسك واتبعنا. يبقى المصري مصريًا، ولو تعارض الإسلام بيننا وبين فرعونيتنا ووقف ضد فرعونيتنا لنبذناه! وأنا أوصي بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية في مصر، لأنهما السبيل لفهم الحضارة المصرية القديمة التي يعرف عنها الأوربيون أكثر مما نعرف نحن المصريين.

- ولماذا لا تتحدث عن الحضارة الإسلامية وتعطيها هذا الاهتمام الذي تبذله في اليونانية والمصرية القديمة، ونحن بلد يتخذ الإسلام دينًا، فتكلم عنها تنل رضا الكثير من الخصوم والذين ينصبون العداء لك.

- لأن الحضارة الإسلاميّة ورثت حضارة الفرس واليونان، والمسلمون صاغوا من هاتين الحضارتين ومن تراثهم حضارة رائعة التي أزهرت أيام بني أمية وبني العباس والتي يحرص المحافظون منا عليها أشد الحرص. وهذه الحضارة الإسلامية الرائعة لم يأت بها المسلمون من بلاد العرب ، وإنما أتوا ببعضها من هذه البلاد، وببعضها الآخر من نصارى الروم، فعلينا أن ندرس أصل الحضارات أولًا باستفاضة.

- يا د. طه الآن حملة ضدك، وأنت تعلم أن الثقافة عندنا ما زالت لم تصل إلى مستوى من الحرية التي ننشدها، ونحتاج لجهد جهيد حتى تتحقق ما تريده من حرية الفكر والثقافة، لعل في تحويل الجامعة إلى جامعة حكومية تابعة لوزارة المعارف سيساعدنا في بسط حرية الفكر أكثر فأكثر.

فتبسم طه وقال:

- أخشى أن يكون العكس.

- لا، أحسن الظن.

- هل صحيح أنك ستكون مديرًا للجامعة؟

- لا أعلم. ربما.

- نأمل بك خيرًا.

- طبعًا...صحيح قرأت كتاب الرافعي الجديد (رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب)؟

- لم أرَه بعد، مع العلم إن هذا الرجل ثقيل أسلوبه، غير محبوب، فهو زعيم المذهب القديم كما تعلم.

- لماذا أرى بينكما بوادر خصومة توشك على الاضطرام؟ شعور ينتابني هكذا.

- وأنا أيضًا هذا الشعور، لأني لا أطيقه أصلًا، وهو يتربص بي على ما أظن.

- كن متزنًا، واحذر خصومات قد تجلب لنا المتاعب، خاصة وأن الرافعي كما تعلم مع الوفد، وأنا أعدك لأمر مهم في حياتنا الأدبية.

- وما هو هذا الأمر؟

- فيما بعد، لا أريد أن أخبرك بأمر قد لا يتحقق.

وسرعان ما أثار كتاب (رسائل الأحزان) حركة أدبية، وتبينت ملامح معركة، فإن إحدى الصحف العربية الصادرة في أمريكا كتبت عن (رسائل الأحزان) وأثنت عليه لو لا أنه اقتبس جملًا قرانية وأحاديث نبوية.

فغضب الرافعي وثارت حميته فكتب مقالًا مدججًا بمطلع تنم عن روح إسلامية قوية.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ولما قرأ الأدباء المقال دوى دويًّا بينهم..حتى أن الأستاذ أمير البيان كتب مقالًا ينصره، وكان مطلعه ينم عن تأثره بما كتبه الرافعي فكتب:

(حضرة الأستاذ العبقري، نابغة الأدب وحجة العرب السيد مصطفى صادق الرافعي نفع الله به.

أَراك قد استغربت قول إحدى الجرائد العربية الصادرة في أمريكا إنك لو تركت «الجملة القرآنية» والحديثَ الشريف لكنت الآن المرجع الذي لا ينازع، ولبذَّ مذهبك في البلاغة المذاهب كلها من قديم وحديث.

ويحق لك ولغيرك وأَيمُ الله أن يستغربوا هذا التمني الدال على مرض روحي عند بعض الناس، لأنه قد يجوز أن إنسانًا لا يعتقد بتنزيل القرآن ولكن لا يوجد عربي سليم الذوق لا يعتقد ببلاغة القرآن وحديث الرسول - ﷺ -...)

وفرح الرافعي بهذا اللقب الذي جاءه من دون موعد مسبق، فصار يقول ضاحكًا:

- نابغة الأدب وحجة العرب!

وما أن قرأ أحد أصدقاء الرافعي في المحكمة كلمة شكيب أرسلان حتى هتف: بل حارس البلاغة ولغة القران. فقال الرافعي باستظراف: أحارس البلاغة والقران؛ وموظف بالمحكمة!

أما صاحبته مي فلم يعنها من مقاله (الجملة القرانية) إلا هذه الجملة التي اقتطعتها من النص وصارت تقرأها مرارًا باحثة عن معنى خفي في هذه الجملة قد قصدها بها ورسالة لها:

وتقول الأخرى: وأنا امرأة أكتب كتابة أنثى.

فصارت تعيدها وتقول: من يعني بالمرأة سواي؟ لا توجد امرأة كاتبة بارزة يعرفها الرافعي عداي، ولكن هذه الجملة في معرض المدح أم الذم؟

وعادت تقرأ المقطع الذي فيه هذه الكلمة عدة مرات، فوجدته كأنه يذمها ويتهكم عليها، فقالت في حنق: مغرور، ويأبى إلا الهجوم!



قال الرافعي:

- فليكتب أنصار الجديد كتابًا يوازي الرسائل إن استطاعوا!

قال العريان:

- وهل توقعت هذا الانتشار للرسائل!

- لا يهمني الانتشار بقدر ما يهمني رأيها فيه، وعسى أن تصلها.

- وهل وصلتها؟

- طبعًا.



(٢١)

يسلم عليك المتنبي ويقول لك:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا
وآفتُه من الفهم السقيم!

كان الرافعي متوجهًا إلى جريدة (السياسة) الأسبوعية، وكانت يرأسها الدكتور محمد حسين هيكل، والدكتور طه حسين يعمل معه إذ يشرف على صفحة الأدب. فسلم الرافعي على الأستاذ هيكل وأهداه كتابه (رسائل الأحزان)، فشكره الأستاذ هيكل، وقال له:

- علمت أنه كتاب لم يكتب مثله من قبل في العربية قط، وتشوقت لقراءته، وانتظرته هدية منك، ومقال الأستاذ شكيب أرسلان شوقني أكثر.

- شكرًا لك، وأنتظر ردك وتعليقك..

وبينما هما يتجاذبان الحديث حول الرسائل إذا بالدكتور طه حسين يسير بهدوء مع سكرتيره نحوهم، فلما دخل وسلم قام الدكتور هيكل، وقال:

- أهلًا بالدكتور طه، هذا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي هنا، سلم عليه.

وشعر طه بالضيق نحوه، والرافعي كذلك، وكأنَّ حربًا منتظرة ستنشب، والخصمان اللذان لم يبدآ معركتهما وجهًا لوجه، هذان خصمان التقيا، يمد الرافعي وهو مشمئز مزدرٍ ولولا حضور الدكتور هيكل لما مدها، وكذلك طه نفس الشعور، وتصافح الخصمان، سبق وأن حصلت مناوشات بين الأستاذين منذ أن فتحت (السياسة) وبدأت تبث آراءها في الأدب التي هي تحت إشراف الدكتور طه حسين، كانت تلك المناوشات اقل من أن تكون حربًا أدبيّة شعواء.

فقال الأستاذ هيكل:

- بينكما تعارف سابق طبعًا، وخلاف لا نحب أن نثيره، بل بسيط..

وشعر طه أن ثورة داخله تريد أن تنفجر على هذا الذي أمامه ويزعم أنه أديب عظيم. يجب أن أحطم هذا الصنم المتكبر المغرور، فقال طه مقاطعًا الدكتور هيكل في لهجة حادة:

- لا ليس أمرًا بسيطًا، إنه أمر يتعلق بأسلوب الكتابة العربية ومناهجها، وهو زعيم القديم المستمسك بتلك الأساليب القديمة من سجع ومرسل وطباق، فهم عثرة أمام تقدم الأدب العربي، وبالرافعي وغيره لن يتقدم الأدب ولن يكون له مستقبل عالمي مرموق.

فقال هيكل محاولًا خمد الثورة التي ستكون قاب قوسين أو أدنى ومستغلًا انشغال الرافعي بما يكتب له:

- لا يصح هذا الكلام يا دكتور، أنت تهاجم بعصبية وانفعال، وليس هكذا يكون النقاش.

فثار الرافعي ثورته التي كان ينتظرها طويلًا لتمزيق ابن الجامعة البكر:

- مذهب جديد! سبحان الله! مذهب قائم على الركاكة هو واهن ضعيف، وهذا من ضعفكم، فأنتم ضعفاء لا تملكون قلمًا بليغًا فقلتم مذهب جديد.

- بل أنتم المستمسكون بالقديم، لو اطلعتم على أوربا وثورتها وتجديدها لعقلتم ما نعني، ولكنكم أضعف من ذلك بكثير.

- صه! لسنا نحن من يسرق من الفرنسيين، نحن عرب.

- التقدم لا يعني سرقة، ولم أرَ أمة مستمسكة بالمحافظة على آدابها كالأمة العربية، لا تجديد ولا أسلوب جديد، بل تقليد في تقليد.

وبعد محاولة الأستاذ هيكل هدأ الخصمان، فقال الرافعي نافخًا في النار:

- لم يعجبني شيء مما كتبته في الأدب وتاريخه أبدًا.

وعلت الأصوات والدكتور هيكل يحاول أن يعالج الأمر لكن الأمر قد انفلت ولم يعد هيكل قادرًا على كبح جماحه، بل صار نقاشًا حادًا يوشك أن يصل للضرب، فخرج الرافعي غاضبًا وهو يتوعد طه أن ينكل به.

وعاد طه إلى داره، وأملى مقالته بعد أن قرأ في (رسائل الأحزان)، فكتب نقدًا لاذعًا حاول أن ينزل من مكانة الرافعي.

وتوقع الرافعي أن طه سيهجم فانتظر هجومه، فكان مقاله في (السياسة) نقدًا له، وحاول أن يعثر على جملة قوية، ولكنه لم يجد غير هذه الجملة في المقال تعبر عن مستوى تفكيره (**وهذا الكتاب الذي نشهد إنا لم نفهمه..**) .

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فجهز الرافعي عدته وتأهب لدخول المعركة بمقال يتفجر صواعق على الدكتور طه وأدبه. فاستقبل الدكتور هيكل مقال الرافعي ونشره وكان أول مقال ينشر في (السياسة) نقدًا لطه.

فقد كتب الرافعي في هذا المقال:

(إلى الأستاذ الفهَّامة الدكتور طه حسين، يسلم عليك المتنبي ويقول لك:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا

وآفتُه من الفهم السقيم!

ولقد رووا أن كيسان مستملي أبي عبيدة كان يكتب غير ما يسمع، ويقرأ غير ما يكتب، ويفهم غير ما يقرأ؛ وكنت أحسب الخبر موضوعًا يتملح به للظرف والنكتة؛ أو معدولًا به عن وجهه إلى ناحية المبالغة، ولكني رأيت فيك دليلًا على أنه إن لم يكن صحيحًا فليس بعيدًا، وإن لم يكن واقعًا فليس يمتنع، أكتب إليك فتفهم غير ما تقرأ، وأحدثك فتحسب غير ما تسمع، وأراك إذا انتقدت كلامي دارت بك الأرض حول نفسك فأخذتك الغشية ولم يبق في الألفاظ ولا في المعاني ولا في الأساليب ولا في الشعر ولا في النثر إلا صورة تمر بسرعة دوران الأرض فلا تتبين منها شيئًا ولا تفهم منها شيئًا!

هن ثلاثة أيها الفاضل؛ فإما طبيعة في النفس مبنية على المكابرة والمراء، لا تبالي معها أن تحذف العقل وتُسقط الخلُق وتمتهن الكرامة، وتقول هذا، الذهب حجر وهذا الحجر ذهب، وتمضي في تعليل ذلك وإقامة الدليل عليه، والدفع عنه، ثم اللجاج والسفسطة وإثبات المنفي ونفي الثابت كما يفعل كل، أهل الجدل في غير طائل ولا منفعة إلا غلبة ثرثرة على ثرثرة، وإما طبع في، الكتاب مستوخم بارد تجذب إليه

أصول ضعيفة في الخيال والفكر، فلا يرتفع، ارتفاعًا ساميًا وإنما يُسِف ويخبط؛ وإما عقل لا كالعقول.، ونسأل الله السلامة.

فما من واحدة من هذه لك بُد!

قرأت يا سيدي ما كتبته عن رسائل الأحزان مما أتسمَّح في تسميته نقدًا، وألمتُ بالغاية التي أجريت إليها كلامك، وما كان يخفى علي أن في الحق ما يسمى تعسفًا، وفى النقد ما يدعى تهجُّمًا، وفى المنطق ما يعرف بالمغالطة، وفي كل صناعة ما هو انتحال ودعوى وتلفيق؛ وإلا ففيم يخالف بعض الناس على بعضهم، وكيف ترى الرجل الذي لا بأس بعقله يكون عليه الدين مؤكدًا بالإيمان والوثائق حتى لا سبيل إلى إنكاره ثم ينكره ويحلف على ذلك ويكابر فيه كان الذي حلف به عندما أخذ منك غيرُ الذي يحلف به عندما أنكر عليك، ثم يدبرك معه على كل أساليب الباطل ويمر بك في كل قضايا المغالطة، وإن في دمه ولحمه لو شُق عنه لأنطقه الله بأنه كاذب! ولعمري لقد كنت تكتب غير ما كتبت لولا أنك سمعت مني ما سمعته في تخطئتك والرد عليك حين قام الجدال بينك وبين الأستاذ هيكل؛ ورأيتك وقتئذ تكاد تبتلعك ثيابك، وكان كلامي منك كالماء يسقي شجرة الحنظل المر فما يزيد إلا مرارة.

ولو عقلتَ أيها الشيخ لعرفت أني أغضبتك عامدًا متعمدًا، وأفرطتُ عليك حتى اقتلعت نفسك من المجلس اقتلاعًا، وما أردت بذلك إلا أن أعرف مبلغ إنصافك، وأمتحن هذه الحرية التي تدعيها في كل ما تكتب، فإنه ليس ينفعني أن تثني عليّ، وليس يضرني أن تجهد في ذمي، ولا أنا أحفل بشيء من ذلك، وما أحسبك تظنني ألتوي في يدك أو ألين لغمزاتك، فقد بلغ من إنصافك حين تغضب أن تنفس عليّ كلمة واحدة من اللغة فلا تذكرني بها، فقلت فيما علقت على كتاب الأستاذ هيكل:

«أنكرت عليه استعمال كلمة مهوب بالواو لا بالياء، ونبهني «بعض الأدباء» إلى أن هذا الاستعمال صحيح، فرجعت إلى المعاجم، فمن الذي نبهك وردَّك إلى المعاجم؟ ولماذا لم تذكر اسمه وحقدت عليه حتى في الصواب الذي تعترف به، وأنت قد اندرأتَ عليه طعنًا في ثلاثة أنهر من الصحيفة التي تقول فيها هذا القول، أفيشق عليك أن تذكر لي حسنة واحدة في كلمة كنت لا تعرفها، ثم تسمِّي نفسك بعد ناقدًا حرًّا منصفًا وتريد أن يقبل الناس منك ويستمعوا لك ولا يعرفوا الذهب ذهبًا صحيحًا حتى ينظروا «دمغتك» عليه، ولا الجوهر جوهرًا كريمًا حتى يسمعوا شهادتك فيه؟ ثم أنزلت نفسك منزلة دون هذه وكنتُ والله أرفعك عنها، فقلت:

«كنت أصف العقاد في فصل مضى بشدة الغموض أحيانًا، وقد مضى الأستاذ الرافعي عن هذا الفصل وأنباني أنه لم يرض عن شيء مما كتبت كما رضي عن هذا الفصل» ولكن كيف أنبأتك هذا النبأ، بل متى تفهم دقائق الكلام وأغراضه وتكون حكيمًا في سياسة المعاني وأساليب الفكر؟ لقد كتبت إليك وإنه لم يعجبني شيء مما قرأتُ لك ما أعجبني ما كتبته في هذا الأسبوع والذي قبله « أي انتقادك من انتقدت: فلانًا وفلانًا والعقاد جميعًا لا العقاد وحده كما تزعم، وهذا هو ظاهر اللفظ، ولكن ما باطنه أيها الفهامة، فإنه يقال إن للكلامِ ظهرًا وبطنًا وحدًّا ومطلعًا.

لو كنت تعرف هذا أو تفهمه أفلا تسأل نفسك لمَ لم تعجبني كل الفصول التي كتبتها في الأدب وتاريخه وأنت تتخبط مَنذ سنتين وتكتب كل أسبوع مرة، فإن سألتها فهل تستخرج من ذلك إلا أن هذه الفصول هي في رأيي خلط مخلوط تركب فيها الشطط ثم تعتسف الطريق ثم تضع التاريخ كما تخلقه أنت لا كما خلقه الله، وتصول على الأموات الذين لا يملكون دفعًا ولا ردًّا ولا حوارًا ولا جوابًا، فإذا استخرجت هذا

فهل ينتج لك إلا أن إعجابي بهذين الفصلين خاصة إنما كان لأنك تصادم الأحياء الذين يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم وأن يردوك إلى الطريقة المسلوكة والنهج القاصد إن كانوا على شيء مما يسمى به الكاتب كاتبًا والأديب أديبًا، ولم يكونوا بهذا الجبن الهالع المخزي الذي ميز أبا حية بسيفه الخشبي... وجعله بطل المعركة، وأنت تعرف القصة بعد.

ثم رأيتك تنحط في منزلة دون المنزلتين مما يدل على بعدك من الإنصاف وذهابك عن حقيقة النقد، فتزعم أن «كل جملة من جمل الكتب تبعث في نفسك شعورًا قويًا أن الكاتب يلدها ولادة وهو يقاسي في هذه الولادة ما تقاسيه الأم من آلام الوضع» كذا كذا، لقد نبغت في الخيال بعد أن قرأت «رسائل الأحزان «وستنبغ أكثر من هذا بعد أن تقرأ «السحاب الأحمر» الذي أهديتك إياه، على أني لو أردت أن آخذ معك في كتابتي هذا المأخذ لجعلتك تتلوى من الكلام المؤلم على مثل أسنان الإبَر، ولاستقبلتك بما لا تدري معه أين تذهب ولا كيف تتوارى، كالإعصار الذي يأخذ عليك الجهات الأربع من آفاقها، أفأنت تقوم لي في باب الاستعارة والمجاز والتشبيه؛ ولكني أدع هذا الآن، فحدثني من أين علمت أني أكتب على هذه الهيئة؟

لعلك أخذت هذا المعنى البذيء من قولي لك «أتظن أني أكتب هذه الكتابة وأنا نائم؟ ألا إني أتعب نفسي لتجديد الآثار الفنية في البيان العربي».

هذه هي كلماتي بالحرف الواحد، فأنا لا أكاد أنسى ما أقول وما يقال لي. ولقد كتبت رسائل الأحزان في ستة وعشرين يومًا فاكتب أنت مثلها في ستة وعشرين شهرًا، وأنت فارغ لهذا العمل وأنا مشغول بأعمال كثيرة لا تدع لي من النشاط ولا من الوقت إلا قليلًا، وها أنا أتحداك

أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها، وإن لم يكن الأمر عندك في هذا الأسلوب الشاق عليك إلا ولادة وآلامًا من آلام الوضع كما تقول فعليّ نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله... وإني لأتحداك وأنا أخبر الناس بما تطيق وما لا تطيق. وسبحان من خلق النسر خلقة والديك الرومي خلقة أخرى...

ومنزلة رابعة هي أحط وأدنى من كل هذه الثلاث، فقلت «أنا أعلم أن الأستاذ الرافعي قد تكلف مشقة لا تكاد تَعدلها مشقة في وضع هذا الكتاب... وهو تكلف العناء في طبعه ونشره، وأنفق مالًا في هذا الطبع والنشر، فقد يكون من الإسراف في القسوة أن نعرض لعمل كهذا فيه مشقة وعناء ومال فنعلن أنه غير جيد... الخ الخ».

فما أنت والمال والطبع والنشر؟ ولكن اعلم أن هذا الكتاب لم يمض على صدوره أربعون يومًا معدودة حتى رد كل ما أنفق عليه غرشًا غرشًا، وسل كل طابعي الكتب العربية وكل المؤلفين هل اتفق لهم حادث واحد مثل هذا؟ ألا عدْ عن هذا الأسلوب، أسلوب شفقة الضرَّة على الضرة، وأبق مثل هذا الكلام لكتبك وأمثال كتبك.

إني والله – على إعجاب كان بك – أصبحت مستيقنًا أن الله تعالى لم يهبك إلى اليوم قلم الكاتب، ولا أودعك دهاء السياسي، ولا خصك بفهم الحكيم، وكيف يكون لك من ذلك وأنت تصف رئيس تحرير «السياسة» في ظرف ولطف... بأن يزدري القراء ويزدري الناس ويتخذ هذا قولًا ومذهبًا وفلسفة، ففي أي شيء يكون عمل الرجل في الجريدة الكبرى في أمة هي أشد الأمم حاجة إلى من يتألفها ويتولى إرشادها وهدايتها بأخلاق كأخلاق الأنبياء، تتسع كلما ضاقت الصدور، وتنعطف كلما نفرت القلوب، ولا ترى في الناس طبيعة تُزدرى، ولكن خطأ يُستصلح؟ عساك تحسب هذا مني دهانًا ومصانعة لرئيس التحرير، فسل أديب هذا

العصر الأمير شكيب أرسلان ماذا كتبت له منذ سنة خلت في ردِّي على بعض كتبه، وهل أثنيت له على غير الدكتور هيكل، وهل وصفت غيره بالذكاء وعمق الفكر وحسن الوصف وبلاغة التعبير، على حين لم تكن بيني وبينه شابكة، ولم يكن رآني ولا رأيته إلا مرة واحدة جاء فيها إلى طنطا مع الأستاذ الجليل لطفي السيد؛ ولكن الإنصاف يا سيدي إن لم يكن فوقه إلا الحق فذلك لأنه هو أساس الحق، ولقد أخبرتك أن هذه الحرية التي تزعمونها في الكتابة والنقد إن لم تكن مقيدة بالإنصاف وتواعده فهي سخافة ودعوى، وطلبتَ مني هذه القواعد ولعلي أكتبها لك يومًا إن شاء اللّٰه.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

ولننظر الآن في نقدك «رسائل الأحزان»، والعلة في أنك لا تفهمها.

فأما النقد فليس هناك إلا أنك لا تفهم كما تدعي على نفسك، وماذا عليّ من ذلك، ولقد قلت لك إن الذي لا تفهمه أنت يفهمه سواك، وإن اللّٰه خلق رؤوسًا غير رأسك وعقولًا غير عقلك، وإنه ليس من أَحد يعترف أنك مقياس العقل الإنساني في الأرض؛ فمسختَ هذا كله وزعمتَ أني قلت لك «لمَ تتخذ نفسك مقياسًا للناس» ثم رددت على هذه الكلمة بقولك: «إنَي أتخذ نفسي مقياسًا لنفسي» ففسر لي أصلحك اللّٰه كيف تكون نفسك مقياسًا لنفسها؟

أليس المقياس آلة لقياس غيره، فكيف يتأتى لك أن تكون نفسك التي تقيسها غير نفسك التي تقيس عليها؟ أم أنت ستلجأ إلى أصول البلاغة وتجعل العبارة على التجريد؟

فلم لا تفهم الكلام البليغ على هذه الأصول بعينها؟ وما هذا التحذلق وما هذا التداهي؟ ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وإما أنك لم تفهم فلست أردُّ عليك بفلان وفلان ممن فهموا الكتاب وأعجبوا به وأثنوا عليه، وأنت تعرفهم وتذعن لهم وتبالغ في تقديمهم، ولا أرد عليك بأن الطلبة فهموه، ولا بأن النساء فهمنه؛ وانظر ماذا كتبت مجلة «السيدات» في مصر وماذا كتبت مجلة «منيرفا» في سورية، فإنك لا تطمع في سطر واحد من مثل هذه الكتابة.

لا أراد عليك بهذا ولا بنحوه، ولكني أقول لك إن العسكري روى عن الأنصاري قال: قلت لبعض الكتاب - كتاب الخراج وأشباههم من رجال الديوان -:

ما فعل أبوك بحمارِه؟ قال باعِه!

قلت: فلِمَ تقول باعِه؟

قال: وأنت فلم تقول بحمارِه؟

فقلت: أنا جررته بالباء.

قال: فمن الذي جعل باءك تجر وبائي أنا... لا تجر

«يعني الباء التي في فعل باع»...

أليس هذا فهمًا يا دكتور، وقد اجتهد الرجل في القياس وانتهى إلى هذه النتيجة؛ فما عسى أن تقول، ولمن تشكو مثل هذا الفهامة؟ إلى السلطان؟ إلى أهل اللغة؟ إلى الأطباء؟... ولكن هل كان فهمه أن الباء في «باعه» حرف جر مما يفسد مقاييس النحو ويكره اللغة على أن تتسع

لحكمه وتطرد على قياس فهمه؛ وأنت أفلا ترى معي ومع الناس أن سوء الفهم وخطًا الفهم وعدم الفهم.

كل ذلك في مَرَدِّه إلى معنى واحد هو سقم الفهم. إنك لتجمع الكتب وتحفظ التاريخ وتدرس الأدب، فهل نفعك ذلك في قول الشعر حتى ذهب ديوان طه حسين بديوان المتنبي؟

وأنت تدرس البلاغة وتعرف قواعدها وأمثلتها، فهل أعانك ذلك في قطعة بليغة يعرفها لك الناس ويتناقلونها ويرونها من البيان في موقع ومن الجمال في منزلة؛ وهل جئت قط في كتابك بشيء من الوصف، أو قضى لك الناس بخيال ابتدعته أو مجاز اخترعته؟ وهل كتبت شيئًا في الحب والجمال وفلسفتهما وأوصافهما؟ فهذا كله من بعض العلة في أنك لا تفهم «رسائل الأحزان» إن صح قولك أنك لا تفهم!

وعلة أخرى: لمَ تكرر الكلام دائمًا في غير حاجة إلى التكرار مع أن أصحابك يرون هذا من أقبح العيوب، ويقولون إن المذهب الجديد... قائم على الأسلوب التلغرافي، فإذا كتبتَ فقدر أنك سترسل المقالة بالتلغراف وتدفع أجرة إرسالها، لقد كنتَ أفلستَ من زمن بعيد يا دكتور لو حققوا معك هذه القاعدة وأرسلوا مقالاتك بالتلغراف.. ولكن لم تلتزم هذه الطريقة حتى أصبح كالشعوذة المطبعية أن تكتب ستة أَسطر وهي ثلاثة بعد حذف المكرر والحشو؟

كنت أقرأ مقالة افتتاحية في «السياسة» ومعي أديب، فدفعتها إليه وقلت: لمن ترى هذه المقالة؟ فنظر فلم يجد عليها توقيعًا، فقلت له: لا يجب أن يكون التوقيع في ذيل المقالة بل قد يكون في أثنائها!

قال: فأين هو؟

قلت: اسمع: هذا هو التوقيع.

«فعلوا هذا، نعم فعلوه، فعلوه؛ أقسم لقد فعلوه، فعلوه...» .

أفمن يكتب هذا الهُراء ونحوه يرتقي به الفهم إلى دقائق المجازات والاستعارات والكناية والإشارة ونحوها مما قامت عليه هذه اللغة في بيانها وبديعها، وما لو حذف منها لتعطلت من كل محاسنها ولما صح أن يكون فيها كلام معجز ولا مقبول ألبتة؟

وما العلة في هذا وما السبب في أنه لا ينفق لك أبدًا خيال رائع، ولا تبدع شيئًا مما يبدعه الكتاب في كل الأمم، إلا مرة واحدة أردت أن تصف المرأة الجميلة في رواية «الإغواء» منذ أسابيع فقلت: صورتها، حركاتها، ألفاظها. زيها، مذهبها في الحوار والكلام: هي فتنة تتحرك».

فتنة تتحرك! لا أعرف لك في كل كلامك أحسن ولا أبدع من هذه الكلمة، وأنت تعرف من أين أخذتها وإن كنت لم تحسن السرقة، وإلا فما قولك حين تكون هذه (الفتنة) نائمة؛ أفتريد أن أدل قراءك في أي رسالة «من رسائل الأحزان» وصف الألفاظ والحركات والزي والمذهب في الجدال والشكل والدل وأنها فتنة خلقت امرأة؟

تقول في نقدك: «يجب أن أكون منصفًا (كذا وكذا) فأنت تستطيع أن تقطع كتاب الرافعي جملًا جملًا، وأن تجد من هذه الجمل طائفة غير قليلة «اسمعوا... اسمعوا» فيها شيء من جمال اللفظ يخلبك ويستهويك «تنويم مغناطيسي بالبلاغة» وفيها معان قيمة لا تخلو من نفع، ولكن المشقة كل المشقة في أن تصل هذه الجمل بعضها ببعض وتستخرج منها شيئًا».

إذن فالمشقة عليك ليست في الفهم ولكن في صلة الجمل بعضها ببعض. وأظن هذه المشقة بعينها هي التي تجعل من طبعك تكرار الكلام دائمًا في غير طائل ولا منفعة، وإذن فمن سبيلك أن تحسن فهم

كتب التاريخ والحوادث وحدها دون سواها مما لا يقع في الذهن متصلًا بعضه ببعض، وإذن فلك مذهب لا ينبغي أن نعرض له كما لا ينبغي لك أن تجعله قياسًا تقيس عليه!

ثم كيف يكون في الكتاب «معان قيمة» وجمل تستهوي وتخلب وهي مع ذلك طائفة غير قليلة، مع أنك تصرح قبل هذا الكلام بنصف سطر أبيض.

يعني مباشرة بالكلام الذي تفهمه - فتقول «أتممت الكتاب» ولم تفهم منه شيئًا؟ لا بد أن لك منطقًا خاصًا بك إذا كانت المقدمة فيه أنك أتممت كتابًا برأسه لا تفهم منه شيئًا. فالنتيجة من هذه المقدمة أن في الكتاب طائفة غير قليلة تستهوي وتخلب وفيه معان قيمة أيضا!

وهل هذا أقبح في التناقض أم قولك «ورأيي في الكتاب أني لا أفهمه، فلا أستطيع أن أقول إنه جيد أو رديء، بل «أستطيع» أن أقول إني لم أفهمه. وإذن فلا يمكن أن يكون جيدًا... لا.»

فأية الاستطاعتين هي الكاذبة المردودة؟ وإذا كنت لا تفهمه وكان من أجل ذلك (من أجل ذلك وحده) لا يمكن «يعني يستحيل» أن يكون جيدًا، أفلا يعد هذا اعترافًا منك بما أنكرته من أنك تعتبر نفسك مقياسًا للعقل الإنساني في الأرض المؤمنة بالله وكتابه وسنة نبيه؟

ألا يرى القراء كيف يتهافت الشيخ كان في جوفه شيئًا يغلي على شيء يتضرم وكيف تقول «لا يمكن» إلا إذا كنت أنت الممكن كله يا مولانا..؟»



ألا ليت شعري كيف يجمع الكلام العالي بعضه إلى بعض ويستخرج منه شيئًا وهو يراه ملء كتاب، إذا كان لا يستطيع جمع كلامه هو في

مقال صغير حتى ينفي عنه مثل هذا التناقض العجيب الذي يأتيك بسطر مؤمن يلعنه سطر كافر؟

أنا لا أقول إن الأستاذ طه ليس شيئًا في فضله وأدبه وعلمه، بل هو عندي أشياء كثيرة، بل هو مكتبة تنطق كتبها، ولكنه لم يلابس صناعة الشعر ولا أساليب الخيال، ولا أخذ نفسه في ذلك بمزاولة ولا عمل، فليس له أن ينقد هذه الصناعة ولا أن يقول في هذه الأساليب إلا بعد أن يجيء بمثل ما يكتب أهلها، فإن لم يكن ذلك في طبعه ولا في قوته ولم يستوِ له شيء منه فلا يغرنه أن يكون مؤرخًا، ولا يخدعنه أن يكون منطيقًا، ولا يحسبن فهمَ شيء هو فهم كل شيء، ولو كان الأمر موضوعًا في الأدب على الاتساع في الكلام والقدرة على القول الكثير صوابًا وخطأ، لما كان أكبرُ أديب هو أكبرَ الأدباء، ولكن أكبرُ الثرثارين...

ويقول الأستاذ إنه يفهم القرآن وكذا وكذا ولا يفهم كتابي، وأنا لا أصدق من هذا شيئًا، وأين حقائق البلاغة المعجزة في القرآن ممن إذا انتقدت بيت شوقي:

يا لطفُ أنت هو الصدى

من ذلك الصوت الرخيم

فهِمَ أن والشاعر يقول إن أرسطو كان ذا صوت رخيم... وأورد على ذلك أنه لا هو ولا شوقي سمع هذا الصوت... علم الله لو تقدم صاحب هذا القول إلى الامتحان في الأزهر وفسر لهم في البلاغة هذا التفسير لأعطوه «المكعب» كما يقول الأزهريون، والمكعب عندهم هو الصفر في درجات الامتحان! أيفهم هذا حقائق البلاغة في القرآن ودقائق الإشارات التي فيه؟

وقد قال صاحب المثل السائر وهو من كبار المجتهدين في علوم البلاغة ومن أبلغ كتاب الدهر: «كنت أقرأ في اليوم ختمة، ثم في الشهر. ثم في السنة، ثم ها أنا أقرأ في ختمة واحدة منذ كذا وكذا سنة ولم أفرغ منها، وكلما أعدت النظر ظهر لي ما لم يكن ظهر من قبل».

هذه هي أصول البيان العربي المعجزة، وهذه هي طريقة فهمه، فخذ أو فدع!



إن المجاز وهو أساس البيان يمنعك أن تفهم إلا بالقرينة والعلاقة، فلا يطلق لك الفهم بل يقيده بهما، ولا يترك لك أن تقول أفهم ولا أفهم بل إحدى اثنتين: إما أن تقر للكلام وإما أن تقر على نفسك. وقد كان العرب أصحاب أذهان حديدة، وكانوا لا يكتبون، فاضطرهم ذلك إلى الإبداع في ألفاظهم وطئ المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة والاكتفاء باللمحة الدالة والإشارة الموجزة والكناية الرائعة والتفنن في أساليب القول على وجوه شتى ومذاهب كثيرة؛ فليس يتولى هذا البيانَ العربي إلا الذهنُ الدقيق والفطنة الحادة والبصيرة النقادة، وإلا من جَرَى مجرى العرب أنفسهم، ينزعه طبع أو يجذبه أصل؛ فإن لم يكن هناك فأبعَدَهُ الله، والسلام!

عصير الكتب للنشر والتوزيع



ضحك الرافعي وهو يقول:

- كان درسًا لن ينساه طه ما حيي.

- كم عانيت منها لدرجة أنك خضت هذه الحرب مع طه؟

- الحب يجعلك تدخل في أشياء قد يتبين لك فيما بعد أنها متهورة مهدرة.

- هل ندمت على حربك مع طه.

- لا، ومستعد لخوض حرب جديدة!

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢٣)

يكبر بعض الأدباء من صغر المحيطين بهم.

كان فكره قد خلا منها شيئًا، مشتغلًا بمقالاته عن طه حسين عنها محاولًا نسيانها، ويبدو أن معركته لم يبدأها إلا لينسى حبيبته تلك، في بعض الأحايين تنازعه نفسه وتلومه وتوبخه، فيعاوده الندم لتركها ويتحسر على تلك الأيام؛ أيام الثلاثاء، الذي لم يعد له طعم، فتذكر أبيات صبري عن أيام الثلاثاء، كان الشعر قد عاوده بعد أن هجره ردحًا من الزمن، فكان شعره هذه الفترة فيه ألم الفراق.

وكان قد بعث هذا الأسبوع إلى المقتطف قصيدة وفيها:

متى ينتهي هذا الجفا وقد انتهى

ومن أول الأيام فيه انتهى صبري

وكان هذا البيت رسالة إلى مي، فهل فهمتها؟ وهكذا كانت نفسه تنازعه بين غرور وكبرياء كرامته من جهة ومن نداء قلبه من جهة أخرى.

وفجأة تهبط إليه رسالة من دمشق من أديبة سورية صاحبة مجلة (منيرفا) ماري يني، تطلب منه مقالًا واستفسارًا حول مقاله عن طه حسين وتطلب منه كلمة في (رسائل الأحزان) لتنشرها على لسانه، وكانت المجلة قد نشرت سابقًا مقالًا عن الكتاب، وكان ذلك المقال قد نال إعجاب الرافعي، فكانت المجلة محببة له. فرد عليها وأجاب طلبها، وسرعان ما

تطورت العلاقة، فصارت تكتب له بين الحين والحين رسائل لا تخلو من حب!

فوجد الرافعي عندها سلوى ومتنفسًا بدل حبه الضائع ولكنه لم يشأ أن يكون علاقة معها كما فعل مع مي، بل خاف منها، أليست نفس الاسم؟ أجل تلك ماري زيادة، نعم..اسمها الحقيقي ماري وليس مي، وهذه ماري ينـي، أخشى أن تفعل كما فعلت صاحبتها من قبل.

كان بين الاستمرار في العلاقة وقطعها مترددًا ومتوجسًا منها، فكان يرد عليها أحيانًا، وأحيانًا لا، وكانت هي راغبة فيه متواضعة بين يديه، تستشيره في ما تكتب، وقد كتبت له يومًا:

(صديقي الغالي:

أحقًّا أنك تقول عن اعتقاد ثابت في إمكان مزج هذا القلم الضعيف، بقلمك الكبير النشيط؟.. ولا أخالك هازئًا في ما بيننا هذا.

إذن وقد عرفت درجة العجز التي أنوء بها، أراك ساعيًا إلى إنهاء الجزء الثالث من كتابك (تاريخ آداب العرب)، أقول هذا مع رغبتي الشديدة في إصدار الكتاب الثاني. وأخيرًا أهديك من عاطفة إعجابي ما لا يستحقه سواك.

ماري يني

دمشق ١١-يناير- ١٩٢٥)

- أتعلمين يا نفيسة أني محتاج لحب جديد ينسيني تلك، وقد وجدته كما ترين عند الفتاة الدمشقية هذه، ولكني خائف منها أن تفعل كما فعلت تلك، قد وصلت إلى الخامسة والأربعين ولم أعد قادرًا

عصير الكتب للنشر والتوزيع

على خوض تجارب عشقية، ولكن النفس تميل، ولكن ماري هذه أرى لهجتها صادقة راغبة في علاقة حقيقية، ولكن أنا مريض، وغير قادر على تحمل تبعات الحب العنيف، أترين هذه الحرب مع طه حسين؟ هل تدرين أنها السبب الأول في هذه الحرب، أجل هي، فلها كتبت الرسائل والسحاب، وبسببها حربي مع طه التي لم تنته بعد، وما أظنها منتهية، ماذا ترين في ماري؟

فقالت زوجته مجيبة من غير ضجر:

- اتركها هكذا يا مصطفى، تستلهم منها معاني الحب ما يعينك على الكتابة والشعر، اذهب وتحابب مع النساء لتكتب رسالة أو قصيدة وتستلهم منها معنى جديدًا، ولا تدخل في حب حقيقي كحب مي.

- صح صح، وما أكثر اللواتي يظنني عاشقًا لهن، فعندما كنت في الإسكندرية متصيفًا، تعرفت على شاعرة أديبة واسمها (سعاد)، كان تعارفًا عاديًا عابرًا، وأرسلت لي بعد أن نشرت الرسائل تظن أنها حبيبتي، وكتبت لي في هذه الرسالة الأخيرة بيتين:

فيضٌ من الرحمن شعَّ بروحه

كالشمس فاض على الحياة سناها

سر مصطفى، فالله جلَّ جلاله

مع روحك العطار إذ أنشاها

وهذه (فاطمة) بثت الإشاعات وتثرثر هنا وهناك وتقول إني أحبها وتبعث شعرًا ليس بشيق متغزلة بي:

يا حياتي وغذائي

وصباحي ومساه

من يضحي في سبيلي

كل غال لي يراه

وإذا ضاقت حياتي

وسعتني راحتاه

لو كنت أحبهن لما تركتهن يتغزلن بي، بل لملأت المجلات والجرائد غزلًا، وتحسب كل واحدة منهن أنها مي.

ثم يضحك..

وظلت ماري تراسل الرافعي إلى أن فاجأته مرة برسالة لها تقول في إحدى سطورها: (**ألا تجد أن محادثتي إياك جريمة هي نوع من الجريمة التي لا تغفرها شريعة ولا دين؟! أعتقد أن فيها خروجًا عن حد اللياقة التي تقتضيها حقوق المرأة!!**

ماري)

وضجر الرافعي من رسالتها هذه وقال: ما بها هذه السيدة تتخبط هكذا؟



وأعلنت الجامعة المصرية انضمامها إلى وزارة المعارف وتبعيتها إلى الحكومة المصرية بعد أن كانت أهلية.

(**أستاذي الكبير، الفيلسوف العظيم أحمد لطفي السيد بك...**

تقبل تحياتي ومباركاتي بمناسبة تسلمكم منصب (مدير الجامعة المصرية)، وإنني على ثقة تامة بقدرتكم ببث روح جديدة للعلم في بلادنا، وتوسيع نطاق البحث العلمي والتمحيص والتحقيق عل منهاج الجامعات العالمية، ثقتنا بك عظيمة أيها الأستاذ العظيم.

تلميذتكم مي إلياس زيادة

القاهرة ١٩٢٥م)

طوى لطفي السيد الكتاب وهو فرح مبتسم.

- ما هو الأمر الذي دعوتني إليه سيادة المدير؟

(قالها طه حسين بعد أن مل الانتظار بسبب انشغال لطفي السيد بقراءة رسالته)

فأجابه لطفي بك:

- أنا أثق بعلمك ومعرفتك وما لك من مكانة علمية مرموقة، وأعرف ولاءَك للجامعة فأنت ابنها البكر، وهي لها عليك يد سابغة خاصة عندما أرسلتك إلى السوربون ونلت الليسانس والدكتوراه فيما بعد جهود علمية مضنية، وانطلاقًا من ثقتي هذه أعهد إليك بتدريس مادة (تاريخ الأدب العربي) بكلية الآداب بالجامعة.

فتبسم طه، وقال:

- أشكرك يا لطفي بك، وأرجو أن أكون على حسن ظنكم في خدمة العلم.

- وثقتي بك يا دكتور كبيرة.

كان طه حسين يعد موضوعًا في تاريخ الأدب العربي وبحثًا مستفيضًا يتوقع أن يكون له صدى ودوي في حركة الأدب العربي المعاصر. عاد إلى بيته وهو يقلب الفكرة في رأسه، فقال هل لنفسه: الفرصة قد حانت الآن لإلقاء المحاضرات.

وبدأ الاستعداد للموسم الدراسي الجديد لعام ١٩٢٦م، وفتحت الجامعة أروقتها لاستقبال الطلاب ولتبث الروح الجديدة في الأدب والفكر والفلسفة. وكان طه يجهز محاضراته التي سيلقيها ويحث من يلقاهم من الطلاب النابهين لدخول كلية الآداب. ولقي طالبًا نبهًا فطنًا ذكيًّا، وكان ذلك الطالب عمره سبعة عشر عامًا، كان الطالب نحيلاً يميل إلى السمرة، يظهر نبوغه بالأدب من أول قوله، ومن حفظه وعلمه، فقال له طه حسين وكانا يسيران في الجامعة:

- إلى أي كلية ستقدم؟

- أريد أن أدرس اللغة العربية في كلية الآداب.

- هذا جيّد (ثم قال متبسمًا) ستكون طالبًا عندي، وستكون متفوقًا. قل لي من أكثر شاعر تحبه؟

فقال الشاب بلا تردد:

- المتنبي..

فتبسم طه ابتسامة باهتة من ذلك الشاعر الذي لم يحبه يومًا، فقال له:

- كم بيت تحفظ له؟

- أحفظ ديوانه كاملاً!

- أحسنت، وهل تحفظ القران الكريم.

- نعم.

- وهل تعلم أني لا أحب المتنبي؟

- لماذا يا دكتور؟ المتنبي أعظم من عرفه تاريخ أدبنا العربي.

- ليس أعظم، فأبو نواس أفضل عندي.

فرفع الشاب حاجبيه وقال متعجبًا:

- وهل تقارن المتنبي بأبي نواس؟

- المتنبي رجل كاذب مغرور ومنافق. مدح سيف الدولة تملقًا، ولما لم يجد عنده شيئًا هجاه، ثم مدح كافورًا، ولما لم يأخذ منه شيئًا هجاه أيضًا. سوف نتناقش عنهم كثيرًا عندما تأتي في الكلية طالبا.

- ولكن لا يحق لي الدخول في قسمكم.

- لمَ؟

- لأني من القسم العلمي.

- لا عليك، سوف تدخلها.

- حقًّا؟

- أجل. ولكن قل لي ما اسمك؟

- محمود محمد شاكر!

- أبوك محمد شاكر القاضي المعروف؟

- نعم هو.

- قل لي من هم أساتذتك وشيوخك الذين تأثرت بهم؟

- اثنان: سيد بن علي المرصفي، والثاني هو...

فتردد في ذكر اسمه، فقال له طه:

- قل..ما بك..؟

- الثاني هو مصطفى صادق الرافعي.

فتبسم طه، وقال:

- تظن إني أضجر منه؟ لا، الاختلاف بالآراء لا يفسد إمكانية الشخص، فالرافعي عالم وأديب كبير، ولا تظن إني أكرهه، لا، ولكن بيننا خلاف هذا لا يعني إني أكرهه أبدًا.

وكتب محمود شاكر إلى الرافعي يخبره أنه سيكون طالبًا في الجامعة بكلية الآداب كما وعده طه حسين.

فقال الرافعي:

- يا أبا رية هذا تلميذي النجيب محمود شاكر سيدخل الجامعة بكلية الآداب، وقال أن طه سيساعده في ذلك لأنه من القسم العلمي.

فقال أبو رية وهو يبتسم:

- محمود شاكر طالب ذكي نبه، ومكانه في الأدب العربي لا في الهندسة والطب، وحسنًا فعل إذ وسط الدكتور طه حسين.

- محمود يحفظ ديوان المتنبي كاملًا عن ظهر قلب، إضافة إلى إمكانية وملكة في الشعر، لعل الفضل الأكبر يعود للمرصفي، فقد قرأ محمود عليه حماسة أبي تمام وكتاب المبرد والكثير من

عصير الكتب للنشر والتوزيع

القصائد، أتوقع أن يكون من كبار الأدباء، ولكن قل لي يا أبا رية هل تتوقع أن رجلًا مثل محمود شاكر سوف يسكت عن طه حسين إن تتلمذ عنده، فمحمود له حمية كبيرة على الدين وغيرة لا يهاب أحدًا، وطه هو من هو؟

- تقصد أن صدامًا متوقعًا بين محمود وطه حسين؟

- بلى..

- لا أظن، فطه أستاذ الجامعة الأول ومكانته مرموقة، ومحمود تلميذ صغير.

- ليس صغيرًا، وسوف ترى.

وألح طه حسين على لطفي السيد بأن يسمح لمحمود شاكر بدخول كلية الآداب.

- يا دكتور طه لا يمكننا مخالفة القوانين، وهل تريدني أن أسمح لطالب يقضي الثانوية في دراسة الرياضيات والكيمياء وأشباههما، وفي الجامعة ندّرسه الأدب والنحو الصرف والفلسفة؟ هه؟

- معك حق، ولكن محمود ليس طالبًا عاديًّا لكي نقول هذا، محمود ذكي وله اطلاع على الآداب ويحفظ الكثير من الشعر العربي الذي يؤهله ليكون أديبًا مرموقًا، وهو تلميذ المرصفي والرافعي.

فقال أحمد لطفي السيد وفي لهجته شيء من المطعن:

- تلميذ الرافعي إذن!

- نعم، ولا تحسب أني أبغض الرافعي، لا، أنا لا أكرهه.

فقال لطفي السيد في لهجة جادة:

- صحيح، احذر من الاستمرار في المعركة مع الرافعي.

- أي معركة؟ مجرد نقاش أدبي.

- الرافعي رجل فيه شدة بالنقد، فإذا وضعك في رأسه لن تسلم منه، ولا تنسَ أن الوضع معه ويساعده، فسعد زغلول والوفديون يحبون الرافعي، وهو صاحب نشيد (صوت سعد)، وأنت من الأحرار الدستوريين، والوضع ليس في صالحكم، والجامعة أملنا، فاحذر، لا نريد أن نبدد ما بنيناه من بعد الثورة إلى الآن في خلافات فرعية جانبية.

- أفعل إن شاء الله.

- صحيح.. سمعت أنك تعد محاضرات في الأدب الجاهلي؛ محاضرات سيكون لها دوي، أين وصلت بها؟

- قريبًا تكتمل، وسوف تكون كتابًا بعد أن ألقيها على الطلاب، وسيكون أول ثمرات الجامعة.

- أهم شيء أن لا تقرب الفكر الديني بشيء مثير أو مسلم فالمرحلة الراهنة لا تتحمل.

فقال طه بلهجة المصرّ:

- إذا كان من حق الناس جميعا أن يقرأوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني إلا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا الدرس والفهم ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هي كتب مقدسة.

وكان طه كثيرًا ما يردد جملته الأخيرة بين طلابه وخاصته.

كان جعبة طه حسين مليئة بمثل هذه الآراء التي قد استعد في تلك المرحلة لبثها بين طلابه في الجامعة المصرية.

قال الرافعي:

- محمود محمد شاكر تلميذ نجيب، يتفجر روحًا إسلامية، ولا أعلم كيف اجتمع في أول الأمر مع طه، ربما القدر، وربما لشهرة طه التي لا يستحقها.

- ولكنه أثبت إخلاصه لكم.

- أجل..فليحفظه الله لي.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢٢)

شرُّ المصلحين رجل متسلط على أمة يحكمها بعقل كبير فيه موضع فكرة مجنونة...

وبدأ الدكتور طه حسين بإلقاء محاضراته في الأدب الجاهلي. وجاء الطلاب الذي كانوا زهاء مائتي طالب، ودخل طه حسين القاعة وسرعان ما هدأت القاعة، فقال طه حسين مفتتحًا دروسه في الأدب الجاهلي:

(هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد، لم يألفه الناس عندنا من قبل. وأكاد أثق بأن فريقًا منهم سيلقونه ساخطين عليه، وبأن فريقًا آخر سيزورون عليه ازورارًا.

نحن بين اثنين: إما أن نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء، لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو منه كل بحث والذي يتيح لنا أن نقول: أخطأ الأصمعي أو أصاب، ووفق أبو عبيدة أو لم يوفق، واهتدى الكسائي أو ضل الطريق، وإما أن نضع علم المتقدمين كلهم موضع بحث. لقد نسيت فلست أن أقول البحث وإنما أريد أن أقول الشك. أريد أن لا تقبل شيئًا مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهي إلى الرجحان.

والفرق بين هذين المذهبين في البحث عظيم، فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث إلى الاطمئنان والرضا، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب وينتهي في الكثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لا يناله بتغيير ولا تبديل ولا يمسه في جملته وفي تفصيله إلا مسًّا رقيقًا. أما المذهب الثاني فيقلب العلم القديم رأسًا على عقب. وأخشى إن لم يمحَ أكثره أن يمحو منه شيئًا كثيرًا.

ولندع هذا النحو من الكلام العام ولنوضح ما نريد أن نقوله بشيء من الأمثلة:

بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها إلى الحق. فأما أنصار القديم فالطريق أمامهم واضحة معبدة، والأمر عليهم سهل يسير. أليس قد أجمع القدماء من علماء الأمصار في العراق والشام وفارس ومصر والأندلس على أن طائفة كبيرة عاشت قبل الإسلام وقالت كثيرًا من الشعر؟ أليس قد أجمع هؤلاء العلماء أنفسهم على أن لهؤلاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة مضبوطة يتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها؟ أليس لهم مقدار من القصائد والمقطوعات حفظها عنهم رواتهم حتى جاء عصر التدوين فدونت؟ وبقيت إلى أيامنا هذه؟

ولا ينبغي أن تخدعك هذه الألفاظ المستحدثة في الأدب، ولا هذا النحو من التأليف الذي يقسم التاريخ الأدبي إلى عصور، ويحاول أن يدخل فيه شيئًا من التنظيم والترتيب؛ فذلك كله عناية بالقشور والأشكال لا يمس اللباب ولا الموضوع. ولا يزال امرؤ القيس صاحب (قفا نبك..) وطرفة صاحب (لخولة أطلال..) وعمر بن كلثوم صاحب (ألا هبي..) وما زال العرب في جاهليتهم ينقسمون إلى شعر ونثر. والنثر ينقسم إلى مرسل ومسجوع. إلى آخر هذا الكلام الذي يقوله أهل القديم.

وأما أنصار الجديد، فالطريق أمامهم معوجة ملتوية، تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى. وهم لا يكادون يمضون إلا في أناة وريث هما إلى البطء أقرب منها إلى السرعة. ذلك أنهم لا يأخذون أنفسهم بإيمان ولا اطمئنان، أو هم لم يرزقوا هذا الإيمان ولا الاطمئنان. فقد خلق الله لهم عقولاً تجد من الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضا.

وهم لا يطمئنون إلى ما قال القدماء، وإنما يلقونه بالتحفظ والشك. ولعل أشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقةً واطمئنانًا. هم يريدون أن يدرسوا مسألة الشعر الجاهلي فيتجاهلون إجماع القدماء على ما أجمعوا عليه، ويتساءلون: أهناك شعر جاهلي؟ فإن كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وما مقداره؟ وبم تميز عن غيره؟ ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج حلها إلى روية وأناة وجهود الجماعات العلمية لا إلى جهود الأفراد. هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون إلى بائدة وباقية، وعاربة ومستعربة، ولا هؤلاء من ولد إسماعيل، ولا أن امرأ القيس وطرفة وابن كلثوم قالوا هذه المطولات، ولكنهم يعرفون القدماء قالوا ذلك. ويريدون أن يتبنوا أكان القدماء مصيبين أم مخطئين؟

والنتائج التي يذهب لها المجددون ثورة أدبية، وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينًا، ويجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه.

وأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك، أو قل ألح عليَّ الشك، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إن لم يكن يقينًا فهو قريب من اليقين. ذلك أن الكثرة الملقة مما نسميه شعرًا جاهليًّا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام،

فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدًّا لا يمثل شيئًا ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي. وأنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النتيجة، ولكني مع ذلك لا أتردد في إثباتها وإذاعتها، ولا أضعف عن أن أعلن إليكم أن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء؛ وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين.

أريد أن أقول إني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة. أريد أن أصنع في الأدب العرب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق هذه الأشياء في أول هذا العصر.)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ويمضي الدكتور في محاضراته على هذا النهج، فجاءت قنابله وثورته متتابعة متسلسلة، فقال لهم مرة:

(للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا؛ ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلًا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة...)

قال: **(ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والتوراة والقرآن من جهة أخرى)**

وقال في محاضرة أخرى: (**فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية، ونهضة دينية وثنية؛ وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة...**

قال: وإذا كان هذا حقًّا، ونحن نعتقد أنه حق، فمن المعقول أن تبحث هذه النهضة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تحدث عنها الأساطير، وإذن فليس ما يمنع قريشًا من أن تتقبل هذه «الأسطورة» التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم... كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة « أسطورة» أخرى صنعها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس بن بريام صاحب طروادة)

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وغضب محمود شاكر لتلك المحاضرات التي يذيعها الدكتور طه، فقال لصاحب له:

- أريت ما يقوله الدكتور طه حسين؟ أهذا كلام يعقل ويصدق؟ ينكر الشعر الجاهلي كاملًا كأن لم يكن، ما الحيلة؟ وماذا نصنع؟ هل أكتب إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي؟ ولكن الرجل فيه حمية وأخشى أن يقوم بما لا يحمد عقباه، ولكن هذا ديننا وإسلامنا، وفي دروسه دعوة صريحة للكفر.

- ماذا تقول يا محمود؟ الأستاذ من دعاة الكفرة؟

فقال محمود وهو فائر ثائر:

- ألا تسمعون ما يقوله؟ أم أنكم صمٌّ فلا تسمعون؟

- اذهب إليه أنت وناقشه لعله يقنع منك.

- سأفعل إن شاء الله..

وبينما الدكتور طه يهم بإلقاء محاضرته في الشعر الجاهلي قام محمود شاكر، وقال له:

- إني أستسمحك يا أستاذنا في أن أبدي رأيي.

فقال وقد عرفه من صوته:

- قل يا محمود فأنت طالب محمود..

- هذه الآراء التي تقولها فيها كفر صريح، من تكذيب للقرآن.

- ولكني لم أكذبه، بل هو السبيل لمعرفة الحق، وعلى الباحث أن يتجرد من كل شيء، حتى من الدين نفسه، وأن يشك في كل شيء، حتى نتوصل إلى نتيجة، وأنا قرأت كثيرًا وتدبرت كثيرًا حتى وصلت إلى هذه النتائج، فلم أرمها جزافًا.

- المنهج الحقيقي في البحث بقضية الشعر الجاهلي هو قراءة الشعر الجاهلي والأموي والعباسي قراءةً متذوقة مستوعبة ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلي والإسلامي قبل الحديث عن صحة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية، أو التماس الشبه لتقرير أنه باطل النسبة وأنه موضوع في الإسلام من خلال روايات هي في ذاتها محتاجة إلى النظر والتفسير.

فبدت علامات الضيق والغضب على وجه الدكتور، وقال:

- قرأت وبحثت أكثر مما تتوقعه وتتصوره، والآن شكرًا على مداخلتك، ولتبدأ المحاضرة..

وبعد فترة نشر الدكتور طه حسين أستاذ الآداب في الجامعة المصرية كتاب (في الشعر الجاهلي) والذي بث فيه كل آرائه ومحاضراته التي

ألقاها على الطلاب في الجامعة. وانتشر الكتاب وبدأت ملامح الضجة الكبر والثورة التي كان يتوقعوها طه حسين.

لم ينتبه الرافعي للكتاب أو يسمع به إلا حديثًا في خطاب محمود شاكر له منذ أشهر عن المحاضرات التي فيها كفر صحيح، ولم يجب الرافعي؛ فهو لم يسمع أو يقرأه.

وبينما هو في المحكمة جاء جورج إبراهيم فقال له:

- ألم تقرأ مقال الأستاذ عباس فضلي عن طه حسين وآرائه في الأدب الجاهلي؟

فقال الرافعي مستغربًا:

- أي آراء؟

- كتابه الجديد (في الشعر الجاهلي) الذي أصدره مؤخرًا وأثار جدلًا شاسعًا.

- لم أعلم به إلا الآن.

- خذ هذا المقال واقرأ..

فمسكه الرافع وأخذ يقرأ بنهم عن (الدكتور طه حسين وما يقرِّره) عند حديثه عن تأثير الوثنية واليهودية والنصرانيّة على الشعر العربي وكيف انتهى إلى نتيجتين:

١ - أن لا تأثير للوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي، والجاهلي منه على الأخص.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

٢ - أن ما وجد من الشعر مشتملًا على مبادئ الوثنية أو اليهودية أو النصرانية إنما هو مدسوس على من نسب إليهم، وإنه لم يكن موجودًا في عصرهم.

وما أن فرغ من قراءة المقال حتى قال:

- لم أعلم بما يجري.

- الدنيا قد قلبت عليه..

ففتح الرافعي الجرائد التي كانت عنده ولم يقرأها بعد فوجد الصفحات الأدبية مكتظة بالمقالات التي ترد عليه، والعناوين الرنانة.

فخرج الرافعي من فوره إلى أقرب مكتبة واقتنى الكتاب..

وجلس يقرؤه وهو متوقد الفكر يسعى لأن يجد الزلة والغلطة، ولكنه وجد الكتاب حافلًا بالزلات والغلطات التي لا تغتفر، فضحك الرافعي وقال: الآن وقعت...

كان الرافعي متأهبًا ينتظر اللحظة التي ينقض فيها على طه حسين انقضاض الأسد على فريسته وها هي قد أتت على طبق من ذهب وتنتظره، فكان لها..

فنشر مقالًا رنانًا تحت عنوان (قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة) بعد أن قرأ الكتاب؛ مطلعه: قرأت كتاب «الشعر الجاهلي» وقد كتب في عنوانه «تأليف طه حسين: أستاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية».

فما أكثر أسماء الهر وما أقل الهر بنفسه...

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ومضى الرافعي ناقدًا بمقالاته هذه فتبعها بـ (إلى الجامعة المصرية) و(إلى الجامعة أيضًا) (وشهد شاهد من أهلها)...

وصار الشارع المصري لا حديث له عن تلك المعركة وتلك القضية. وأحصر طه حسين حصارًا شديدًا بين لكم المقالات وضرب الصحف، ولا يعرف على من يرد.. إلا أن الرافعي كان له النصيب الأكبر والحظ الأوفر من نقد خصمه القديم.

قال لمحمود شاكر وهما يجلسان في مقهى بالقاهرة:

- هي.. بسببها كانت هذه الخصومة بيني وبين طه حسين.

- هل تعني أنه لا يستحق نقدك العنيف؟

- لا، لم أقل هذا، طه يستحق أكثر من هذا بكثير، ولكن العداوة بيني وبينه بدأت منذ سنتين تقريبًا، منذ أن تفوه على رسائل الأحزان بنقد فارغ مثله، ولن ينسى الدرس الذي أعطيته إياه في (السياسة).

- اتركها يا سيدي فهي لا تستحقك.

فقال مترددًا:

- أتراني خطأت يوم القطيعة؟ نعم.. كبريائي هو من جعلني أفعل ما فعلته ذلك اليوم، ليت تلك الساعة تعود لبقيت عندها ولما خرجت غاضبًا.

- ولكن الحزن الذي تسببت لك به له مزايا عظيمة.

- كيف؟

- لولا غضبك وفورانك وثورتك وأنت بتلك المشاعر الجامحة الغاضبة الساخطة عليها لما جاء (رسائل الأحزان) ولا جاء (السحاب الأحمر)، (وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم)

- صدقت يا محمود، هو خير..انتظر مقال الغد سيكون قنبلة جديدة وأتمنى أن تكون ضربة قاضية لكتاب أستاذ الجامعة.

- بالانتظار...

وصل إلى الرافعي كتاب من ماري يني، ولكن في الكتاب طلب تردد الرافعي تلبيته، كانت رسالة قد سمته فيها (الحبيب المستبد) وتطلب صورته، فأرسل الرافعي لها صورته، وكتب لها مع الصورة:

ارسمي شخص الوفا

ثم انظري من بعد رسمي

لو يُسمى في الأنام الحبُّ

ما اختار سوى اسمي

وبعد أن وصلت الرسالة لماري نشرتها مع البيتين في مجلتها!



قال الرافعي:

- وجدت عند ماري ما لم أجده عند مي من تواضع لم أره.

- فلمَ لم تكاتبها طويلًا؟

- لم أشا أن أعيد مأساة حب، فهي تشبهها بالاسم!



(٢٣)

إن طه حسين هذا مجموعة أخلاق مضطربة وأفكار متناقضة وطباع زائغة.

ونشر مقاله المعنون (أستاذ الآداب والقرآن إلى هيئة كبار العلماء ومجلس إدارة الجامعة).

كان مقال الرافعي هذا ضربة قاضية قاسمة للدكتور طه، فعلى إثره قامت نهضة العلماء المنتظرة في القاهرة وأسيوط وطنطا والإسكندرية ودمياط والزقازيق، ووصلت البرقيات إلى جلالة الملك في الجامعة وآراء أستاذها الدكتور طه حسين بعد أن فضح الرافعي ضلاله وزوره وجهله.

وإذا بالمظاهرات تجوب الشوارع ساخطة ناقمة على الجامعة وأستاذها وما قام به من آراء تمس معتقدهم. وخرج أغلب العلماء الكبار واجتمعوا بفضيلة شيخ الأزهر، فقال الشيخ الإمام الأكبر:

- لم أقرأ الكتاب ولكني قرأت مقالات الكاتب مصطفى صادق الرافعي وهو يحثنا على الخروج ونصرة الدين، وقد أورد في مقالته أمثلة لما قاله.

فقال أحد الشيوخ:

- يجب أن نطهر البلاد من هذا وأمثاله من الكفرة الفجرة، هو ورئيس الجامعة الذي وافق على تلك المحاضرات.

وقال آخر:

- إن لم نتخذ إجراءً سريعًا في إيقاف هذا الكتاب وأمثاله فإن الإلحاد والزندقة ستنتشر انتشار النار في الهشيم، وسيجدها الملحدون منفذًا لغزو فكر شبابنا.

فقال آخر:

- والجامعة التي تنفق من أموال الشعب هي لتخريب عقول أبنائه.

فقال الإمام شيخ الأزهر:

- تشكل لجنة منكم لتقديم دراسة مستعجلة وسريعة عن الكتاب، وأريد هذا التقرير أن يكون على مكتبي في اسرع وقت.

فقال أحدهم:

- ومقالات الأستاذ الرافعي أليست كافية لأن ننتفض؟

- ونحن انتفضنا..

وكانت المظاهرات مستمرة إلى أن وصلت بعضها إلى بيت الزعيم سعد زغلول وهي تطالب بإقصاء طه حسين ونهاية كتابه اعدمًا.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

كتاب الشعر الجاهلي

رأي لجنة العلماء فيه

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر.
السلام عليكم ورحمة الله:

وبعد، فقد اجتمعت اللجنة المؤلفة بأمر فضيلتكم من الموقعين عليه لفحص كتاب طه حسين المسمى «في الشعر الجاهلي» بمناسبة ما قيل عنه من تكذيب القرآن الكريم، واطلعت على الكتاب، وهذا ما نرفعه إلى فضيلتكم عنه بعد فحصه واستقراء ما فيه:

يقع الكتاب في ١٨٣ صفحة، وموضوعه إنكار الشعر الجاهلي وأنه منتحل بعد الإسلام لأسباب زعمها - وقال إنه بنى بحثه على التجرد من كل شيء حتى من دينه وقوميته عملًا بمذهب « ديكارت» الفرنسي.

والكتاب كله مملوء بروح الإلحاد والزندقة، وفيه مغامز عديدة ضد الدين مبثوثة فيه لا يجوز بحال أن تلقى إلى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لعقائدهم والموجب للخلاف والشقاق في الأمة وإثارة فتنة عنيفة دينية ضد دين الدولة ودين الأمة.

وترى اللجنة أنه إذا لم تكافح هذه الروح الإلحادية في التعليم ويقتلع هذا الشر من أصله وتطهر دور التعليم من (اللادينية) التي يعمل بعض الأفراد على نشرها بتدبير وإحكام تحت ستار حرية الرأي، اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الأمن لأن الدين هو أساس الطمأنينة والنظام. الكتاب وضع في ظاهره لإنكار الشعر الجاهلي، ولكن المتأمل قليلًا يجده دعامة من دعائم الكفر ومعولًا لهدم الأديان، وكأنه ما وضع

إلا ليأتي عليها من أصولها، وبخاصة الدين الإسلامي، فإنه تذرع بهذا البحث إلى إنكار أصل كبير من أصول اللغة العربية من الشعر والنثر قبل الإسلام مما يرجع إليه في فهم القرآن والحديث، هذا ما يرمى إليه الكتاب في جملته، ولنذكر نبذًا منه بعضها كفر صريح وبعضها يرمي إلى الإلحاد والزندقة فنقول:

قال في صفحة ٢٦ ما نصه: «**للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل. وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلًا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة**».

أنكر المؤلف بهذا هجرة سيدنا إبراهيم مع ولده إسماعيل عليهما السلام وقال إن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى في سورة إبراهيم حكاية عنه عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

وقال في الصفحة نفسها «**نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة - يريد قصة الهجرة - نوعًا من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والقرآن والتوراة من جهة أخرى**».

وهو في هذا النص يصرح بأن القرآن اختلق هذه الصلة بين إسماعيل والعرب ليحتال على جلب اليهود وتأليفهم، ولينسب العرب إلى أصل ماجد زورًا وبهتانًا لأسباب سياسية أو دينية.

وهذا من منتهى الفجور والفحش والطعن على القرآن الكريم في إثباته أبوة إبراهيم للعرب في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

وقال في صفحة ٢٧ «**وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة - الهجرة المذكورة - في القرن السابع للمسيح...** إلى أن قال في صفحة ٢٩ «**إذًا فليس ما يمنع قريشًا من أن تقبل هذه الأسطورة التي - تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم، كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعتها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس بن بريام صاحب طروادة، أمر هذه القصة إذًا واضح. فهي حديثة العهد قبيل الإسلام، واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضًا، وإذًا فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى**»

وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية سورة البقرة، ولقوله تعالى:﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات التي في هذا الموضوع، وهو فوق تكذيبه للقرآن، يقول إن فيه تدليسًا واحتيالًا لأسباب سياسية ودينية من أجلها اختلق هذه الأخبار، بهذا وأمثاله يقرر المؤلف أن القرآن لا يوثق بأخباره ولا بما فيه من التاريخ.

وكم يترك هذا الكفر الفاحش في عقول الطلبة من أثر سيئ وهدم لعقائدهم ودينهم وماذا بقي في القرآن من ثقة وحرمة في نفوسهم بعد هذا التكذيب؟

وقال في صفحة «٣٣»: **وهناك شيء بعيد الأثر لو أن لدينا أو لدى غيرنا من الوقت ما يمكننا من استقصائه أو تفصيل القول فيه، وهو أن القرآن الذي تُلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه، وتباينت تباينًا كثيرًا...** إلى أن قال: **إنما نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ويسيغه النقل وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما يتلوه النبي وعشيرته من قريش، فقرأته كما كانت تتكلم**» إلى آخر ما قال.

وهذا تصريح منه بأن القراءات لم تكن منقولة كلها عن النبي ﷺ، بل هي من اختلاف لهجات القبائل، فالسبع المتواترة ليست عنده واردة عن النبي -ﷺ-. ومعلوم في أصول الدين أن السبع متواترة وأن طريقها الوحي فمنكرها كافر.

وعدا ما سردناه توجد صحائف عديدة فيها مغامز مؤلمة، منها ما قاله في صفحة ٨١، «**وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم.**»

وفي الصفحة التي قبلها «**أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا للإسلام أولية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي، وأن خلاصة الدين الإسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل**»

وهو في هذا يكذب قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا الموضوع، ومنها غير ذلك كثيرًا مما هو مبثوث في الكتاب.

ولا ريب في أن هذا هو عين ما يطعن به المشركون على القرآن في مبدأ أمره، قال تعالى في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

فاللجنة ترفع إلى فضيلتكم ما وصلت إليه على سرعة من الوقت مما سطره المؤلف من الكفر الصريح، وتترك ما ينطوي في ثناياه من الإلحاد والزندقة مما لا يخفى على الناظر. نرفعه مطالبين فضيلتكم والحكومة بوضع حدٍّ لهذه الفوضى الإلحادية. خصوصًا التي تنبت في التعليم لهدم الدين بمعول الزندقة كل يوم، فما نفرغ من حادثة إلا ونستقبل حوادث لا تدع المؤمن مطمئنًا على دينه.

نطالب فضيلتكم والحكومة بذلك حرصًا على أبناء الدولة أن يتفشى هذا الداء فيهم، وهم رجال المستقبل وسيكون بيدهم الحل والعقد في مهام الأمور. ونحن لا نفهم كيف تُصرف أموال المسلمين وأوقافهم على تعليم نتيجة هذا الإلحاد الذي يبثه الداعي ويتقاضى عليه مرتبًا ضخمًا من هذه الأموال. وهل بهذه الطريقة وعلى هذا النحو تخدم وزارة المعارف أبناء الأمة ورجال الغد وتبني صرح التعليم والتربية؟

نسأل الله أن يوفقكم لما فيه المصلحة والسلام.

٢٦ شوال سنة ١٣٤٤

محمود الديناري. عبد المعطي الشرشيمي. محمد عبد السلام القباني. عبد ربه مفتاح، عبد الحكم عطا. محمد هلالي الأبياري. عبد الرحمن المحلاوي. محمد علي سلامة.

وخرج جمع من العلماء يقارب المائتين إلى (قصر عابدين)، فالتقوا بـ(توفيق باشا نسيم) وبين لهم تعاطفه معهم واستياءه من الجامعة ورئيسها وأستاذها، ثم قصدوا وزيري المعارف والخارجية واجتمعوا معهم.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

قال الرافعي:

- طه حسين قد كبر غيه وفساده وزيغه، فكان لا بدَّ من حملة ضده، فكانت مقالاتي بحمد الله لها الأثر الكبير في دحض باطله، وإنما هاجمته نصرًا للقران.



(٢٤)

قد تبين الرشدُ من الغيّ.

- ألم أقل لك لا تدخلنا مع الناس في حرب لا طاقة لنا؟ انظر ماذا فعلت، التليفون لم يعد يسكت فتارة وزير المعارف وتارة وزير الخارجية وتوفيق باشا وشيخ الأزهر عدا المقالات التي ملأت الدنيا، وكلهم شيء والرافعي وما يكتبه شيء آخر، وهو يتلقى دعم من أصوات الشعب كيف لا؟ وهو صاحب نشيد سعد؟!

فقال طه:

- لم أكن أعلم أننا نعيش في تخلف إلى هذا الحد...

فقال أحمد لطفي السيد بغضب:

- أي تخلف؟ أنت معرض للخطر.. حياتك في خطر... ألا ترى ماذا يُكتب عنك؟

فقال طه بلهجة المستسلم وتاركًا الحكم لأستاذه:

- ما العمل؟

فقال لطفي السيد بأناة وتريث بعد أن هدأ قليلًا للهجة طه:

- اكتب لي كتابًا تبين فيه أنك مؤمن..

فقاطعه طه وقال:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- وأنا مؤمن حقا، ولكن باحث..

- أعلم، ولكن من يقنعهم؟ قل بلسانك، وسوف ننشره...وبعدها..

- وبعدها ماذا؟

- تذهب إلى باريس بحجة الإجازة الصيفية.

فلم يكن بد من الاستجابة.

فكتب:

(حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل مدير الجامعة المصرية أتشرف بأن أرفع إلى عزتكم ما يأتي:

كثر اللغط حول الكتاب الذي أصدرته منذ حين باسم: «في الشعر الجاهلي» وقيل إني تعمدت فيه إهانة الدين والخروج عليه، وإني أعلِّم الإلحاد في الجامعة؛ وأنا أؤكد لعزتكم أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه، وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأنا الذي جاهد ما استطاع في تقوية التعليم الديني في وزارة المعارف حين كففت العمل في لجنة هذا التعليم، ويشهد بذلك معالي وزير المعارف وأعوانه الذين شاركوني في هذا العمل، وأؤكد لعزتكم أن دروسي في الجامعة خلت خلوًا تامًا من التعرض للديانات، لأني أعرف أن الجامعة لم تنشأ لمثل هذا.

وأنا أرجو أن تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان من تشاؤون وتنشروه حيث تشاؤون وأن تقبلوا تحياتي الخالصة وإجلالي العظيم.

طه حسين.)

وترك طه الجامعة فورًا راجعًا إلى داره، ودخل مستعجلًا فقال لزوجته بالفرنسية:

- تحضري سوف نذهب إلى فرنسا.

- متى؟

- في الغد، وسوف نخرج اليوم ليلًا.

فصرخت به -كعادتها عند الغضب-:

- ماذا تقول؟ أنا لم أتحضر أو أتجهز.

فرد طه بنفس اللهجة الغاضبة:

- يجب أن نذهب بلا نقاش، حياتي في خطر، والوضع يزداد سوءًا، المظاهرات في كل مكان وحكم عليّ المتأسلمون بأني كافر وزنديق يعني دمي مهدر...

ومضى يتوكأ على عصاه وتركها تبكي.. عند الحادية عشر مساءً جاء سكرتير طه حسين في سيارة ومعها سائق ودخل وأخرج حقائب الدكتور وزوجته وركبوا في السيارة التي انطلقت بهم.

والمظاهرات الغاضبة تتجه نحو الجامعة، وجموع أخرى بعد أن علمت أن أستاذ الجامعة غير موجود في الجامعة انطلقت إلى بيته، وصلوا إلى بيته وهم ينادون: اخرج يا كافر...

وجاء رجل مجاور لبيت الدكتور وقال لهم: الدكتور قد خرج هو وأهله وبناته في سيارة وذهب!

وازداد غضبهم فأخذوا يرمون بيته بالحجارة فتكسر الزجاج وهم غاضبون ساخطون ناقمون عليه.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

دخل ضابط البوليس على مكتبة مدير الجامعة المصرية، فقال الضابط:

- أين الدكتور طه حسين؟

- غير موجود.

- أين هو؟

- في إجازة صيفية لبضعة أشهر.

- أين ذهب؟

- لا أعلم، ولكن أظن إلى فرنسا عند أهل زوجه.

- هذا بلاغ من النيابة بضرورة حضوره.

- سوف أعطيه إياه عندما يعود.

- شكرًا يا أفندم وعذرًا على الإزعاج.

- أهلًا..

فقال أحمد لطفي السيد: كنت متوقعًا هذا..

وما أن قرأ الرافعي خطاب طه حسين إلى مدير الجامعة حتى ضحك، وكتب مقالًا تحت عنوان (ولما أدركه الغرق).

جلسة البرلمان المصري ليوم الثلاثاء ١٤سبتمبر ١٩٢٦م:

اجتمع البرلمان بعد جلسة الأمس الصاخبة حول موضوع الجامعة.

فقال الرئيس: ننتقل إلى استئناف النظر في ميزانية الجامعة.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقام عبد الحميد البنان أفندي وقال: قدمت اليوم بلاغًا إلى النيابة العمومية للتحقيق مع طه حسين فيما كتبه طعنًا على الدين الإسلامي؛ وبناء على ذلك لم يبق محل للقسم الثاني من اقتراحي الذي قدمته أمس في هذه المسألة، وبما أن مصادرة الكتاب لا يمكن أن تكون إلا بحكم، وهذا تابع بطبيعة الحال للقضية المطلوب تحقيقها، فإنه لم يبق محل للقسم الأول أيضًا في اقتراحي؛ وأما فيما يختص بالقسم الثالث فإني أكتفي بتصريح دولة رئيس الوزراء ومعالي وزير المعارف بالنظر في هذه المسألة وبحثها بما تستحقه من العناية.. وبناء على كل هذا سحبت اقتراحي.

الرئيس: وهو كذلك.

وكان الشارع المصري متابعًا تلك الأحداث وهو ينتظر النتيجة وكيف ستنتهي.

- آراء طه حسين في الأدب الجاهلي مسروقة كلها.

قالها محمود شاكر للرافعي وهو كمن عثر على كنز ثمين.

فقال الرافعي:

- أعلم ذلك، فقد علمت أنه قد أخذه فكرته من المستشرق (مرجليوت).

- لكن نقل طه حسين عن (مرجليوت) مشكوك به.

- ما وجه الشك؟

- مرجليوت أصدر كتابه قبيل إلقاء طه حسين دروسه بقليل.

- وماذا يعني ذلك؟

- وجدت كتابًا آخر نقل طه عنه أراءه.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فرفع الرافعي حاجبيه متعجبًا.

فقال محمود شاكر:

- كتاب (الشعر العربي قبل الإسلام) المطبوع في باريس سنة ١٨٨٠م.. وفيه كل آراء طه تقريبًا.

فتبسم الرافعي ضاحكا وقال:

- قد تبين الرشد من الغي.

- وهناك أمر آخر..

- قل.

- مي زيادة..

- ما بها؟

- انتصرت لرأي طه حسين.

فتنهد الرافعي وقال:

- لقد ابتلينا بطه حسين مذكرا ومؤنثا.

××××

قال الرافعي:

- فطه لم يأت بشيء جديد من عنده، ولكنه سرقه من المستشرقين.

- وهل أحسن السرقة؟

- لا، والدليل قد كشفت سريعًا.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢٥)

من فرض على الناس أن يعرفوه نابغةً فقد فرض عليهم أن يعرفوه معتوهًا أو مغرورًا.

النيابة العامة في ١٩أكتوبر-١٩٢٦:

- ما اسمك وعمرك وعملك وأين تسكن؟

- اسمي طه حسين، عمري سبعة وثلاثون عامًا، أعمل أستاذًا للآداب العربية بكلية الآداب في الجامعة المصرية، أسكن في القاهرة.

- هناك عدة بلاغات ضدك حول كتاب (في الشعر الجاهلي)، ومن حيث أقوال المبلغين تبين أنك تطعن في الدين الإسلامي في أمور أربعة:

١) أهنت الدين الإسلامي بتكذيب القران الكريم في إخباره عن إبراهيم وإسماعيل كما ورد في ص٢٦.

٢) ما تعرضت له في شأن القراءات السبع المجمع عليها والثابتة لدى المسلمين جميعًا، وانك في كلامك تزعم عدم إنزالها من عند الله، وأن هذه القراءات إنما قرأتها العرب حسب ما استطاعت لا كما أوحى الله بها إلى نبيه مع أن معاشر المسلمين يعتقدون أن كل هذه القراءات مروية عن الله تعالى على لسان النبي ﷺ.

٣) إنك تطعن بالنبي ﷺ طعنًا فاحشًا من حيث نسبه كما ذكرته في الكتاب ص٧٢.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

٤) انك أنكرت أن للإسلام أولية في بلاد العرب وأنه دين إبراهيم إذ تقول ص٨٠: وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور ثم أعرضت عنه لما أضلها به المضلون وانصرفت عنه إلى عبادة الأوثان.

وهذه العبارات جاءت في سياق الكلام على موضوعات كلها متعلقة بغرض ألف الكتاب لأجله، فيمكن من خلال مناقشة الكتاب كاملًا يمكن الوقوف على قصد المؤلف.

والآن يا دكتور طه هل يمكن لحضرتكم تعريف اللغة الجاهلية الفصحى وعلى لغة حمير وبيان الفرق بين لغة حمير ولغة عدنان ومدى هذا الفرق وذكر بعض الأمثلة تساعدنا على فهم ذلك؟

- قلت إن اللغة الجاهلية في رأيي ورأي القدماء والمستشرقين لغتان متباينتان، أولهما لغة حمير وهذه اللغة قد درست ووضعت لها قواعد الصرف والنحو والمعاجم، ولم يكن شيء من هذا معروف قبل الاكتشافات الحديثة، وهي كما قلت مخالفة للغة العربية الفصحى التي سألتم عنها مخالفة جوهرية في اللفظ والنحو وقواعد الصرف، وهما إلى اللغة الحبشية القديمة أقرب منها إلى اللغة العربية الفصحى، وليس شك في أن الصلة بينهما وبين لغة القران والشعر كالصلة بين السريانية وهذه اللغة القرانية. فأما إيراد النصوص والأمثلة إلى ذاكرة لم يهبها الله لي، ولا بد من الرجوع إلى الكتب المدونة في هذه اللغة.

- هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا لنا هذه المراجع أو تقدموها لنا؟

- أنا لا أقدم شيئًا!

- هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا إلى أي وقت كانت موجودة اللغة الحميرية ومبدأ وجودها إن أمكن؟

- مبدأ وجودها ليس من السهل تحديده ولكن لا شك في أنها كانت معروفة موجودة تكتب قبل القرن الأول للمسيح وظلت تتكلم إلى ما بعد الإسلام، ولكن ظهور الإسلام وسيادة اللغة القرشية محوا غيرها من اللغات المختلفة في البلاد العربية وغير العربية وأقرّا مكانهما لغة القران.

- هل يمكن لحضرتكم أيضا أن تذكروا لنا مبدأ اللغة العدنانية ولو بوجه التقريب؟

- ليس من السهل معرفة مبدأ اللغة العدنانية وكل ما يمكن أن يقال بطريقة عملية هو أن لدينا نقوشًا قليلة جدًّا يرجع عهدها إلى القرن الرابع للميلاد، وهذه النقوش العربية من اللغة العدنانية ولكن المستشرقين يرون أنها لهجة قبطية وإذن فقد يكون من احتياط العالم أن نرى أقدم نص عربي يمكن الاعتماد عليه من الوجهة العلمية إلى الآن إنما هو القران.

- هل تعتقدون حضرتكم أن اللغة سواء كانت اللغة الحميرية أو اللغة العدنانية كانت باقية على حالها من وقت نشأتها أو حصل بها تغيير بسبب تمادي الزمن أو الاختلاط؟

- ما أظن أن لغة من اللغات تستطيع أن تبقى قرونًا دون أن تتطور ويحصل فيها التغيير الكثير.

- وقصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام واختراع العرب لها؛ هل هي من استنتاجك أم نقلتها؟

- فرض فرضته أنا دون أن أطلع عليه في كتاب آخر وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب أن شيئًا من هذا الفرض ظهر يوجد في بعض كتب المبشرين.

فكتب رئيس النيابة بعد طول التحقيق وبعد تقرير مطول:

(نحن في موقع البحث عن حقيقة نية المؤلف، فسواء لدينا إن صحت نظرية تجريد شخصيتين عالمة ومتدينة أو لم تصح فإننا على الفرضين نرى أنه كتب ما كتب على اعتقاد تام.

ولما قرأنا ما كتبه بإمعان وجدناه منساقًا في كتاباته بعامل قوي متسلط على نفسه وقد بينا حين بحثنا الوقائع كيف قاده بحثه إلى ما كتب وهو إن كان قد أخطأ فيما كتب إلا أن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء وتعمد الخطأ المصحوب بنية السوء شيء آخر.

وحيث أنه مع ملاحظة أن أغلب ما كتبه المؤلف مما يمس موضوع الشكوى وهو ما قصرنا بحثنا عليه إنما هو تخيلات وافتراضات واستنتاجات لا تستند إلى دليل علمي صحيح فإنه كان يجب عليه أن يكون حريصًا في جرأته على ما أقدم عليه مما يمس الدين الإسلامي الذي هو دينه ودين الدولة التي هو من رجالها المسؤولين على نوع من العمل فيها وأن يلاحظ مركزه الخاص في الوسط الذي يعمل فيه، صحيح أنه كتب ما كتب عن اعتقاد بأنه بحثه العلمي يقتضيه ولكنه مع هذا كان مقدرا لمركزه تمامًا وهذا الشعور ظاهر من عبارات كثيرة في كتابه منها قوله: وأكاد أثق بأن فريقًا منهم سيلقونه ساخطين عليه وبأن فريقًا سيزرون عنه ازورارًا ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث.

إن للمؤلف فضلًا لا ينكر في سلوكه طريقًا جديدًا للبحث حذا فيه حذو العلماء من الغربيين ولكنه لشدة تأثير نفسه مما أخذ عنهم قد

تورط في بحثه حتى تخيل حقًّا ما ليس بحق أو ما لا يزال بحاجة إلى إثبات أنه حق، إنه قد سلك طريقًا مظلمًا فكان يجب عليه أن يسير على مهل أو أن يحتاط في سيره حتى لا يضل ولكن أقدم بغير احتياط فكانت النتيجة غير محمودة.

وحيث إنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين بل إن العبارات الماسة بالدين التي أوردها في بعض المواضع من كتابه إنما قد أوردها في سبيل البحث العلمي مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها.

وحيث إنه من ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر (فلذلك تحفظ الأوراق إداريًّا...

محمد نور

رئيس نيابة مصر

القاهرة في ٣٠ مارس ١٩٢٧م)

وأعاد الدكتور طه حسين في العام نفسه طبع كتابه (في الشعر الجاهلي) تحت عنوان (في الأدب الجاهلي) بعد أن حذف المسائل الأربعة المشار إليها آنفًا..

بعد أن تلقى درسًا من الرافعي لم ينسَه طه في حياته، ولن ينساه قراؤهما ما بقي الأدب العربي....



القسم الرابع

نهاية حبيبين

أريدها لا تعرفني ولا أعرفها، لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها.

الرافعي

(٢٦)

وللسـفود نـارٌ لـو تلقـت

بجاحمهـا حديـدًا ظُـن شـحما

ويشـوي الصَّخـر يتركـه رمـادًا

فكيـف وقـد رميتـك بـه لحمـا!

طنطا ١٩٣٣م:

جلس الرافعي في صباح يوم العيد، وكعادته اغتسل وتعطر وتأنق ثم سار إلى المسجد، وبعد أن صلى العيد، زار قبر والديه، وعاد إلى البيت، ولم تمض برهة حتى جاء محمد سعيد العريان وكان شابًّا يافعًا قد وجد في الرافعي معينًا لا ينضب وثقافة لا تضاهى وكاتبًا له قضية يلوذ عنها، والرافعي رجل لا يطرد محبيه بل يحبهم ويجيب عن الرسائل كلها، لم تمض على صداقة العريان إلا أشهر، جاءه مرة مع صحبه زائرًا، وبعدها صار كثير الزيارة له، إلى أن اصطفاه الرافعي وجعله من خاصته.

خرج الرافعي مع العريان لزيارة بعض الأصحاب، فقال الرافعي:

- اليوم تذكرت صديقًا لي، قد مضى زمنًا لم أره معرضًا بي، إني لمشتاق له جدًّا، ولأيامنا تلك.

- ومن هذا؟

فتنهد الرافعي وقال:

- عباس محمود العقاد...

فقال العريان مباشرة:

وللسفود نارٌ لو تلقت

بجاحمها حديدًا ظُن شحما

ويشوي الصَّخر يتركه رمادًا

فكيف وقد رميتك به لحما

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فتبسم الرافعي عندما علم أنه ينشد تلك الأبيات الشهيرة التي وضعها مفتتحًا كتابه الشهير (**على السفود..نظرات في ديوان العقاد**)، وقال:

- ما زال للأبيات رنين في فيك!

- وكن كيف قام هذا النزاع الشرس بينكما وأنتما من أنتما بين أدباء العربية؟

- هو من اعتدى، ونال ما يستحقه..

- وكيف هذا؟

فعادت ذاكرة الرافعي إلى الخلف بضع سنين..

كانت بين الرافعي والعقاد بوادر خصومة قديمة. ولما تم تعيين الرافعي في عام ١٩٢٦م شاعرًا للملك أغدق على الملك أبي فاروق فؤاد المدائح،

فكان ينشد الشعر كالبلبل الصداح في الحديقة الملكية، ونال الرافعي حظوة عنده، فأخرج له كتابه (إعجاز القران) بطبعة ملكية فاخرة، وكتب له سعد زغلول على الكتاب:

(حضرة المحترم الفاضل مصطفى صادق الرافعي.

تحدى القرآن أهل البيان في عبارات فارغة محرجة، ولهجة واجزة مرغمة، أن يأتوا بمثله أو سورة منه، فما فعلوا، ولو قدروا ما تأخروا، لشدة حرصهم على تكذيبه، ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم، واتسع له إمكانهم. هذا العجز الوضيع بعد ذاك التحدي الصارخ، هو أثر تلك القدرة الفائقة، وهذا السكوت الذليل بعد ذلك الاستفزاز الشامخ، هو أثر ذلك الكلام العزيز.

ولكن أقوامًا أنكروا هذه البداهة وحاولوا سترها. فجاء كتابكم (إعجاز القران) مصدقًا لآياتها، مكذبًا لإنكارهم، وأيد بلاغة القران وإعجازها بأدلة مشتقة من أسرارها في بيان مستمد من روحها، كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم. فلكم على الاجتهاد في وضعه والعناية شكر المؤمنين، وأجر العاملين والاحترام الفائق.

سعد زغلول ١-١١-١٩٢٦م)

وغضب العقاد وهو كاتب الوفد الأوحد ولكن سعدًا لمّا يكتب له (**كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم.**). فكانت هذه الضغينة قد ثارت في نفس العقاد. وصارت تغلي في نفسه..الى أن التقى بالرافعي في المقطف، وثارت ثائرته وقال ما لا يسمح به عن إعجاز القران، فثارت ثائرة الرافعي فكانت (على السفود).

فقال الرافعي للعريان:

- وأعتقد أن هناك سببًا ثانيًا لنزعة العقاد عليّ.

- ما هو؟

فتوقف الرافعي برهة، وقد هاجت الأحزان في نفسه، فقال بصوت ينم عن شرخ عميق فيه:

- هي... مي..!

فانقطع عن الكلام، فقال وملامح وجهه كالقابض على الجمر وهو راض بحرارته ومتحمل:

- يقال إنه كان يحبها وتحبه..حبًّا عميقًا حسب ما قيل لي، وأن كل غزله عنها، وحقد عليّ عندما أصدرت الكتابين.

- ماذا؟ ومن ذا الذي قال لك هذا؟

- أنا استنتجته.. وهو أمر بديهي. ليتني لم أخرج بتلك اللحظة وأرتكب تلك الحماقة، ولكن سأعود إليها حتمًا سأعود، أنا متأكد إننا سنلتقي بعد عشر سنوات بالضبط ولم يبق إلا القليل، بضعة أشهر فقط، سيكون لقاؤنا ممتعًا بعد عشر سنوات من الفراق والحنين، هل تعلم كم هي تتألم الآن؟ هل تعلم كم حياتها أضحت قاسية بائسة؟ لقد مات أبوها وأمها قبل فترة...و...

فتلعثم ولم يعد قادرًا على نطق الاسم، وبعد جهد جهيد قال:

- وجبران..الذي كتبت ما كتبت عنه، ثم إن كتاباتها القليلة التي تنشرها بعد موتهم كلها حزينة تقطر دمعًا، أخشى أن تكون قد ترهبنت!

لم يحاول العريان أن يناقشه أو يجادله فقد صار يسمع هذا الكلام كثيرًا منه في الفترة الأخيرة، مع العلم أنه لم يفتئ يذكرها يومًا وعن ندمه

وحسرته.

وسارا نحو بيت الأستاذ حسنين مخلوف صديق الرافعي، كان مدرسًا في طنطا كالعريان، وكان مثقفًا كبيرًا، لا يكاد يفوته شيء مما تنشره المطابع في اللغة والأدب العربي إلا واقتناه، فكان الرافعي يحب جلسته ويستمع إليه. وبعد أن عايداه وجلسا عنده، قال الرافعي:

- ما أخبار كتبك يا حسنين وماذا تقرأ هذه الأيام؟

- قرأت مقالك عن شوقي (رحمه الله) وهو من أبدع ما أنتج في الأدب العربي في الشهر الماضي، الحقيقة يا رافعي المقالتان عن حافظ وشوقي أدب راق.

- سوف يكون كتابًا ممتعًا، ولا أحسب أن في الأدب العربي مثله، مجموعة نفيسة من المقالات، لم يبق لإتمامه إلا مقالة (سر النبوغ)، وأعتقد هو الذي سيكون اسمه (الأدبيات).

- نأمل أن يكون أفضل من أوراق الورد...

- أوراق الورد لا مثيل له...

- ماذا اقتنيت هذه الأيام؟

فضحك الأستاذ حسنين مخلوف، وقال باسمًا:

- ديوان صاحبك..العقاد..صدر حديثًا.

- أين هو؟

فقام الأستاذ حسنين وأتى به.

فقال الرافعي:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- قبل أن أقرأ به ولكي لا تقولا أني صاحب عداوة سابقة أخرجوا لي أحسن قصائد الديوان لكي أطلع عليها، لكي لا تقولوا أني خصمه ونده.

فقام العريان وجلس عند حسنين مخلوف وأخذا يقرآ الديوان والرافعي ينظر إليهما بترقب..

فقال حسنين مخلوف:

- لعلك مستعجل يا أبا سامي؟

- لا، بل سأنتظر..حتى تجدا ما لا يسمى إلا هراء عند العقاد..

وطال بهم المجلس والرافعي ينتظرهما وهما منهكان ومكبان على الديوان بحثًا وتمحيصًا لعلهم يجدون أبياتًا لا يتعرض لها الرافعي بالتهكم والسخرية فضلًا عن نقده الحاد. فقال الرافعي ضاحكًا: يبدو أنكما لم تجدا ما يستحق القراءة؟ ولكن أخرجا القصائد التي في بداية الديوان فالشاعر يضع في بدايته أجوده.

فصارا يقرآن أوله ولم يسلم الديوان من نقد حسنين مخلوف والعريان، فضحك الرافعي بملء شدقيه، وقال: هذا الرجل لم يهبه الله شاعرية أو بيانًا يستحق الخلود، كلّ شعره رديء، وجيده مسروق أو مترجم.

وكان وقت الغداء قد حان والأستاذ حسنين قد مد سفرة الطعام. فقال الرافعي:

- منعني العقاد من الغداء مع أهلي في أول أيام العيد بعد صيام شهر كامل..

فقال حسنين:

- إني لشاكر للأستاذ العقاد فضله في أن كان سببًا في تناولك الغداء عندي.

فضحك الرافعي، وقال:

- صحيح لماذا لا تكتب أنت نقدًا للعقاد؟ هذه المسائل التي تحدثت بها تصلح لأن تكون مقالًا نقديًا للعقاد.

- وهل مثلي يقوى على نقد العقاد وهو من هو؟

- لمَ لا؟ وما العقاد أصلًا؟

- حسنًا..سأحاول..

تمر الأيام سريعًا وينشر الأستاذ حسنين مخلوف مقالًا في نقد ديوان العقاد، وكان نقدًا مهذبًا، نقده بطريقة علمية. ولكن العقاد ردّ عليه ساخرًا متهكمًا، وعاب عليه أن لا يحسن فهم الشعر وأن سائر المدرسين في مصر كذلك، فغضب المعلمون على حسنين، ولاموه ووبخوه، وقال له أحدهم: لولاك لما كتب العقاد ما كتب في حقنا، كان الأجدر بك السكوت. وقال للعريان ما جرت عليه بسبب مقاله في نقد ديوان العقاد.

فقال العريان للرافعي:

- لقد كنت أنت السبب فيما نال مخلوفًا من إخوانه، وفيما نال مدرسي اللغة العربية من لسان العقاد.

- وماذا أصنع إذا كان العقاد سليط اللسان؟

- أنت الذي هيجت مخلوفًا إلى هذه المعركة التي لا طاقة له بها، فانتهت إلى ما انتهت بينه وبين إخوانه، وكنت سببًا فيما كتب عن دار العلوم أيضًا..

فشعر الرافعي بشيء يتموج فيه، فقال كاظمًا غيظه:

- وماذا عليّ أنا فيما كتب مخلوف وفيما ردّ عليه العقاد؟

- لولاك لم يكتب مخلوف فيتعرض لما تعرض له من لسان العقاد ومن عتب رفاقه، ولولا ما كتبه لبقيت دار العلوم بريئة من العيب لم يطعن فيها العقاد ولا غير العقاد.

فقال الرافعي ثائرًا:

- سوف ألقن العقاد درسًا في نقد لن ينساه ما دام حيًّا...لأجعلنه يترحم على نقد مخلوف. ولكن بشرط: أن تشتري لي ديوان العقاد (وحي الأربعين) على حسابك، فأنا لا أدفع في العقاد كله قرشًا واحدًا.

- موافق.

×××

وجاء العريان، فقال له الرافعي:

- لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل، وإن لي فيه لرأيًا، فهل تساهرني الليلة حتى أملي عليك ما أعددت في نقده؟

فقال العريان:

- بلى، فهي فرصة رائعة لكي أرى مهبط وحي البيان عليك..

وكانت بيده قصاصات صغيرة كتب فيها ملاحظاته على الديوان فأخذ يملي عليه حتى مطلع الفجر، فكانت المقالة بضعًا وعشرين صفحة كبيرة.

ونشر المقال في البلاغ..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ورد العقاد في مقال شديد اللهجة واصفًا الرافعي بـ(المهذار الأصم) وكان مقاله تحت عنوان (أصنام الأدب). وجاء العريان إلى الرافعي وما لمحه حتى هتف به وهو يبتسم:

- هل قرأت مقال العقاد؟

- نعم.

- فماذا رأيت فيه؟

- لقد كان شديدًا مؤلمًا!

فقال الرافعي وهو يغرق في الضحك:

- واللّه ما رأيت كاليوم، لقد ضحكت حتى وجعني قلبي من الضحك، إنه لم يكتب شيئًا ولم يرد على شيء، إن سبابه وشتمه لن يجعلاه عند القراء شاعرًا كما يشتهي أن يكون، وإن حسب بذلك أنه يكسب المعركة، وقد حق عليه ما قلت فيه، وإنه ليعترف، إن فراره من الردّ إلى السباب والشتيمة ليس إلا اعترافًا بالعجز.

- لا تقل عن العقاد ليس شاعرًا..لا تقل!

- ويحك لمَ؟

- لأن طه يزعل عليك وهو الذي خلع عليه أمارة الشعر..

فضحك الرافعي..وقال:

- تلقى طه درس لن ينساه...فليسكت.

- إذن فأنت لا تنوي الردّ على العقاد؟

- وأي شيء تراه يستحق الردّ فيما كتب؟

ولكن القرّاء لن يفهموا سكوتك على وجهه، ولن يسموه إلا انسحابًا من المعركة..أفترضى أن يقال عنك؟

فتردد قليلا، ثم فكر برهة، فقال:

- هل توافيني الليلة لأملي عليك؟

- طبعًا طبعًا..

فكانت مقالته (الثور والجزار والسكين) وكان نقدًا لاذعًا. فأعلن العقاد في مقال انسحابه من هذه المعركة..أما الرافعي فظل يكتب إلى أن أفرغ ما في جعبته من نقد.



قال الرافعي:

- كانت معركتي مع العقاد انتصارًا لإعجاز القران الذي أنكره العقاد.

فقال العريان:

- أنت تقول هكذا، ولكن من يرَ (على السفود) يفهم غير هذا تمامًا..

- ما الذي يفهمه؟

- أنت لم تكتب نقدا لمسألة الإعجاز، إنما نقدًا للديوان!

- لأني لم أشأ أن أدخل الإعجاز في معركة وهو لا يؤمن به أصلًا..[1]

(١) كان هذا حال العقاد قبل أن يكتب روائعه في الفكر الإسلامي، كالعبقريات و(الفلسفة القرانية) و(ما يقال عن الإسلام) وغيرها.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- وهل أحب الآنسة ميّ؟

- سمعت بذلك، ويقال أنها تركته عام ١٩٢٦م، وقد أشار إليها في مقالاته (مواقف في الحب).

- ولكن لم أرَ اسم مي في تلك المقالات.

- رمز لها باسم ثان.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢٧)

خيل إليَّ دائمًا أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه.

- لماذا لا تكتب القصة؟ وغالب أدبك خال منها؟ (سأل أحد الأدباء الشباب الرافعي)

فأجاب بتمهل وتريث:

- لم اكتب في القصة إلا قليلًا، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم، ولكني مع ذلك لا أراني وضعت كل كتبي ومقالاتي إلا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في رأسي، وهذا القلب الذي بين جنبي.

شاع أدب القصة في أوربا، وطغى عندهم على المقالة، والكتاب وديوان الشعر جميعًا، فقام عندنا المتابعون في الرأي، والمقلدون في الهوى، والضعفاء بطبيعة التقليد والمتابعة - قاموا يدعون إلى هذا الفن من الكتابة، ولا يرون من لا يكتب فيه إلا مدبرا عن عصره وأدب عصره. ولا جرم إذا كانوا هم أنفسهم مدبرين عن الحقيقة ومعنى الحقيقة. وأنت متى كان وجهك إلى الباطل وظهرك إلى الحق، فمهما تقدم في رأي نفسك فإنما تتأخر في رأي الحق، وكلما قطعت إلى غايتك رأيت الذي وراءك مختلفًا متراجعًا بمقدار ما أبعدت كأنه في أمس، وكأنك في غد، ولا يوم بينكما يجمع منكما ما تفرق.

- فهل أنت تنكر فن القصة والقصة الطويلة أو ما يعرف بفن الرواية؟

- إن أكثر ما تراه من القصص، وبخاصة هذه التي غمرت الكتابة عندنا إنما هي صناعة لهو، ومسلاة فراغ، وهذا قد يكون له وجه في علاج الحياة العملية، وفي تخفيف حطمة الاجتماع في أوربا وأمريكا، ولكن ما موضعه عندنا في الشرق، والشرق إنما تعمل في نهضته لمعالجة اللهو الذي جعل نصف وجوده السياسي عدمًا، ولملء الفراغ الذي جعل نصف الحياة الإنسانيّة موتًا؟ هذا الضرب من القصة هو لرجالنا ونسائنا إذا قراؤه وتلهو به أشبه بإدخال أولئك الرجال والنساء - إدخالهم وإدخالهن على الكبر - في مدارس رياض الأطفال.

الأطفال يستلذون الحكاية بالفطرة لأنها تجيئهم بالدنيا التي يعسر أن يذهبوا إليها أو يغامروا فيها، وتهيئ لهم أن يشعروا خيالهم قوة الخلق فتكون لذتهم على مقدار من بعد هذه الدنيا عنهم وعلى مقدار مثله من طبيعة العجز في خيالهم، وهذا الضعف في الناحيتين هو بعينه الذي يجعل لأكثر القصص شأنًا عند سخفاء الناس وفراغهم، وأهل الحمق فيهم، يسعرهم شهوات وخيالات وأوهامًا من الباطل، فذلك إذن ليس أدبًا يكتب ويقرأ، بل هو بلاءً اجتماعي يطبع ويوزع في الناس...

ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصًا، ثم تقرأ فتبقى قصصًا؟ وإن هي صنعت شيئًا في قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات تكون مسكنات عصبية إلى حين ثم تنقلب بنفسها بعد قليل إلى مهيجات عصبيةً؟!

- إذن أنت تنكر هذا الفن؟

- أنا لا أنكر أن في القصة أدبًا عاليًا، ولكن هذا الأدب العالي في رأيي لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها في الرواية كما يربى الأطفال

على أسلوب سواء في العلم والفضيلة، وقد رأينا قصة (البؤساء) رحم الله حافظًا إذ دلني على صفحة من (البؤساء) ترجمها في خمسة عشر يومًا، كم تعب في ترجمتها حتى أخرجها بهذه الحلة؟ وكذلك المنفلوطي عندما أعاد صياغة (ماجدولين) و(الشاعر).

فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون وطريق ممحصة، وغاية معينة، ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر الذين تنصبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تثير الحياة أو تثيرها الحياة، والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة، وما بين الحياة وموادها النفسية في هؤلاء وهؤلاء، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها، وتتأمل فتخرج أسمى حكمتها، وتشرع فتضع اصح قوانينها. وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الأدب رعاع وهمج كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز - هذه الفوضى الممقوتة التي لو حققتها في النفوس لما رايتها إلا عامية روحانية منحطة تتسكع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تسفل، وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو. تنتهي الأولى فيك بأثرها السيئ، تبدأ الثانية منك بأثرها الطيب، وهذا عندي هو فرق ما بين فن القصة، وفن التلفيق القصصي!! ثم أني لم أخلق لهذا الفن لكي أكتب فيه.

- كيف يرى الأستاذ الرافعي نفسه في الأدب؟

- خيل إليّ دائمًا أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه، فأنا أبدًا في موقف الجيش (تحت السلاح) له ما يعانيه وما يكلفه وما يحاوله ويفي به وما يتحاماه ويتحفظ فيه، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها. وكيف اعترضت الجيش رأيته فن نفسه، لا فنك أنت ولا فن سواك، إذ هو لطريقته وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ (وقد عابني مرة أحد الكتاب بأني (لا أكتب في الدراما) فلو أن هذا الكاتب وقف على شاطئ المحيط وجعل يتهكم بالأسطول الإنجليزي فيزري عليه أنه ليس شيوعيًا ولا بلشفيًا، فما عسى أن يقول الأسطول إذا هو أجابه إلا أن يقول شيئًا كهذا: تبارك من صنع هذا الإنسان مدفع لحم لإطلاق الكلام الفارغ.

أنا من أجل ذلك لا أزال إلى الآن مع الأدب العربي في فنه وبيانه أكثر مما أنا مع الحكاية ولغتها وعواطفها، فأكبر عملي إضافة إلى الصور الفكرية الجميلة إلى أدبنا وبياننا متحاشيًا جهد الطاقة أن أنقل إلى كتابي دواب الأرض أو دواب الناس أو دواب الحوادث، فإن الكتب ليست شيئًا غير طبائع كتابها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها. والرواية إذا وضعها كاتب فاجر، فهي عندي ليست رواية بل هي عمل يجب أن يسمى في قانون العقوبات (فجورًا بالكتابة).

ثم أنّ المشتغلين في القصة فقط دون المقالة والشعر هم على هامش الأدب يعيشون كصديقي محمد سعيد العريان..

ثم نظر إلى العريان وهو يضحك..(ثم أردف) احذف هذه الجملة الأخيرة.

كان ذلك الشاب يكتب ما قاله الرافعي، فقال:

- سوف أنشره على صورته في الرسالة إن وافق الزيات.

- إن شاء اللّه.



ووقع للرافعي ما كان خائفًا منه، إذ تم قطع المعونة الملكية عن ولده محمد الذي يدرس الطب في فرنسا، ولم يبق على نهاية الدراسة إلا أشهر قليلة، كان محمد قد بُعث على حساب جلالة الملك إلى فرنسا لدراسة الطب، عندما كان أبوه شاعر الملك، فغم الرافعي لهذا الخبر ولم يجد بدًا من الإنفاق عليه ولكن كيف ومن أين؟ وراتبه لا يتجاوز الأربعة والعشرين جنيهًا؟ فلا مال مكنوزًا عنده، ولا أرض يبيعها وينفق عليه منها، ولا بيت عنده إلا بيت والده الذي يسكن به هو وأخوه.

فصار يقول: كله من الإبراشي باشا، لولاه لما خرجت من وظيفة شاعر الملك، واستبدلني بذاك الشويعر عبد اللّه عفيفي!

وبينما هو على هذا الحال جاء كتاب من الأستاذ (أحمد حسن الزيات) صاحب مجلة (الرسالة) يطلب منه الكتابة في المجلة وحدد له أجرًا..

- لماذا لا تكتب له؟ نحن محتاجون لهذا المال لكي نرسل مصرفًا لولدنا محمد الذي ينتظر أن ترسل له.

- ولكن يا نفيسة أنا متردد في الكتابة لهم.

- توكل على اللّه..

ودخل الرافعي حقبة جديدة من حياته الأدبية بكتابته لشيخة الثقافة العربية مجلة الرسالة الغراء. فدفع لهم مقال (لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على فنيته)، ثم (الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام)..

وكان بهذه المقالات قد كسب شهرة عند قرّاء الرسالة، وصارت تصل الرسائل إليه كثيرة وفيرة،وكان يرد على أكثرها..

(الأستاذ الرافعي..السلام عليكم..

أنا فتاة صابرة بائسة، من الشام التي هي مسقط رأسك، أنا أصغر إخوتي، لي أختان أكبر مني، لقد كنا أهل جاه وأهل غنى، فتربيت على الترف والسرف، وأنا سعيدة ومدللة، إلى أن تنكر الزمان لنا، وخسر أبي كلّ أمواله في تجارته، فصرنا فقراء بعد غنى، وصرنا نتحصر على الليرة بعد أن كان الذهب يموج في يدينا، اضطر أهلي للعمل المجهد، وأختاي اللتان كانتا منعمتين مترفتين صارتا تخدمان في البيوت وهما صابرتان محتسبتان، وتزوجتا، وبقيت أنا، وعملت أيضًا لأساعد أهلي على سنة أختيَ، ولكن حصل لي ما أساء حياتي وشابها شيء من الكدر؛ ألا وهو شعور الأمومة.

نعم أريد أن أكون أمًّا، صار هذا الشعور يلح عليَّ إلحاحًا شديدًا، وأنت تعلم؛ فقد شح الرجال الطالبون للزواج هذه الأيام، ولكن ما العمل وأين المفر؟

شر عليَّ بما وهبك الله من حكم وعقل راجح.

الصابرة

دمشق ١٩٣٤م)

(أيتها الصابرة...

لقد أحسنت اختيار وصفك، وأنت بصبرك هذا صرت حكيمة وراجحة العقل أكثر مني، فحري بي أن أسألك أنا، لقد وهبك الله عقلًا

لا كعقول الفتيات، بل تكمن فيه حكمة الكهول..اصبري...والسلام.

مصطفى صادق الرافعي-طنطا ١٩٣٤م)

وعادت لتكتب له بشكل أوسع عن حياتها وكل تفاصيلها مهما صغرت. أما (مها) فلم تترك الرافعي بعد صارت علاقة ودية بينهما، وصارت مكتوباتها تصل إلى الرافعي ويتابع أخبارها. كانت معظم رسائلها تتعلق في مسائل بالأدب..الى أن كتبت له مرةً:

(أستاذي الكبير:

أكتب لك وفي نفسي يتموج ذلك السر الكبير، الذي لم أبح به لأحد، ولا أجد أحدًا يفهمني ويفهم مقصدي مثلك أنت، وسأبوح به لك لأنك أخي وأنا التي لا أخ لها، ولأنك أستاذي وإن كنت لم أرك.

أنا أدّرس التلاميذ في الثانوية مادة اللغة العربية كما تعلم، فوقعت في حب فتىً من تلاميذي وعمره سبعة عشر عامًا، وهو وسيم وديع، أخلو به خلوات بريئة، وأتحدث معه وألمح له عن ما يتموج بداخلي من مشاعر جامحة ثائرة نحوه، أحبه حبًّا عظيمًا، وأظن أنه يحبني أيضًا ولكني لمّا أصارحه بعد بحبي له، ولكن قل لي يا أستاذي هل في مصارحتي له إثم أو حرج؟ أفتني..)

ضحك الرافعي عندما قرأ رسالتها هذه، فمدها للعريان وقال:

- أتراها تصلح لموضوع ظريف نكتبه للرسالة؟

- القصة لم تنضج بعد...

- ماذا أكتب لها؟

- الصبر، دعها تصبر فهو الحل الوحيد.

كان الرافعي منهكًا متعبًا جلس إلى أصحابه في المقهى مع العريان والأستاذ علي وخالد. فقال الرافعي:

- إني محتاج للراحة حقًّا، أين تقترحون أن نقضي الليلة؟

فصمت الرجال، فقال الأستاذ خالد:

- إنّ في متنزه البلدية فرقة تمثيلية هبطت المدينة منذ أيام، وإن فيها لمغنية راقصة، أحسبها خليقة بأن توحي لك بفصل جديد من أوراق الورد!

فلم يجب الرافعي، فقال الأستاذ علي:

- ولكنها راقصة ليست كالراقصات، إنها صوّامة قوّامة، تصوم الشهر وستة أيام بعده، وتقوم الليل إلا أقله، وتصلي الخمس في مواعيدها الخمس، وما أحسب رقصها إلا تسبيحًا وعبادة!

فقال الرافعي متعجبًا:

- أفي الممكن هذا؟ لَعُوب حسنة الدّلّ، مُفَاكهة مُدَاعبة، تحيي ليلها راقصة مغنية؛ حتى إذا اعتدل الليل ليمضي، وانتبه الفجر ليقبل، انكفأت إلى دارها فنَضَتْ وَشْيها، وخرجت من زينتها، وخلعت روحًا ولبست روحًا، وقالت: اللهم إليك، ولبيك اللهم لبيك. ثم ذهبت فتوضأت وأفاضت النور عليها، وقامت بين يدي ربها تصلي!

راقصة تصلي وتصوم! كان الأستاذ علي يعبث كعادته، ولكن الرافعي صدقه.. وذهبوا ليشاهدوها!

فكانت ترقص بصدرها الناهد وذلك الشعر اللامع والكل ينظر إليها ولجمالها بشهوة متأججة، أما الرافعي فكانت له ينظر إليها بعين ثانية، كانت قديسة عابدة زاهدة، وبينما هو سارح في خيالاته أما هذه القديسة التي تهز وسط الرجال تخيل أنها قادمة إليه، فتقول له:

- أخذني أبي من عهد الطفولة بالصلاة، وأثبت في نفسي أن الصلاة لا تصح بالأعضاء إن لم يكن الفكر نفسه طاهرًا يصلي لله مع الجسم، فإن كانت الصلاة بالجسم وحده لم يزدد المرء من روح الصلاة إلا بُعْدًا. وقر هذا في نفسي واعتدته، إذ كنت أتعبد على مذهب الإمام الشافعي «رضي الله عنه»، فأصحح الفكر، وأستحضر النية في قلبي، وأنحصر بكلي في هذا الجزء الطاهر قبل أن أقول: «الله أكبر»؛ وبذلك أصبح فكري قادرًا على أن يخلع الدنيا متى شاء ويلبسها، وأن يخرج منها ثم يعود إليها؛ ونشأت فيه القوة المصممة التي تجعله قادرًا على أن ينصرف بي عما يُفسد روح الصلاة في نفسي، وهي سر الدين وعماده. ورأيت أبي يصلي، وكذلك رأيت أمي، فلا تكاد تلم بي فكرة آثمة إلا انتصبا أمامي، فأكره أن أستلئم إليهما فأكون الفاسدة وهما الصالحان، واللئيمة وهما الكريمان؛ فدمي نفسه -ببركة الدين- يحرسني كما ترى.

- فهذا الرقص؟

- نعم، إنه قُضي علي أن أكون راقصة، وأن ألتمس العيش من أسهل طرق وألينها وأبعدها عن الفساد، وإن كان الفساد ظاهرها؛ أريد: الرقص، أو الخدمة في بيت، أو العمل في السوق. وأنا مطيقة لحريتي في الأولى، ولكني لن أملكها في الأخيرتين ما دام علي هذا الميسم من الحسن؛ وكم من امرأة متحجبة وهي عارية الروح، وكم من سافرة وروحها متحجبة؛ إن كنت لا تعلم هذا فاعلمه؛ وليس السؤال ما سألت، بل يجب أن يكون وضعه هكذا: هل ما ترى هو في ثيابي فقط، أو هو في ثيابي ونفسي؟ ها أنت ذا تغلغل نظرتك في عيني إلى المعاني البعيدة، فهل ترى عيني راقصة؟

- لا والله، ما أرى عينَيَّ راقصة، ولكن عيني مجاهد في سبيل الله!

- بل قل: عيني مجاهد يهزم كل يوم شيطانًا أو شياطين. وأنا أعتمد على شهامة الرجل، فإن لم أجدها علمتُ أني بإزاء حيواني إنساني، فأتحذره حذري من مصيبة مقبلة. وإذا جاءني وقح خلق الله وجهه الحسن مسبة له، أو خلقه هو مسبة لوجهه القبيح، ذكرت أني بعد ساعة أو ساعات أقوم إلى الصلاة، فلا يزداد مني إلا بعدًا وإن كان بإزائي، فأُغلظ له وأتسخط، وأظهر الغضب وأصفعه صفعتي.

- وما صفعتك؟

- إنها صفعة لا تضرب الوجه ولكن تُخجله.

- وما هي؟

- هي هذه الكلمة؛ أما تعرف يا سيدي أني أصلي وأقول «الله أكبر» فهل أنت أكبر؟ أأقيم لك البرهان على صَغارك وحقارتك، أأنادي الشرطي؟!

وقطع خياله الرافعي انتهاء دورها بالرقص..فعاد الرافعي إلى بيته وهو يقول: أممكن هذا؟رقصت ثم صلت؟

فكتب مقالًا للرسالة (في اللهب ولكن لا تحترق). ولما ذهب للأستاذ علي ليقص عليه شيء من أخبار تلك الراقصة.

فقال الأستاذ علي: لقد ذهبت الفرقة..لم تعد هنا..

فحزن الرافعي لهذا الخبر، فقال له الأستاذ علي:

- اعذرني ولكنها كذبة ومزحة كانت!!

فقال الرافعي متعجبًا:

- ما هي المزحة؟

- الراقصة الصوّامة القوّامة.

- ما بها؟

- لم تكن صوّامة ولا قوّامة..بل مزحة..

فضحك الرافعي ولم تنجل منه وقع المفاجأة..فرفع المقال المنشور في الجريدة وقال ضاحكًا: في اللهب ولا تحترق؟

فقال الأستاذ علي: بل احترقت.

××××

قال الرافعي:

- هيّا قد حان وقت النوم.

فقال العريان:

- وأنا أستسمحك أريد الذهاب.

- لا تتأخر غدًا. تعال مبكرًا، مشتاق لها، أريد أن يأتي الصبح سريعًا.

- سوف آتيك مبكرًا.

- لا تتأخر، سأحاول أن أصلح ما ضيعته قبل اثني عشر عامًا، كانت لحظة تهور، أليس كذلك؟

- أنت لم تخطئ، وإن أخطأت فلسوف تصلحه غدًا.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢٨)

من للمُـحب ومن يعينه

والحـب أهنـأه حزينـة

أنا ما عرفـت سوى قسا

وتـه فقولـوا كيف لينـه

وفي اليوم التالي جاء العريان على الموعد المضروب، فقال:

- لم أنم ليلتي أمس!

فقال الرافعي:

- لمَ؟

- لأني متشوق لهذا اليوم، كيف سيكون لقاء الرافعي بالآنسة مي؟ التي كتب عنها ثلاثيته الرائعة في فلسفة الجمال والحب، كيف سيلقاها؟ أنت والله يا رافعي قد ابتكرت فنًّا جديدًا في الرسائل لم تعرفه العرب قط!

- وما هو؟

- مراسلات عبر الصحف، تكتب لها رسالة لها فتنشرها عبر الصحف، فتفهم هي رسالتك، وترد عليك عبر الصحيفة أيضًا، وتكتب الكتاب فتحشوه برسالة لها، وتفهم هي هذه الرسالة من الكتاب! إنه فن رائع لم تعرفه العرب من قبلكما.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- هاهاها.

ثم قال:

- هيا لنذهب.

- إلى أين؟

- إلى بيت الآنسة مي! على موعدنا

فتبسم في هدوء ينم عن حكمة فيلسوف، فقال:

- لا لن أذهب.

- ماذا؟ هل تعني أنك لن تذهب إليها الآن ولم تندم!!

- أجل لم أندم!

- وحديث الأمس الطويل، وندمك وحسرتك، كلها أين ذهبت في هذه الساعات القلائل التي تركتك بها؟

- يا بني إنها ليست هناك، إن تلك قد ذهب منذ اثنتي عشرة سنة، أما (هذه) فأظنني لا أعرفها..إنني أحذر على الماضي الجميل أن تتغير صورته في نفسي..بحسبي أنها في نفسي.

- ألم تندم على فراقها؟

- نعم، بل هي التي يجب أن تندم.. وما أريد من الحب إلا الفنَّ، فإن جاء من الهجر فنٌّ فهو الحب..

- لقد أصبحت أرى أَليَنَ العطف في أقسى الهجر...

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- ولن أطلب الحبَّ إلا في عصيان الحبّ، أريدها غضبى، فهذا جمالٌ يلائم طبيعتي الشديدة، وحبٌّ يناسب كبريائي، ودع جرحي يترشَّرِش دمًا، فهذه لعمري قوَّةُ الجسم الذي ينبت ثمرَ العضل وشوكَ المخلب..

- وفي الأمس ألم تندم؟

- بلى!

- والآن؟

- يا ولدي في بعض الأحايين يهيج الشوق ولهيبه، فأطيعه، أما بعد أن يستقيم الفكر وتذهب السكرة وتبقى الفكرة، فلا، لم أندم ولن أندم.

فتبسم العريان وقال:

- أنت وقصتك من أغرب قصص الحب.

- لا غرابة، فالحب يصنع بنا ويفعل ما لم نكن نحسبه يومًا.

- والآن أستسمحك أن أكتب قصصك مع الحب للرسالة، فإن الزيات سيفرح.

- اكتب..

ثم ابتسم وصار ينشد قصيدته:

من للمُحب ومن يعينه
والحب أهنأه حزينة

أنا ما عرفت سوى قسا
وته فقولوا كيف لينه

عصير الكتب للنشر والتوزيع

إن ينقض دين ذوي الهوى

فأنا الذي بقيت ديونه

قلبي هو الذهب الكريـ

ـم فلا يفارقه رنينه

قلبي هو الألماس يعـ

ـرف من أشعته ثمينه

قلبي يُحب وإنما

أخلاقه فيه ودينه

يا من يُحب حبيبه

وبظنّه أمسى يهينه

وتعفُّ منه ظواهر

لكنه نجس يقينه

كالقبر غطّته الزهور

وتحته عفن دفينه

عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٢٩)

يا ويل المرأة من قلبها حين يكون محروما! يا ويل المرأة من قلبها حين يكون فيها كالمنفي في غربة!

إيطاليا:

زارت الآنسة مي الكنيسة، وذهبت إلى البابا وتحدثت معه، وجلست عنده، فقالت له:

- ادع لي الرب أن أعود لما كنت عليه، صرت أتحسر على ما كنت عليه؛ لم أعد أقدر على مسك القلم، أكاد أكره الكتب، وهذه المرة الأولى التي يحصل لي مثل هذا الشيء، كنت أجلس الساعات الطوال على مكتبي دون فتور أو ضجر، أما الآن فلا أعلم ما بي، لقد كُسر جناحي بعد موت أبي وأمي وجبران، هكذا رحلوا متتابعين على حين غفلة، وتركوا لي جرحًا لن يندمل.

- فليرحمهم الرب، ويغفر لهم خطاياهم..اصبري يا مي...اصبري.

وبينما هي تشكو استأذن البابا الخروج لبعض شأنه.. فجلست تنتظر، وجلس بعض الذين يريدون أن يروا البابا، فأخذوا يتحدثون عن الأوضاع السائدة والسياسة المضطربة، فقال أحدهم:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- إن موسوليني هو خير من يستطيع أن يعيد الإمبراطورية الرومانية بما يمتلك من قوة وبأس وفتوة، فهو أهل للريادة والقيادة لإمبراطورية عظيمة بحجم الإمبراطورية الرومانية ويعد حضارتها البائدة.

فقالت مي متعجبة:

- وهل أنت مع عودة الامبراطورية الرومانية؟

فقال الرجل بيقين تام:

- نعم، وهل عندك شك؟ أم لا ترغبين بعودتها؟ (قال جملته الأخيرة للتأكيد لا للاستفهام)

ففاجأته مي بقولها:

- نعم، لا أرغب بعودة تلك الامبراطورية.

فاشرأبت الأعناق نحوه، وقال غير واحد بصوت واحد:

- لمَ؟

فقالت بلهجة المؤمن:

- إن هذه الامبراطورية هي التي صلبت المسيح، فلماذا تحرصون على عودتها؟

وعلت الأصوات، وما أن انفض المجلس حتى كانت في نفوس الحضور من مي أشياء وأشياء.

وفي اليوم التالي لقيت مي أحد أصدقائها من موظفي السفارة الفرنسية في إيطاليا، ودعاها لتناول الغداء. وبعد إن استقرا، قال لها بصوت خافت:

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- تعرفين مدى اعتزازي بك، وحبي إليك، ولولا هذا ما دعوتك لهذا الموضوع المهم جدًّا.

فتغيرت ملامح مي، وصعقت بموجة من التساؤلات، فقال بصوت مرتجف:

- ماذا حدث؟ هل هناك شيء؟

- نعم، هناك شيء خطير يجب أن تعلميه، وتتصرفي على إثره..

وزاد كلامه من توترها وخوفها واضطرابها، فقالت:

- ماذا جرى؟

- وزارة الداخلية في إيطاليا تنظر إلى وجودك في استياء وعدم ارتياح! وكل ما قلته أمس في صالة الانتظار بالكنيسة قد وصل إلى مسامع الدوتشي شخصيًّا.

فقالت مي باضطراب:

- كيف؟ ما العمل؟

- لا تفتحي فمك بشيء، والأحسن أن تسكتي ولا تخوضي في هذه الأمور ولو لا أنك صديقتي لما أخبرتك بهذا..أخشى...أخشى..

- ماذا تخشى؟

- أخشى أن تكون هناك مؤامرة ضدك من قبل الأمن الإيطالي.. عودي إلى مصر قبل أن..قبل أن يفعلوا بك شيئا..

وصارت مي تتلفت، وقامت مسرعة بعد أن شكرته. وخرجت عائدة إلى الفندق وهي تنظر خلفها باضطراب وخوف..فلمحت رجلًا كأنه يتبعها، فأسرعت بالمشي وهي تحدث نفسها: سوف يقتلونني..سوف أموت..

عصير الكتب للنشر والتوزيع

ووصلت الفندق والخوف مسيطر عليها، دخلت صالة الفندق وهي تراقب الوجوه وتظن كل من في الفندق سيقتلها. وصعدت الغرفة وهي منهكة متعبة تتسارع أنفاسها، وهي تقول: الدوتشي سوف يقتلني. سوف أموت. وبينما هي تحدث نفسها إذا بالباب يدق فظنت أن قاتلها قادم لا محالة، فأخذت سكينًا من المطبخ وحملتها نحو الباب، وإذا به عامل الفندق قد جاء بالطعام، ولما أدخل الطعام إلى الحجرة وخرج أفرغت الطعام في سلة المهملات خوفًا من السم.

وفي اليوم التالي غادرت إيطاليا وعادت إلى مصر، ولكن الخوف ما زال يتملكها، فرأت الطباخ والسفرجي والخادم حسن، فقالت لنفسها: إن الدوتشي لن يتركني وسوف يقتلني هؤلاء الخدم، أليس هذا حسن الخادم من قبل رشوة الأمير المغربي في محاولة خطفي؟ ومن يقبض مرة ويخن يقبض مرات أخر، أكيد سوف يصل إلي الدوتشي عبر الخدم هؤلاء وعبر الجالية الإيطالية هنا في مصر.

فقامت بطرد الخادم حسن والسفرجي والطباخ خوفًا على حياتها، ولم تعد تثق بأحد أو تلقى أحدًا، بل تشك في الكل، وتظن أن الكل يريد يقضي عليها، حتى أن صديقتها خاتون قد جاءت إليها مع خليل مطران وأنطوان جميل، وما أن فتحت مي الباب حتى صرخت:

- قتلة..يريدون قتلي...!

وأغلقت الباب وهي تصرخ..

وكتبت مي إلى طبيب نسيبها وهو من خاصتها وكان يراسلها ويطلب منها أن تأتي إلى لبنان:

(عزيزي جوزيف..

منذ مدة طويلة لم أعد أكتب. وكلما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يجمد حركة يدي ووثبة الفكر لدي.

إني أتعذب شديد العذاب يا جوزيف، ولا أدري السبب، فأنا أكثر من مريضة، وينبغي خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسّه فيّ وحولي. إني لم أتألم قط في حياتي كما أتألم اليوم، ولم أقرأ في كتب من الكتب أن في طاقة بشري أن يتحمل ما أتحمل. وددت لو علمت السبب على الأقل. ولكني لم أسأل أحدًا إلا وكان جوابه: لا شيء، إنه وهم شعري تمكن مني. لا، لا، يا جوزيف. إن هناك أمرًا يمزّق أحشائي ويميتني في كل يوم، بل في كل دقيقة. لقد تراكمت عليّ المصائب في السنوات الأخيرة وانقضت عليّ وحدتي الرهيبة - التي هي معنوية أكثر منها جسدية- فجعلتني أتساءل كيف يمكن عقلي أن يقاوم عذابًا كهذا. وكان عزائي الأوحد هو في مكتبتي ووحدتي الشعرية، فكنت أعمل وأعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعليّ أنسى فراغ مسكني، أنسى غصّة نفسي، بل أنسى كل ذاتي.

إنه ليدهشني كيف إني استطعت أن أكتب هذه الرقيمة. ولعل الفضل في هذا يعود جزئيًا إلى اللفائف التي أدخنها ليل نهار -أنا التي لا عهد لي بذلك-أدخنها لتضعف قلبي، هذا القلب السليم المتين الذي لا يزال يقاوم.

مي)

كان جوزيف يراسل مي وترد عليه بسرور، ودعاها لزيارة لبنان والإقامة فيها بعد أن وصفت حالها في رسالتها، ولكنها هي التي دعته، فأجابها أن زوجه مريضة، وسيزورها بعد أن تشفى.

وفي يوم من الأيام وهي وحدها كعادتها دق الباب، فإذا جوزيف!

جوزيف ماتت زوجه، وجاء إلى القاهرة.

- رحلت بعنفوان شبابها، بلا ريث أو أناة رحلت..

وأخذ يمسح دموعه التي لو نظر لها رجل متفحص لعلم أنها دموع كاذبة زائفة. فقالت مي مواسية:

- فليرحمها الرب..

فقال برقة مصطنعة:

- لما علمت هذا حالك، قررت القدوم إلى مصر لكي أكون وكيلًا عنك وعن أملاك ومصالحك.

- ولكن لا أملاك لي في مصر عدا هذا البيت، وعندي أموال تكفيني فلا حاجة لاحد.

- إكرامًا لي فكري..فأنا أحب أن أخدم.

- سأفعل وان لم يكن هناك ما يدعو للتفكير.

وكان جوزيف في اليوم التالي مع اثنين من أقربائه في صالة بيت مي ومعهم رجل، فهمس جوزيف لهم قائلًا: مي أصبحت مجنونة، لم يبق لها عقل، ولها هذا البيت وسوف نأخذه منها قبل أن تجن جنونًا كاملًا.

فقال أحدهم:

- وكيف ستقبل أن توقع لك وتتنازل عن بيتها؟

- لا عليك، فهي لا تشعر بشيء، أقول لك مجنونة.. يا حضرة الباشكاتب حضر أوراقك.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

وجاءت مي، فأخرج جوزيف قلمًا وقال لها: وقعي هنا..

كانت مي في حالة بائسة، فلم تدرك ما معنى أن توقع لباشكاتب محكمة عابدين، ثم نظرت إلى الدفتر الكبير نحو اسمها..كان اسمها المكتوب في السجل الكبير (ماري زيادة) آه نسيت اسمها الحقيقي!

فكتبت فوقه (مي زيادة) مع خط فوقه فكان هذا توقيعها..ثم عادت إلى مكتبتها. وأخذوا بعد ذلك يعدون الحقائب للسفر، وهي تقول بثبات وعناد:

- لن أغادر مصر..

فقال جوزيف:

- إن البيت يبقى على حاله وكل شيء في مكانه ريثما تعودين من لبنان بعد شهرين، فأنت تحتاجين إلى تغيير الهواء والمحيط، وفي لبنان لن تكوني وحدك بل هناك أهلك وعائلتك الذين سيحيطون بك ويغرقونك بحنانهم وينسوك هذه الوحدة وهذا الجو المظلم.

وافقت مي على مضض، وخرجت مع جوزيف أما الاثنان الآخران فبقيا في البيت بحجة قفل الشبابيك. والاثنان قد قبضا ثمن البيت من المشتري الجديد، بعد أن باعوه بأثاثه بثمن بخس. ومر شهران ونصف وهي في لبنان تقاسي ما تقاسي من جوزيف الذي كلما طالبته بالعودة إلى بيتها تحجج بحجج وذرائع شتى.

- يا دكتور إنها مجنونة ومنهارة، لم تعد تعرف شيئًا سوى عودتها لمصر، وتهذي وترى أن الناس كلها تريد قتها والفتك بها، هي تقول إني مريضة مرضًا لم أرَ مثله، فعليكم أن تحجروا عليها!

- الحق يا أستاذ جوزيف أنا لا أستطيع أن آتي وأدخل عليها هكذا دون تشخيص وتمحيص، يجب أن تأتي بها أنت ونقرر حالها.

- أرجوك تعال وخذها أنت.

- لم يثبت عندي جنونها بعد.

- عندي حل، ما رأيك أن تأتي على إنك مستشرق وتحاورها في الأدب والشعر ومن خلال ذلك تلحظ جنونها.

فقال بعد طول التفكير والتريث:

- مثل ما تريد، وهي طريقة ناجحة لأنها لا تسبب حرج.

وصار الطبيب يتردد على إنه مستشرق إنجليزي، ويحاور مي ويتكلم معها بالشعر والآداب والفنون، ولكن مي كان منهارة الأعصاب فهي أضعف من أن تميز معلوماته وفكره إن كان مستشرقًا حقًّا أم لا، ولأنه يتكلم العربية بشيء من التكلف ظنته مستشرقًا تعلم العربية لا لبنانيًّا.

وجاء ذلك الطبيب (أو المستشرق) ومعه ممرضته تحمل جاكيت المجانين، ولما علمت مي صارت تصرخ، ومسك بها جوزيف والممرضة وهي تصرخ، وضربتها الممرضة بإبرة مهدئة وهي تستغيث من الألم..

أخرجت مي معشوقة الأدباء بجاكيت المجانين وصعدت الإسعاف مع الطبيب والممرضة..وهي تصرخ وتبكي وتقول: لست مجنونة.

وهكذا كان رحيل صاحبة الرافعي التي كانت وحيًّا لا ينتهي يتنزل على الرافعي بآيات البيان الكريمة.

وطوى الرافعي الجرائد والصحف التي نقلت خبر دخول(مي) للعصفورية، وهو حزين. فأتت نفيسة وسألته. فقال:

- رحلت.. مي رحلت.. صاحبت (رسائل الأحزان) و(السحاب الأحمر) و(أوراق الورد)...كيف ذهبت هكذا فجأة دون وداع أو سلام؟ اثنا عشر عامًا ولم ألقها..كتبت لها كثيرًا من الرسائل ولكن لم أرسلها بالبريد بل بالصحف والكتب، أكتب لها وحدها، ويقرؤه الناس كلهم، وأنا لا يعنيني ثناؤهم ومدحهم، بل الذي يهمني هل قرأت الرسالة، وأحسبها كانت تجيب عليّ بما تنشر مقالات..كنت أتتبع كل ما تنشر فأخط على السطر الذي أدرك أنه لي ولكن يكتب لسواي، أما هي فتدري أن كل ما كتبته من حبّ وغزل وهيام لها وحدها، لأنها تدرك أن هذا القلب لم يجرح جرحًا لم يندمل إلا منها..إلا منها..إلا منها..

- فليشفها الله.

- وهل تشفى من سحرت عقول جيل كامل؟ وأحسب جنونها هذا ليس جنونًا بذهاب العقل، إنما هو أثر من ذاك السحر.. سحر الحبّ.

ثم صار يكفكف دموعه ويحاول أن يخفيها عنها..



عصير الكتب للنشر والتوزيع

(٣٠)

أنا لا أخاف الموت...ولكن أخاف ذنوبي.

طنطا ١٩٣٧م:

(الصديق الكريم مصطفى صادق الرافعي..

ما أحلى دعوتك يا صديقي وما كان أشد تأثرها على نفسي! لقد شعرت وأنا أقرؤها بسرور عميق، وتركز في ذهني أن هذه الدعوة مقبولة.

ما أسعدني إذا صرت في المستقبل أمًّا.

أعتقد أنك تعرف حنيني للزواج فيما مضى، وتمردي وثورتي على هذه الحياة لم تكن إلا لأني رأيته وسيلة للحصول على طفل، قد تنبهت بغريزة الأمومة بشكل هائل، تصور يا أستاذي..صرت أكره الأطفال لأني ليس لي بينهم ولد، وكنت إذا أرى أُمًّا تعانق طفلها وتضمه إلى صدرها أحس بألم مرير يحز بقلبي ويكاد يقطعه؛ وكثيرًا ما كنت أتشاغل وأشيح بوجهي حتى لا تقع عيني على هذا المنظر، لست حسودة والله، ولكن شدة إحساسي كانت تجعلني بهذا الوضع.. أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود السرور ؛ وأتمنى لو أنثر الخير والسعادة على الجميع.

والله يعلم أن ليس لي غاية مادية من وراء هذا الزواج ؛ وليس قصدي من وراء هذا الزواج إلا الحماية والستر، لأني مللت ومرض قلبي من فضول الناس.

زرت الآنسة (مي زيادة) هذا الأسبوع في (العصفورية) وأوصلت لها تحياتك وسلامك، ورأيت هذه المرة تحسنًا، وتكلمت معي كلامًا فيه حكمة، وحاولت أن تقنعني بالبرهان والحجة؛ أنها ليست مجنونة.

الصابرة

دمشق ١٩٣٧)

وضع الرافعي رسالة الفتاة الدمشقية الصابرة على مكتبه، وقام والألم يحز قلبه، ورأى على مكتبه كتابه (أوراق الورد) فتذكر مجلسها وذلك اليوم الذي قالت له: إذا كتبت تاريخ هذا الحب فسمه (أوراق الورد)!

دخلت نفيسة إلى مكتبه وقرأت الرسالة، فقالت لنفسها: إلى الآن لم تيأس يا مصطفى؟ متى تصدق أن مي زيادة لن تعود مي التي تعرفها قبل أربعة عشر عامًا؟ مي قد جنت، منذ سنتين وهي في المستشفى العصفورية، لكنك تأبى إلا أن تنتظر وتنتظر...

وجلس الرافعي أمام باب بيته، كان وقورًا مهيبًا، لا يلتفت إلا لحاجة، يضع بين يديه كتابًا. وبينما هو جالس جاء زبال كان يجلس قريبًا منه، فسلم عليه، فقال الرافعي:

- أهلًا بصديقي الزبال. أين أنت منذ أيام لم أرَك؟

فقال ببساطة وهو ينفث دخينته:

- موجود ولكن في الأمس خرجت مع أصدقائي في سفرة بسيطة..

وجلس الرافعي صار يفهم عليه وقد يكتب له أحد أولاده وهو مستأنس مبتهج..فقال له:

- أيها الزبال الصديق إنك صديق رائع، ولأنك رائع لم يتخلَ عنك صحبك، وأنت تستحق، انظر إليّ كم لي معارف؟ ولكن أصدقائي المقربين تركوني وجافوني، فهذا العريان لم يعد يأتي عليّ وفي نفسي منه أشياء، وهذا محمود أبو رية افتعل مشكلة كنا في غنى عنها فقاطعته، وهذا زكي مبارك بيني وبينه خلاف و.. أنت فيلسوف أيها الزبال.. تلهمني مواضيع رائعة، وتخيل لي أن الحياة بسيطة سهلة، ليست كما نظن، فتعال إلى عالم الأدب فترى الخلاف الذي يشب لأجل قصيدة أو قطعة نثرية! الحياة أبسط مما يتخيله هؤلاء الأدباء والفلاسفة..فهمت الحياة أنت بفلسفة رائعة تبعث روح الأمل، التماسك والتعاون لا لغة الخصام والعراك التي تنشأ بيننا، أنا عن نفسي بيني وبين أصحابي الأدباء نزالات وقتال حام، لأجل مسألة في الأدب، فتقض علينا مضاجعنا وتنشأ العداوة والبغضاء، وأنت تجلس مع صحبك فتضحكون وتمرحون ولا هم لكم سوى قوت يومكم، أليست هذه الحياة التي تعيشونها أرقى وأنقى أيها الفيلسوف؟

فهز رأسه إيجابًا..

ثم يتابع: لي مقل سأكتبه بعنوان (الفيلسوف الزبال)..

وبينما هو يحدثه جاء شابان أنيقان يسيران بهدوء، فسلما بأدب، فقال الرافعي:

- تعالا أعرفكما على صديقي الفيلسوف هذا..

فندت منهما ابتسامة، فأكمل قائلًا:

- أيها الفيلسوف هذان ولداي: محمود سامي وهو معيد بكلية الزراعة، والدكتور محمد وهو طبيب، وان احتجت شيئًا فهما خادمان لك..

فرحب بهم الزبال وصافحهما.

فقام هو وعصاه وهو يقول لولديه: اشتريا له شيئًا يأكله، أنا داخل لأكتب مقالًا..

- هناك حملة جديدة ضد طه حسين..إن كنت تحب الدخول في معركة جديدة معه.

(قال جورج إبراهيم حنا)

فتهلل وجه الرافعي فرحًا، وقال:

- حقًا؟ وما هي الحملة؟ أكيد حماقة جديدة من حماقات طه التي لا تنتهي.

- عن الاختلاط بين الشباب والبنات في الجامعة.

- انظر إليه ماذا يفعل لم يكفه ما فعل في الجامعة والدرس الذي تلقاه مني، ولا اكتفى بالدرس الذي تلقاه من تلميذي (محمود شاكر)[1] في العام الماضي، لكي يعود هذا المرة بهذه الفعلة المشينة.

- وكيف ستدخل هذه المعركة؟

- سوف أعرض به ولن أدخلها مباشرة.

- وأين ستنشره؟

- في الرسالة طبعًا.

- والزيات؟

(١) هناك خلاف كبير بين الدكتور طه حسين ومحمود شاكر حول شخصية المتنبي، وجرت تلك المعركة الأدبية حول المتنبي عام ١٩٣٦.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- ما به؟

- أحمد حسن الزيات صديق طه حسين ولن يقبل ما ستكتبه بصديق عمره.

- بل سأكتب.

وكتب الرافعي وأوصل المقال للرسالة بنفسه، فقرأه الزيات وقال:

- لا لا، لا أستطيع نشر المقال، انظر كيف تفتتح المقال وتصفه بالشيطان؟!

- لم أصفه بالشيطان ولم أذكر اسمه.

- ولكن أنت تقصده وهذا لن يخفى على رجل مثل الدكتور طه، بل على كل الناس، وهذه معركة جديدة لا أحب أن تكون على صفحات (الرسالة).

خرج الرافعي وفي نفسه غضب، كان يريد أن يضرب طه في عقر داره.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

×××××××××

في الساعة الثانية ظهرًا خرج الرافعي مع صديقه أمين حافظ شرف وتحت إبطه كتاب ومجلات وفي يمناه عصا، سارا إلى قرب بيته وافترقا.

صلى ونام، وبعد العصر ذهب إلى عيادة ولده الدكتور محمود فلقي أخاه محمد النبوي وصهره غازي البرقوقي، وجلسوا يتكلمون منبسطين، وبينما هم يتحدثون وصلوا إلى سيرة الموت، فسأل أحدهم الرافعي قائلا:

- هل تكره الموت؟

- لا، بل أكره ذنوبي، أما الموت فهو اكتشاف العالم الأكبر، نسأل الله حسن الخاتمة.

- ما هي وصيتك إذا حضرتك الوفاة؟

- هي تكرار المبدأ الذي وضعته لأولادي: النجاح لا ينفعنا بل الامتياز في النجاح ينفعنا.

فتبسم ولده الدكتور محمد وربت على كتفه، وقال:

- يحفظك الله لنا يا أبي.

وخرج هو وأخوه محمد ذاهبين إلى عزاء جاره، فقال محمد:

- يا مصطفى إنك لم تحب العزاء يومًا، فلماذا تصر اليوم على الذهاب.

- لا أعلم، ولكن شعورًا ما يقول أن أجلي اقترب.

- لا تقل هذا يا أخي، فأنت لم تكمل السابعة والخمسين.

- وهل سبعة وخمسون عامًا قليلة يا محمد؟ كم من شاب فتي رحل في الحرب العظمى؟ وكم خسرنا في الثورة؟ وكم تخسر أمتنا؟ أنا أحب أن أموت وأنا معافى لا مريضًا على سرير الموت وأتعذب وأتألم، ما أجمل أن يموت الإنسان فجأة، هكذا هو يأكل أو يتحدث وينتهي من ذلك الألم الذي يصيب أكثر الناس.

- عافاك الله يا أخي..

وفي المساء كان موعده مع صديقه أمين، فسارا معًا إلى موعدهما وعادا عند الثانية عشرة، كان الطريق خاليًا من الناس، موحشًا مظلمًا، فكان الرافعي يتحدث، إلى أن وصل إلى معاركه، فقال أمين:

- هل ندمت على معركتك مع طه حسين؟ أجبني صادقًا.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

- لا، لم أندم يومًا على معركتي معه.

- والعقاد؟

- لم أندم بالمعنى الحقيقي للندم، ولكن مقالات (على السفود) تحتاج إلى تنقيح وتهذيب أكثر. ولكن العقاد حاد النقد، عليّ وعلى شوقي وعلى حافظ.

- لم تكن تتكلم مع شوقي؟

- هو من لا يتكلم معي منذ نقدته عام ١٩٠٥م. أما حافظ فلا، كان صديقي جدًّا، ورأيته آخر مرة في (المقطف) فلم يكد يصافحني حتى قال:

كيف ترى هذا البيت:

واتَّخذتم موجَ الأثير بريدا

حين خلتم أن البروق كسالى

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فهنأته وأثنيت على المعنى وأضمرت في نفسي، فإن جمال البيت هو في استعارة الكسل للبروق، وهذا بعينه من قول ابن نباتة السعدي في سيف الدولة:

وما تمهل يوما في ندى وردى

إلا قضيت للمح البرق بالكسل

وكان هذا آخر عهدي بحافظ، ولم أره بعدها، رحمه الله.

- ماذا تريد أن يقال عنك بعد الموت؟

فرفع رأسه نحو السماء وكان القمر بازغًا منيرًا، فقال:

- ما هي الكلمات التي تقال عن الحي بعد موته إلا ترجمة أعماله في كلمات؟ فمن عرف حقيقة الحياة عرف أنه فيها لهيئ لنفسه ما يحسن أن يأخذه، ويعد للناس ما يحسن أن يتركه، فإن الأعمال أشياء حقيقية لها صورها الموجودة وإن كانت لا ترى.

وبعد الموت يقول الناس أقوال ضمائرهم لا أقول ألسنتهم، إذ تنقطع مادة العداوة بذهاب من كان عدوًا، وتخلص معاني الصداقة بفقد الصديق، ويرتفع الحسد بموت المحسود، وتبطل المجاملة باختفاء من يجاملونه، وتبقى الأعمال تنبه إلى قيمة عاملها، ويفرغ المكان فيدل على قدر من كان فيه، وينتزع من الزمن ليل الميت ونهاره فيذهب اسمه عن شخصه ويبقى على أعماله.

ومن هنا كان الموت أصدق وأتم ما يعرف الناس بالناس، وكانت الكلمة بعده عن الميت خالصة مصفاة لا يشوبها كذب الدنيا على إنسانها، ولا كذب الإنسان على دنياه وهي الكلمة التي لا تقال إلا في النهاية، ومن أجل ذلك تجيء وفيها نهاية ما تضمر النفس للنفس.
وماذا يقولون اليوم عن هذا الضعيف؟ وماذا تكتب الصحف؟ هذه كلمات من أقوالهم: حجة العرب، مؤيد الدين، حارس لغة القرآن، صدر البيان العربي، الأديب الأمام، معجزة الأدب، إلى آخر ما يطرد في هذا النسق، وينطوي في هذه الجملة. فسيقال هذا كله ولكن باللهفة لا بالإعجاب، وللتاريخ لا للتقريظ، ولمنفعة الأدب لا لمنفعة الأديب. ثم لا يكون كلامًا كالذي يقال على الأرض يتغير ويتبدل، بل كلامًا ختم عليه بالخاتم الأبدي، وكأنما مات قائلوه كما مات الذي قيل فيه.

أما أنا فماذا ترى روحي وهي في الغمام وقد أصبح الشيء عندها لا يسمى شيئًا؟ إنها سترى هذه الأقوال كلها فارغة من المعنى اللغوي الذي تدل عليه لا تفهم منها شيئًا إلا معنى واحدًا هو حركة نفس القائل، وخفقة ضميره. فشعور القلب التأثر هو وحده اللغة المفهومة بين الحي والميت.

سترى روحي أن هؤلاء الناس جميعًا كالأشجار المنبعثة من التراب عالية فوقه وثابتة فيه، وستبحث منهم لا عن الجذوع والأغصان والأوراق والظاهر والباطن، بل عن شيء واحد هو هذه الثمرة السماوية المسماة القلب. وكل كلمة دعاء وكلمة ترحم وكلمة خير. ذلك هو ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة.

- هل تخاف على الأدب من بعدك؟

- لكل عصر رجال، ولهذه اللغة حماة باقون على كر الدهور والعصور، محمود شاكر.. محمد سعيد العريان.. علي الطنطاوي.. زكي مبارك.. توفيق الحكيم.. أحمد حسن الزيات.. وغيرهم الكثير من حماة العربية وآدابها، وستبقى هذه اللغة قائمة كالطود العظيم، مهما عصفت بها رياح الاستشراق وغير الاستشراق.

ثم افترقا.



واستيقظ على صوت مؤذن الفجر، فتوضأ وصلى وجلس يذكر الله ويسبحه، وفجأة شعر بحرقة في معدته فشكا لولده محمد، فأعطاه دواءً وقال له: نم، ولن يبقى بك شيء.

ونام قليلًا ثم جلس وقد تحسنت صحته، ومشى إلى الحمام فسقط في البهو سقطةً شديدةً أصدرت صوتًا عنيفًا، وما أن سقط حتى أتت أمامه أمه وهي في ثياب الجنة وقد عادت شابة صغيرة أنيقة، وجنبها أبوه وهو منعم ويبتسم، ثم عصفورة وهي واقفة على جسر كفر الزيات وتشير إليه مبتسمة.. ومدت عصفورة له يدها وقالت: تعال.. حان وقت قدومك. فتبسم وقال لها: أنا آت. وراح الرافعي يتهادى نحوهم وقد برئ من كلّ علة.



وسمعت نفيسة الصوت فقامت مسرعة نحوه لتجد الرافعي جسدًا بلا روح!

فصرخت: مصطفى...مصطفى..

تصرخ، واجتمع أبناؤها وجيرانها، ولكنها كم صرخت ونادت فلم تجد غير حقيقة واحدة متمثلة ألا وهي: لقد مات الرافعي.

وبعد الظهر الاثنين ١٠ مايو ١٩٣٧؛ يحضر بضعة عشرات من أصدقائه ومحبيه ويحملون ذلك الجسد الطاهر، ونفيسة تمشي خلفهم وهي تصرخ: مصطفى... ليسكن ذلك الجسد في جنب أبويه بطنطا.



وقف عملاق الأدب العربي محمود محمد شاكر أمام قبر الرافعي وقال:

(رحمك الله يا أبا سامي، ورضي عنك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك، وجزاك الخير عن جهادك ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين

ايديهم وبأيمانهم بُشرَاكُمُ اليومَ جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾

رحمك الله، لقد شاركت الأوائل عقولهم بفكرك، ونزعت إليهم بحنينك، وفلجت أهل عصرك بالبيان، إلى أن أصبح أدبك ميراثًا نتوارثه، وأدبا نتدارسه، وحنانا نأوي إليك.

ثم قال بحزن عميق: لم تُبقِ لي بعدك إلا الشوق إلى لقائك).

ثم راح شاكر يتهادى بين القبور راجعًا وتاركًا الرافعي جنب أبويه وكان المغيب يقطر سمرة هادئة وهو ينشد:

إن كُنتَ لستَ معي، فالذّكر منك معي
يراك قلبي وإن غُيّبتَ عن بصري
العينُ تبصرُ من تهوى وتفقده
وناظر القلب لا يخلو من النظر

تمت

عصير الكتب للنشر والتوزيع